فيض الرحمن في الانتصار للقرآن

دكتور
إبراهيم علوان
مدرس الشريعة الإسلامية بحقوق طنطا

" تضرعٌ ودعاءٌ "

"رب أوزعني أن أشكرَ نعمتَك التي أنعمتَ عليَّ وعلى والِديَّ وأَنْ أعملَ صالحاً تَرْضاه وأَصلِح لي في ذريَّتي إني تبتُ إليكَ وإني من المسلمين"



الافتتاحية

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستهديه ، ونستغفره ، ونستنصره ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً .

وأشـــهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير.

وأشـــهد أن ســـيدنا وإمامنا محمداً رسول الله ﷺ ، أنزل عليه في محكم القرآن " إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً " .

فصـــلاة وســـلاماً علـــيك يا سيدي يا رسول الله صلاة وسلام دائمين متعاقبين إلى يوم أن نلقى الله .

أما بعد

فـــإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي الحبيب محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار.

" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون " .

" يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبـــث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً "

" يـــا أيهـــا الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً* يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً " .

وبعـــد : فـــإن الحديث عن القرآن شرف للمتحدث والكاتب قبل أن يكون شرفاً للقارئ ، فالحمد لله الذي شرَّفنا بالقرآن ، وأكرمنا بالكتابة عنه .

وهذا الكتاب الجليل يتعرض منذ أن أنزل على خير البرية إلى صنوف من البغي والعدوان والتشكيك ، في محاولة لصرف الناس عنه :
فمرة يقول زعيم من زعماء الكفار: " إن هذا إلا سحر يؤثر" .
ومرة يقولون " هذا سحر وإنا به كافرون "
ومرة يقولون : " إنما يعلمه بشر " .
ومرة يقولون : " لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة " .
ومـــرة يقولـــون : " لـــولا نـــزل هـــذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " .
ومرة يقولون : " لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ".

لكن العدوان عليه بلغ ذروته في هذه الأيام ، حيث خرجت علينا حثالة البشـــر مـــن أحفـــاد مسيلمة الكذاب بكتاب أسمَوْه زوراً وبهتاناً بـــ " الفرقان الحق " يدلِّسون فيه على الجُهَّال من البشر، عن طريق صياغته بكلمات مأخوذة من القرآن الكريم نفسه ، لكنهم يضيفون إليها عبارات تقدح في رسالة الإسلام وتكذب رسوله ، وتمدح في عيسى عليه السلام ، وتقدمه على أنه ابن الله ــ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ــ .

ومـــا تجرَّأ هؤلاء الأفاعي على الظهور في هذه الأيام ، والعدوان على قـــدس الأقـــداس عند المسلمين إلا لضعف سلطان المسلمين ، وتفرُّق

كلمـــتهم ، وتغلغل حب الدنيا وكراهية الموت إلى قلوبهم وهوانهم على الناس ، وضعف الحمية والغيرة على الدين من الكثيرين من ولاة أمور المســلمين ، وقــد علم أعداؤنا عن هؤلاء الولاة أن أحدهم يقيم الدنيا ويقعــدها إذا مـــا وجَّه أحد نقداً لسياساته وتصرفاته ، ولكنه ينام ملء عينـــيه ، ويضـــحك مـــلء شدقيه ، في الوقت الذي ينتهك فيه عرض الإسلام ورسوله ﷺ ، فانتهز الكفار هذا الظرف التاريخي ، واعتبروه فرصة ذهبية للإجهاز على القرآن والقضاء المبرم عليه .

ونحن نجزم بأن الخيبة هي ما سيجنيه هؤلاء الكفار في الدنيا ، ثم إلى جهنم يوم القيامة .

كمـــا أننا على يقين من أن المسلمين على ضعفهم منصورون في نهاية المطاف ، لكن هذه المنة لا تتنزل إلا على من يستحقها من أهل الإيمان ، وساعتها ستكون عاقبة الجهود الجبارة التي يبذلها الكفار ، والأموال الطائلـــة التـــي يـــنفقونها في سبيل صد الناس عن القرآن هي الحسرة والـــندامة ، يقول سبحانه " إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون " .

وقد رأيت أن من واجبي في هذا الوقت العصيب أن أقدم للقرآن شهادة عملـــية ، تـــدل على إيماني بجلاله ، ويقيني بانتصاره ، وتبعدني عن موقف الخذلان والسكوت على الباطل ، وهو الحال الذي ابتلي به كثير من المسلمين .

وكـــيف لا أفعـــل ، وقد منَّ الله تعالى عليَّ بنعمة القلم واللسان ، وهما نعمتان تقتضيان شكراً وعرفاناً بالجميل .

فاستعنت بالله العظيم واستعصمت به ، وسألته المعونة على تقديم هذه الدراســـة ، راجـــياً أن تؤتي أكلها في إيقاظ الغافلين من المسلمين عن واجباتهم نحو القرآن ، فيقدمون ــ كل في مجاله ــ شهادة عملية تدل على صدق إيمانهم به .

ولا يــتحقق لهم ذلك إلا ببذل النفس والمال في سبيل نصرته والدفاع عنه ، ويحفظونه ، ويُحَفِّظونه لأبنائهم وبناتهم ، ويقرءونه ، ويُقْرِئونهم في كل وقت ، وعلى كل حال .

والله تعالـــى أسأل أن يُزيِّن بهذه الكلمات صحائفي يوم القيامة ، وأن يـــنفع بها كاتبها وقارئها وسائر المسلمين ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

كتبه

إبراهيم علوان

القرآن دراسة أصولية

مقدمة في
التعريف بأصول الفقه والأدلة الشرعية [1]

اتفـق العلمـاء علـى أن كل كلمة يقولها الإنسان ، أو كل فعل يفعله الإنسان لابد له من حكم شرعي ، فليس هناك اختلاف في هذه القضية.
كـل كلمة تقولها في بيعك أو شرائك ، في تجارتك ، في زراعتك ، في أي شأن من شئون حياتك ، كل كلمة لها حكم شرعي :
إما أن تكون واجبة ، أو مندوبة ، أو محرمة ، أو مكروهة ، أو مباحة ، لكن أن تخرج منك كلمة ليس لها حكم في شرع الإسلام فهذا مستحيل لأن القول بذلك يعني أن الدين ناقص ؛ لأنه لم يبسط سلطانه على كلمة من كلماتك ، أو فعل من أفعالك .

والعلـم الـذي نبحث فيه عن الحكم الشرعي لكل كلمة ، ولكل حركة ، ولكل سكنة اسمه " علم الفقه " وهو علم نجد فيه الإجابة على كل سؤال عن الحكم الشرعي لأي كلمة يقولها الإنسان ، ولأي فعل يفعله .

كمـا اتفق المسلمون على أن الأدلة التي تدلنا على الأحكام الشرعية ، ونستند إليها في حكمنا على الأشياء تنقسم إلى نوعين :

---

[1]) كـنت أُلقِي محاضرات حول الأدلة الشرعية في مادة أصول الفقه بالمركز الطبي بمديـنة دمـياط الجديـدة في أعقاب الإعلان عن كتاب " الفرقان الحق أعني البهتان الواضح " الذي ألفه أعداء الإسلام ، وقد رأيت أن من المفيد لأبنائنا وبناتنا أن أضمن هذا الكتاب الذي بين أيدينا مقدمة هذه المحاضرات .

أدلة متفق عليها وهي أربعة : القرآن – السنة – الإجماع – القياس " .
ووقع الاختلاف في بعض الأدلة الأخرى كالاستحسان – الاستصحاب – والمصلحة المرسلة وغيرها .
وهذه الأدلة هي التي ننظر فيها ؛ حتى نتعرف على الحكم الشرعي .
وأحياناً يأتي الحكم الشرعي صريحاً في هذه الأدلة ، وفي بعض الأحيان يأتي الحكم الشرعي بصورة ضمنية .
فعلى سبيل المثال : لو أن شخصاً يؤجر شقة في مصيف من المصايف ، وكان ذلك في يوم الجمعة ، وإذا به ساعة جلوسه لإبرام عقد الإيجار يسمع النداء ، وقلنا له : إن ما تفعله عند النداء حرام .
فقال : لماذا ؟ هل عندكم دليل على الحرمة ؟
قلنا : قال الله تعالى " إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع "
قال : لم يقل : ذروا الإيجار .
قلنا له : تأمل قوله تعالى " ذروا البيع " !
عندما فكر العلماء في هذا الخطاب الإلهي ، لماذا يحرم على الإنسان أن يبيع أو يشتري ساعة الجمعة ، قالوا : لأن ذلك يشغله عن تنفيذ هذا الأمر الإلهي " فاسعوا إلى ذكر الله " .
إذاً ! ننقل هذا الحكم الشرعي إلى كل أمر أو كل عمل يشترك مع البيع في تحقيق هذه النتيجة ، وهي أنه يشغل الإنسان عن السعي لتنفيذ أمر الله وذكره سبحانه وتعالى .

إذاً ! الأدلة الشرعية بعضها تعرض تعرضاً مباشراً للأحكام ، وبعضها تعرض بصورة غير مباشرة لبيانها ، لكن كل أمر لابد وأن نجد له حكماً ، وهذه الأدلة منها ما هو متفق عليه ، ومنها ما هو

مختلف فيه ، وكل دليل من هذه الأدلة له شروط معينة للاستدلال به ، على معنى أنه لا يصح لنا أن نستدل بأي دليل هكذا دونما ضابط .

والعلم الذي يبحث لنا في الأدلة الشرعية ، وأنواعها ، وحجيتها ، وشروط الاستدلال بها اسمه " علم أصول الفقه " .

<u>والخلاصة</u> : أن الإجابة عن السؤال : ما حكم قولنا كذا ؟ ما حكم فعلنا كذا؟ نجدها في علم الفقه ، فنقول : هذا القول أو هذا الفعل حلال أو حرام ، واجب ، أو مندوب ، أو حرام ، أو مكروه ، أ ومباح ؛ بدليل شرعي هو كذا وكذا .

وهذا الدليل الذي نستند إليه في حكمنا على هذا الشيء بالحل أو الحرمة إما أن يكون متفقاً عليه أو أن يكون مختلفاً فيه ، وشروط الاستدلال بالأدلة وأنواعها ، وحجيتها ، وكيفية الاستنباط منها ، والشروط التي اشترطها الفقهاء فيمن يستنبط الأحكام من هذه الأدلة ، كل هذا يبحث في علم أصول الفقه .

وقد رأيت من خلال الخبرة والتجربة في العمل في ساحة الدعوة إلى الله والجلوس بين الأبناء والأخوة والأساتذة الأحباب أن غياب علم أصول الفقه عن الكثيرين يثير الكثير من الإشكاليات ، فهناك أمور كثيرة يتنازع فيها الناس منازعات هائلة كبيرة ، وربما علق بعض الناس ولاءه وبراءه على أساس الاتفاق معه في بعض الفروع الفقهية أو عدم الاتفاق ، فمن يتفق معه في بعض الفروع الفقهية يواليه ، ومن يختلف معه في بعض الفروع الفقهية يعاديه .

يـا سـبحان الله !! لـو فهم هذا الرجل علم أصول الفقه وتعلمه فإنني أتصـور أنه ما كان بالإمكان أن يكون هذا سلوكه ، ولا أن تكون هكذا تصرفاته .

أصول الفقه

مصطلح " أصول الفقه " مركب إضافي ، مكون من كلمتين : أصول ، وفقه ، وحتى نتعرف على معنى " أصول الفقه " يجب أن نتعرف على كـل جـزء مـن أجـزاء هذا المركب ، ثم بعد ذلك ننتقل إلى تعريفه بصورة أخرى بعد أن نقله العلماء نقلاً " أعني هذا المركب الإضافي " وأطلقـوه اسـماً وعلماً على علم مخصوص ودراسة مخصوصة ، هي علم أصول الفقه .

فكأن أصول الفقه له تعريفان :

الأول : قبل أن يطلق اسماً مخصوصاً على علم مخصوص ، فهو حينئذ مركب إضافي ، لا يفهم معناه إلا بفهم معنى جزأيه .

والثانـي : تعـريفه بعـد أن أطلـق على علم مخصوص ، ودراسة مخصوصة سميت باسم " أصول الفقه " .

علـى سبيل المثال : " عبد الله " مركب إضافي مكون من كلمتين هما : كلمة عبد ، وكلمة الله .

وكلمـة " عبد " وحدها لا تدل على الإنسان الذي اسمه " عبد الله " كما أن كلمة " الله " وحدها لا تدل على هذا الإنسان الذي اسمه " عبد الله " ، وبالتالـي بعـد ضم كلمة " عبد " إلى لفظ الجلالة " الله " أنتجت اسماً لشخص معين مخصوص ، ألا وهو " عبد الله " .

وهكـــذا ! فمصطلح " أصول الفقه " قبل أن تضاف فيه كلمة " أصول " إلـــى كلمة " الفقه " لم تكن أي كلمة منهما تكفي وحدها للدلالة على هذا العلم ، وإنما دلت عليه حينما أضيفت الأولى إلى الثانية .

تعريف الأصول

الأصـــول جمـــع أصل ، والأصل : هو ما يبنى عليه غيره . أي أن تبنى شيئاً على شيء ، فأساس البيت اسمه الأصل ، والشجرة لها جزع ، ثم تفرع عنه فروع ، فالجزع اسمه الأصل .

والأصـــل عند العلماء : بمعنـــى الدليل ، ونحن نقرأ كثيراً في كتب الفقـــه جملة " والأصل في كذا كإباحة البيع مثلاً قوله تعالى " وأحل الله البيع وحرم الربا " ، والأصل في وجوب الصلاة قوله تعالى " وأقيموا الصلاة "

إذاً ! الأصل يعني الدليل ، ومعنى كلمة " أصول الفقه " أدلة الفقه .

تعريف الفقه

الفقه معناه الفهم في لغة العرب .

فكل من يفهم شيئاً من شيء يقال له : فَقِه هذا الشيء وفهمه .

ولـــذا قالـــوا : الفقه لغة : الفهم مطلقاً ، ولهذا أنكر الله تعالى على الكفار ابـــتعادهم وانصرافهم عن كلام النبي ﷺ " فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً "

وقـــوم ســـيدنا شعيب على بلاغته وفصاحته قالوا " قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول " .

إذاً ! الفقه معناه في اللغة الفهم .

تعريف الفقه في الاصطلاح

تطـورّ تعـريف الفقــه عند العلماء ، بمعنى أنه كان يحمل تعريفاً كبيراً شاملاً ، ثم وصل إلى التخصص في علم معين مخصوص.

وعــندما نقــول : هذا أستاذ في الفقه ، فمعنى كلامنا أنه أستاذ في علم معــين مخصــوص ، وليس مرادنا بالفقيه أنه الذي يعرف كل شيء ؛ باعتبار أن الفقه في اللغة هو الفهم مطلقاً .

وعلى سبيل المثال :

الطبــيب قديماً كان ممارساً عاماً يشمل : من يبحث في علاج أمراض العيون – العظام – الباطنة – الأعصاب .

وبعد ذلك بزمن ، حدث تخصص في كل قسم من هذه الأقسام :

العــيون قســم ، والعظــام قسم ، والأعصاب قسم ، ثم بعد ذلك قسمت العيون أقسام الخ ...

وكذلك الفقه ! فهو في القديم كان يساوي العلم بالشريعة الإسلامية ، أو مجموعة الأحكام التي شرعها الله تعالى ، سواء كانت متعلقة بالعقيدة – أو الأخلاق –أو العبادات أو المعاملات ، فقد كان كل هذا يسمى فقهاً .

ولــذلك ! نجــد أن الإمــام أبا حنيفة ألف كتاباً في العقيدة سماه " الفقه الأكبــر " ومن هنا عُرِّف الفقه قديماً بأنه : " معرفة النفس ما لها وما عليها " .

إذاً ! كانت تدخل في مفهوم الفقه أحكام الشرع كلها في العقيدة والعبادات ... الخ ، ثم بعد ذلك ضاق هذا المفهوم إلى أن أصبح **التعريف التالي :**

الفقه هو : العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من الأدلة التفصيلية " وعلينا أن نلقي الضوء على هذا التعريف :

وقد قال الفقهاء قديماً : إن كل كلمة تذكر في التعريف فلا بد لها من فائدة معينة ، بحيث إذا حذفت من التعريف فإن الشيء المعرَّف يختلط بغيره ، وتصبح الدراسة مزدحمة ، ولا يستطيع الباحث عن تعريف الفقه مثلاً تمييز الفقه عن غيره ، فكل كلمة تدل على معنى يقيناً .

" **العلم** " هنا كلمة عامة ، تشمل كل علم سواء كان علماً بالأحكام الشرعية أو علماً بأي شيء آخر .

" **الأحكام** " كلمة عامة أيضاً ، حيث إن هناك أحكاماً شرعية شرعها الله في القرآن والسنة ، وهناك أحكام عقلية يحكم بها العقل ، فعلى سبيل المثال : هل الأب وجد في الحياة قبل الابن أم لا ؟ والحكم هنا يحصل بالعقل .

وهناك أحكام لغوية ، مثل قول النحويين : الفاعل مرفوع .

وهناك أحكام قضائية ، وهي معلومة .

والحكم معناه : ثبوت أمر لأمر، أو نفيه عنه ، فقولنا :الفاعل مرفوع أثبتنا فيه الرفع للفاعل .

" **الشرعية** " : أي المنسوبة للشرع ، أي إلى الله تعالى .

والملاحـــظ على هذا التعريف أنه حتى هذه اللحظة ما زال الكلام فيـــه عموم وغير محدد ، لماذا ؟

لأنـــه قـــد يتبحر شخص في العلم الشرعي ، فيتعلم وجوب توحيد الله ، والإيمـــان بالقضاء والقدر، ، واعتقاد أن الجنة دار النعيم ، وهذه كلها أمـــور شـــرعية ، ولكـــن العالم بها ليس فقيهاً ؛ لأن الأحكام الشرعية أنواع :

{١} **أحكـــام اعتقادية** ، كوجوب الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

{٢} **أحكـــام أخلاقـــية** وجدانية كفضيلة التواضع والصدق ، وقبح الكذب ، والغرور . والعلم بهذين النوعين من الأحكام لا يسمى فقهاً .

{٣} **أحكام عملية** تنظم علاقة الإنسان بالله تعالى في أمور العبادات ، وعلاقـــة الإنســـان بغيره من البشر ، يستوي في هذا : تنظيم علاقته بأهـــل بيته ، أو إخوانه المسلمين ، وعلاقته بالحاكم ، وغير المسلمين فـــي مجتمع الإسلام ، وعلاقة الدولة المسلمة بغيرها في السلم والحرب ، و العلم بهذه الأشياء هو الذي يسمى " علم الفقه "

فالشرعية : كلمة عامة شملت العلم بالأحكام الاعتقادية – الأخلاقية – العلمـــية وهـــذه هـــي المقصودة في التعريف لكنها فهمت من الكلمة الآتية في التعريف.

" **العلمية** " قـــيد في التعريف يفهم منه أن أستاذ الفقه لا يدرس للناس قضايا التوحيد والأخلاق ، وإنما يتناول الأحكام العملية .

ولا نعنـــي بهذا أن هناك فصلاً بين هذه المسائل الشرعية ، بل العكس هـــو الصحيح ، على معنى أن هناك تلازماً بين كل المسائل الشرعية ، فلا يصح أن يقع التعارض بينها .

فمثلاً :

قـــول النبــــي ﷺ " لا يبع أحدكم على بيع أخيه " يتضمن حكماً عملياً فقهـــياً ، ولكـــنه مـــرتبط ارتباطاً وثيقاً بقضايا وجوب طاعة النبي ﷺ والامتـــثال لأوامره وهذه قضية من قضايا التوحيد والعقيدة ، بالإضافة إلـــى ما فيه من توجيه أخلاقي ، يتمثل في الحرص على إشاعة الأخوة ، وحـــب الخيـــر للـــناس ، وعدم الإتيان بأي فعل من شأنه أن يوغر الصدور، ويولد الحقد والكراهية بين المسلمين .

فالمسائل الشرعية مرتبطة ببعضها ، لكن في الدراسة الأكاديمية ، هل تســـتطيع أن تسأل أستاذاً للفقه ، قائلاً : لماذا لا نشرح معنى لا إله إلا الله في درس الفقه ؟ فإنه سيرد قائلاً : هذا الأمر يدرسه لك أستاذ آخر فـــي علم العقيدة ، ومجال أصول الدين يبسط في علم العقيدة ، أما الفقه فإنه يدرس شيئاً آخر .

ومـــثل هـــذا يقـــال فيما لو قال شخص آخر: نريد أن ندرس الأخلاق الفاضـــلة كالصـــدق والتواضع والإخلاص وكيفية التخلق بكل خلق من هذه الأخلاق.

فـــيجاب عليه : كـــل هذا جيد ومطلوب ، ولكن دراسته ليست في مجـــال علم الفقه ، بل في مجال علم التهذيب والسلوك ، كما في كتاب إحـــياء علـــوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ، وكتاب مدارج السالكين للإمـــام ابـــن القيم ولهذا ! لم نجد في كتاب فقهي ، كالإقناع للشربيني الخطـــيب الشافعي مثلاً فصلاً يشرح فيه الكيفية التي يصل الإنسان بها

إلـــى مـــرتبة الصـــدق ، ولـــن تجـــد ذلك في أي كتاب من كتب الفقه المعروفة ؛ لأن كتب الفقه إنما تتناول الأحكام الشرعية العملية .

فكلمـــة " **العملية** " تعني : المنسوبة إلى العمل ، أي أن هناك عملاً معيناً يتم ويظهر في واقع الحياة .

" المكتسب من الأدلة التفصيلية "

الأدلة نوعان : أدلة إجمالية ، وأدلة تفصيلية جزئية .

فالأدلـــة الإجمالـــية الكلية لا تتناول بحث مسألة مخصوصة ، أو حكم مخصوص وإنما تتناول بيان أمر عام يتضمن مسائل كثيرة .

فالقرآن دليل كلي ، ومن المعلوم أن القرآن لم تأت ألفاظه على صياغة واحـــدة ، ولا وتيرة واحدة ، بعضها أوامر، وبعضها نواهي ، بعضها عام – وبعضها خاص – أو مطلق – أو مقيد .

يأتـــي الأصـــولي ، فينظر في كل نوع من هذه الأنواع العامة ، وينظر فـــي الأوامـــر مثلاً ، فيجد أمراً يتعلق بمسألة معينة ، ويجد بعده أمراً آخـــر، يتعلق بمسألة ثانية ، وثالثة ، ورابعة ، وهكذا ، فيقول : سأضع قاعـــدة عامـــة، هي : الأمر إذا أطلق فإنه يفيد الوجوب ، وهذا بعض عمل الأصولي .

أما الدليل التفصيلي فإنه يتضمن حكماً مخصوصاً لمسألة مخصوصة .

فقـــوله تعالـــى " يـــا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود " دليل تفصيلي أو جزئـــي ، لماذا ؟ لأنه دليل يتناول مسألة معينة ، وهي الوفاء بالعقود ، ولـــم يتضـــمن مســـائل كثيرة ، ويتضمن حكماً معيناً ، وهو أن الوفاء بالعقود واجب .

فإن سأل سائل ، وقال : ما حكم الوفاء بالعقود ؟
قلنا له : واجب .
فإن قال : من أين أتيت بهذا الحكم ؟
قلنا له : نظرنا في القرآن الكريم ، فوجدنا قول الله تعالى " يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود "
فكلمة " أوفوا " أمر ، ثم عدنا إلى القاعدة التي وضعها الأصولي وهي : أن الأمــر إذا أطلق في النصوص الشرعية يفيد الوجوب ، فنتج عن ذلك أن قلنا : إن الوفاء بالعقود واجب .

ويمكنــنا أن نقــول نفس الكلام في كل مسألة يسأل سائل عن حكمها ، فيجاب عليه : حكمها كذا ؛ بناءً على النص الشرعي الوارد في القرآن ، أو السنة ، أو الأدلة الشرعية الأخرى .

" **المكتســب من الأدلة التفصيلية** " هذه الجملة يمكن أن تخرج لنا من التعــريف : العلم الصادر عن النبي محمد ﷺ ، بمعنى أننا لا نستطيع إدخال علم النبي ﷺ في دائرة الفقه لماذا ؟
لأن النبــي محمــداً ﷺ قد اكتسب علمه من الوحي ، وليس من الأدلة التفصــيلية وعلى هذا يمكننا أن نعرف مصطلح " أصول الفقه " قبل أن يصير علماً على هذا العلم المخصوص فنقول :
أصــول الفقــه تعنــي أدلة العلم بالأحكام الشرعية العلمية المكتسبة من الأدلة التفصيلية .

" تعريف أصول الفقه بالمعنى اللقبي "

ننتقل الآن إلى تعريف علم أصول الفقه بعد إطلاقه على علم مخصوص ، وقد عرفه العلماء بتعريفات كثيرة ، يمكننا أن نستخرج من كلامهم هذا التعريف :" هو العلم الذي يتناول أحوال أدلة الفقه الإجمالية ، من حيث إثباتها للأحكام الشرعية ، وكيفية استفادة هذه الأحكام من تلك الأدلة ، وأحوال المستفيد " .

" **الإجمالية** " : أي الكلية التي لا تدل على حكم معين كمطلق الأمر ومطلق النهي ، وسميت بذلك لأنها تعلم من حيث الجملة ، لا من حيث التفصيل ، وهي توصله بالذات إلى حكم إجمالي مثل : كل ما يؤمر به واجب ، وكل ما ينهى عنه محرم ، ونحو ذلك .

فالأصولي ينظر إلى مثل قوله تعالى " وأقيموا الصلاة " لا ليستخرج منه حكم الصلاة ، فتلك مهمة الفقيه ، وإنما ينظر إلى هذا الأمر لكي يضمه إلى ما يماثله من الأوامر الأخرى الواردة في القرآن والسنة ؛ ليخلص إلى صياغة قاعدة عامة ، وهي : الأمر إذا أطلق فهو يفيد الوجوب .

" **إثباتها للأحكام الشرعية** " هناك تناول للأدلة الإجمالية للوصول إلى شيء آخر، كمن يتناول القرآن من الناحية البلاغية ، وهذه ليست مهمة أصول الفقه .

مثال توضيحي لبيان الفرق بين الفقه والأصول

مــثل الأصول والفقه كمثل إنسان يصنع باباً خشبياً مكون من : الخشب – شاكوش – مسامير ــ وبعض المحتويات الأخرى .

نعــم ! فهــذه الأشياء يمكن عن طريقها أن يتكون الباب ، لكن وجودها دون معرفة الكيفية التي يتم بها ذلك ، لا يتأتى معه إتمام هذا العمل .

فالفقــه بمســائله التــي لا تنقضــي مــن الأقوال والأفعال والأحوال ، بالإضــافة للنصــوص الشــرعية التفصيلية تشبه في المثال السابق : الخشــب والأدوات الأخــرى ، أما الأصول بقواعده فهو يشبه الطريقة التي من خلالها يتم تركيب هذه الأدوات لإنتاج الباب .

ولــذلك ! فأنــت تــرى بعض إخواننا القراء يحفظ القرآن حفظاً هائلاً بمحكمــه ومتشــابهاته ، ومــع ذلك ، فحينما تقع له مسألة فقهية تجده يذهب للمشايخ والمتخصصين في العلوم الشرعية ؛ ليسأل عن الجواب عنها ، لماذا ؟

مــع أنــه يحفظ القرآن ، وهو الأصل الأول للتشريع الإسلامي ، نعم ! ولكــن ليس لديه العلم بالطريقة التي يستخرج بها الأحكام الشرعية من الأدلة .

" **أحوال المستفيد** " : المستفيد هو المجتهد ، فعلم أصول الفقه يبين من هو الشخص الذي يستطيع استنباط الأحكام الشرعية .

إذاً علم أصول الفقه يتناول ما يلي :

١) أحوال أدلة الفقه الإجمالية وإثباتها للأحكام الشرعية .

٢) كيفية الاستفادة للأحكام من تلك الأدلة .

٣) أحوال المستفيد .

ونظراً لغياب العلم بالأصول وجدنا كاتباً صحفياً خرج علينا قائلاً : أنا مشفق على الناس الذين يموتون في رمي الجمار في الحج ، فما المانع أن يتم توزيع الرمي على ثلاثة أشهر " الحج أشهر معلومات ...... " ؟ وبناءاً على هذا ! يتم توزيع الوقوف ، ورمي الجمرات على ثلاثة أشهر فيخصص لجمهورية مصر العربية مثلاً من ١ إلى ١٠ شوال ، ونظراً لكثرة عدد المصريين فيمكن أن نقسمها إلى محافظات ، فدمياط مثلاً ترمي في أول شوال ، والمنصورة في اليوم الثاني منه ، وهكذا . قلنا : نعم ! " الحج أشهر معلومات " نص قرآني فعلاً ، ولكن الرسول الكريم ﷺ بين لنا كيفية تنفيذه بصورة عملية ، وقال : خذوا عني مناسككم " ، فلم يعد هذا الأمر داخلاً ضمن دائرة الأمور التي يمكن أن تخضع للاجتهاد .

وعلم أصول الفقه هو الذي يبين لنا الأمور التي تقبل الاجتهاد ، وتلك التي لا تقبله ، كما يبين لنا أيضاً الشروط التي لابد من وجودها في الشخص الذي يمكنه الاجتهاد .

" الفقه المقارن وقواعد الفقه "

بعد أن عرضنا لتعريف الأصول والفقه يحسن بنا أن نشير إلى تعريف الفقه المقارن وقواعد الفقه إتماماً للفائدة ، فنقول :

الفقه المقارن في عبارة بسيطة هو : علم يتناول أقوال العلماء في كل مسألة من مسائل الفقه ، وأدلتهم التي استدل بها كل واحد منهم

علـــى قـــوله ، ووجه استدلاله بهذه الأدلة ، ثم يوازن بين هذه الأدلة ، ويناقش ما يمكن مناقشته منها ؛ لترجيح ما صح دليله ، وقوي استدلاله

وأما قواعد الفقه فيمكن تعريفه بعبارة بسيطة أيضاً بما يلي :

هـــو: علم يتناول وضع ضوابط عامة للمسائل الفقهية المختلفة ، بحيث يوضع لكل مجموعة من المسائل المتشابهة المنتشرة في الأبواب الفقهية ضـــابط يجمعهـــا ، يسهل الرجوع إليه عند الحاجة ، كقاعدة " الأمور بمقاصدها " .

فقـــد جمعت هذه القاعدة تحتها كل المسائل الفقهية التي يبرز فيها دور النـــية فـــي العمـــل ، يستوي في هذا أن تكون هذه المسألة في أبواب العـــبادات أو المعـــاملات ، فيـــندرج تحتها : النية في الوضوء والتيمم والغســـل والصـــلاة والـــزكاة والحـــج والصيام ، وفي الطلاق الكنائي والمعلق ، وفي تصرفات الهازل ، وفي غير ذلك من المسائل المنتشرة في أبواب فقهية كثيرة .

وهـــذه القـــواعد تنشأ حينما ينظر فقيه إلى أبواب الفقه المختلفة ، فيجد جملـــة مـــن المســـائل تتشابه مع بعضها البعض في أمر معين ، فيقوم بإبـــراز هذا الأمر عن طريق صياغته في كلمة مختصرة تدل على هذا الرابط الذي يجمع هذه المسائل .

موضوع علم الأصول

كلمـــة الموضـــوع هنا تعني : أن لكل علم فكرة معينة ، تدور أبحاث هذا العلم كلها حول هذه الفكرة .

مثلاً : علم الطب : موضوعه الذي يتناوله هو : الصحة والمرض بالنسبة لجسم الإنسان والحيوان .

وعلـم النحو يبحث في الكلمة ، وكيفية بنائها – إعرابها ، وبالتالي ، فكل أبحاثه تدور حول هذه الفكرة .

وعلـى ضـوء ذلـك ! يثور التساؤل : ما هي الفكرة التي تدور عليها أبحاث علم أصول الفقه ؟

هذه الفكرة هي : الأدلة الإجمالية وكيفية استفادة الأحكام منها .

فالأدلـة كالقـرآن مـثلاً يتناول علم الأصول في شأنه : حجيته – أنواع الأوامر والنواهي الواردة فيه – وكل ما يتعلق بألفاظه .

ثم ينتقل للسنة ، فيبحث : فيما يعتبر سنة ، وما لا يعتبر كذلك ، وهل كل ما صدر عن النبي ﷺ يعد تشريعاً ، أو لا يعد كذلك ؟

موضوع الأصول يختلف عن موضوع الفقه

يخـتلف موضـوع علـم أصـول الفقه عن موضوع علم الفقه ، فالفقه موضـوعه هو أفعال الإنسان وأقواله ، من حيث وصفها بحكم شرعي ، كالواجب – المندوب المكروه .

وموضـوع الأصول هو الأدلة الإجمالية وكيفية استنباط الأحكام الشرعية منها .

تعريف الأدلة الشرعية

خلق الله تعالى الإنسانَ لمهمة محددة ، هي عب،ادة الله وتوحيده ، والإنســـان المسلم يعرف ذلك على وجه القطع واليقين ، ولذلك فهو يعمل بمقتضاه ، وإن كانت هذه المهمة هي مهمة الخلائق جميعاً ، كما يقول سبحانه وتعالى " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون "

والقيام بعبادة الله وتوحيده يقتضي من الإنسان أن يأتمر بأوامر الله ، وينتهي عما نهى الله تبارك وتعالى عنه .

ومن هنا ! كان الإنسان مطالباً على سبيل الفرض والإلزام بأن يتعرف على أوامر الله ، وعلى نواهيه ، حتى يأتي بالأولى ، ويترك الثانية .

ومــن رحمـــة الله تعالى بنا ، وقد كلفنا بهذه المهمة أن أقام لنـــا أمارات وأدلـــة ترشدنا إلى هذه الأوامر، وإلى هذه النواهي .

ولـــك أن تتخـــيل حجم المشقة والعنت الذي كان من الممكن أن يقع فيه الإنســـان لـــو لـــم يبين لنا المولي سبحانه وتعالى الأدلة الشرعية التي نتعـــرف مـــن خلالهـــا على أحكـــام الله " أوامـــره ونواهيه " ؛ لأنه ســـيجد نفســـه مطالـــباً بتنفيذ الأوامر الإلهية ، وهو لا يعرف كنه هذه الأوامر، ولا كنه هذه النواهي .

إذاً ! كان الله تعالى رحيماً بنا حين أقام لنا الأدلة الشرعية ، أي الأمارات والعلامات التي نتعرف من خلالها على أوامره سبحانه وتعالى ونواهيه .

وقد سبق أن قلنا في تعريف الأصول : إنه العلم الذي يتناول أحوال أدلة الفقه الإجمالية "

فكأن الركن الأول من أركان هذا العلم أن نتعرف على الأدلة الشرعية ، مـا هـي الأدلـة ؟ وما حكمها ؟ ما أنواعها ؟ ما شروط الاستدلال بهـا ؟ هـذه أمـور سنبدأ بإذن الله تعالى حديثنا في هذا العلم بدءاً من الأدلة الشرعية .

تعريف الأدلة

الأدلـة : جمع دليل ، والدليل : هو المرشد إلى المطلوب ، فإذا قلنا : هذا دليل يعني أنه مرشد يرشدنا إلى أمر معنوي كالخير، أو أمر مادي ، تقـول : هـذا دليلـي على الطريق الصحيح ، أي يرشدني إلى أي الطريقين أسير وإلى أي وجهة أتجه .

الدلـيل فـي اصـطلاح الأصوليين هو: ما يمكننا بالنظر الصحيح فيه أن نتوصل إلى حكم شرعي .

وبـيان ذلك : أنـنا نريد أن نتعرف على أحكام الله ؟ لماذا ؟ حتى ننفذها لأننا خلقنا لتنفيذ وإيجاد هذه الأحكام ، ومن رحمة الله بنا أن أقام لـنا أمـارات ، كاللوحات الإرشادية ، علامات ؛ حتى نتعرف منها ، والعلمـاء يتوصـلون بالنظر الصحيح فيها إلى الحكم الشرعي ، ماذا يعني ذلك ؟

مـثلاً : رجـل قـتل رجلاً آخر، وعُرض الأمر على القاضي ، ويريد القاضـي أن يتعـرف على حكم الله تبارك وتعالى ، فينظر في الأدلة والأمـارات الشرعية ، فسيجد فيها قول الله تعالى " ولكم في القصاص حـياة " وقوله عز وجل " كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد .... "

فهاتان الآيتان ترشدان القاضي إلى أن الحكم الذي يتعين عليه إصداره هو أن يقتل القاتل .

" تقسيمات الأدلة "

الأدلة المتفق عليها بلا خلاف :

من الأدلة الشرعية دليلان متفق على الاحتجاج بهما بلا خلاف بين أحد من المسلمين المنصفين الذين يعرفون معنى كلمة الإسلام ، فلا اختلاف على الاحتجاج بدليلين هما : القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .
لم يخالف في هذه القضية أحد إلا في هذا الزمان ، حيث ظهرت أقوام تناطح في وجوب الالتزام بالسنة النبوية الشريفة ، لكن هذه القضية كانت منطقة محظورة ، لا يصح لأحد أبداً أن يقربها من المسلمين الأول .

والمؤسف أن " السنة " يسأل الناس عنها الآن أو الكثير منهم بالأدق ، حتى لا ينفذها ، يعني يقول : هذا الأمر سنة أم فرض ؟
فإن أجبناه بقولنا : هو سنة .
يقول : إذاً لا داعي لتكليف النفس بتنفيذها طالما أنها سنة ، أما في الزمن الماضي فقد كان الناس يسألون عن السنة ؛ حتى يمتثلوا لها ويلتزموا بها .

والخلاصة : أن هناك دليلين اتفق الكل على أنهما مصدران للأحكام الشرعية وهما القرآن والسنة .

الأدلة التي احتج بها الجمهور :

هناك دليلان اتفق الجمهور أو أكثر أهل العلم على الاحتجاج بهما ، وعلى كونهما مصدرين للأحكام الشرعية ، وهما الإجماع والقياس .

فالإجماع : لم يخالف في أنه دليل من أدلة الشرع ، بمعنى أنه يجب الالتزام به إلا بعض الخوارج وبعض المعتزلة ، لكن جماهير المسلمين قالوا : إذا أجمع المجتهدون على أمر وجب على من يأتي بعدهم أن يلتزم بما أجمعوا عليه .

والقياس : إلحاق مسألة غير منصوص على حكمها في القرآن أو السنة بمسألة أخرى منصوص على حكمها في أحدهما لتشابه المسألتين في العلة أو اشتراكهما في العلة .

وقد اعتبر جمهور أهل العلم القياس حجة يجب العمل بها ، ولم ينازع في حجيته سوى بعض العلماء ، ولنا مع هؤلاء كلام مفصل في حينه إن شاء الله تعالى .

و الخلاصة : أن عندنا دليلين اجتمعت الأمة على الاحتجاج بهما ، وأنهما مصدران للأحكام الشرعية ، وهما القرآن والسنة .

وعندنا دليلان اتفق أكثر أهل العلم على أنهما دليلان وحجة يجب الالتزام بهما وهما الإجماع والقياس .

ولذلك يمكننا أن نقول الأدلة المتفق عليها أربعة ، وهي : " القرآن – السنة – الإجماع – القياس " .

الأدلة المختلف فيها

هناك جملة من الأدلة ، وقع الاختلاف بين جمهور أهل العلم في حجيتها بمعنى أن الجمهور الذي أقر بحجية الإجماع والقياس اختلف في حجية أدلة أخرى ، هل تصلح دليلاً أم لا تصلح ؟

فاختلفوا في حجية " الاستحسان – الاستصحاب – سد الذرائع – شرع من قبلنا – قول الصحابي – العرف – المصلحة المرسلة " هذه أدلة اختلف فيها العلماء هل تصلح دليلاً نرجع إليه كدليل وعلامة إرشادية نسترشد بها إلى حكم الله تعالى ؟ اختلفوا في ذلك ، ولكل مسألة منها كلام في حينه أيضاً .

الأدلة نقلية وعقلية

من الأدلة ما هو نص منقول إلينا ، ولا دخل لعقلنا في تكوينه ولا إيجاده . العقل ليس له دخل إطلاقاً في هذا التكوين ، وهذا الإيجاد ، وإن كان له دور أصيل في فهم هذه الأدلة .

وهناك أدلة عقلية " غير نصية " لم تنقل إلينا نقلاً ، والعقل دوره كبير في تكوينها وإيجادها :

والأدلة النقلية هي : القرآن ، والسنة ، والإجماع ، وقول الصحابي ، وشرع من قبلنا ، فالعقل يفهم هذه الأدلة ، ولم يكونها.

والأدلة العقلية هي : القياس – الاستحسان – الاستصحاب – المصلحة المرسلة ، وسد الذرائع .

تنبيـــه

هـــل يعنـــي هذا الكلام أن العقل المجرد يمكن أن يشرع ، ويصدر أحكاماً ؟

والجــواب : لا ، فالعقل ليس له سلطة إنشاء الأحكام إطلاقاً ؛ لأن الحكم في شرع الإسلام من الله تبارك وتعالى وحده ، حتى النبي محمد ﷺ ، لا يســتقل بإنشــاء الأحكام بعيداً عن الوحي . " وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى "

فالحــاكم والمشرع في الإسلام هو الله وحده ، والقاعدة واضحة " إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه "

إذاً ! نحــن لا نعني بكلامنا أن العقل له دور كبير في تكوين القياس : أن العقل يشرع .

لا ! فالعقــل لا يشـــرع ؛ لأنه قد يرى الحق باطلاً والباطل حقاً ، ولا أدل على أن العقل قد يورد صاحبه المهالك من هذا المثال الآتي :

أليس للأمريكان والأوربيين وقياداتهم عقول ؟

والجــواب : بلـــى . لهم عقول ، ومع ذلك ! فهذه العقول التي صنعت الطائرات والتكنولوجيا الرهيبة استساغت الظلم الفادح الذي يتم بأيديهم ، أو بأيدي غيرهم على مرأى ومسمع منهم ، مع قدرتهم على الضرب على يد الظالم .

ألــم تقــبل عقــولهم أن يقتل الأطفال في فلسطين والعراق وأفغانستان وكشمير؟ وهل ارتكب الشيوخ والنساء في هذه البلاد وغيرها من بلدان

العـالم الإسـلامي جرماً يعاقبون عليه بهذه الطريقة البشعة التي تنقلها الشاشات ؟

إذاً ! العقـل لا يصـلح مشرعاً ، لا يصلح سنداً لإنشاء الأحكام ، لكن العقـل يفهـم ، وهو في فهمه هذا : إما أن يكون دوره كبيراً في إيجاد الدلـيل أو أن يكون دوره محدوداً ، فدوره كبير في القياس وما ماثله ، دوره مجـرد فهم للدليل مثل القرآن – السنة – فالأدلة النصية المنقولة إلينا لا دخل للعقل في إنشائها .

تنبيهان

من خلال مراجعة كلامنا ننبه على أمرين في غاية الأهمية :

التنبيه الأول : أن الأدلة الشرعية لا تقتصر على القرآن والسنة فقط ، بـل إن مصـطلح الأدلة الشرعية أعم من القرآن والسنة ، وإن كان القـرآن والسـنة هما أعظم الأدلة الشرعية ، ولكن أدلة الشرع ليست قاصرة عليهما فقط ؛ لأن هناك أدلة كثيرة ذكرناها الآن ، وهذا واضح لكل ذي عينين .

ومـن العلمـاء من قال : إن أدلة الشرع كلها ترجع إلى دليل واحد ، وهـو القـرآن ، حتى السنة نفسها ، علمنا بحجيتها من القرآن ، الذي أخبرنا بوجوب طاعة رسول الله ﷺ في قوله تعالى " من يطع الرسول فقد أطاع الله " إذاً المصدر الأعظم والأعم والأكمل للأحكام هو القرآن الكريم .

التنبيه الثاني : لا يلزم من الدليل أن يكون نصاً قرآنياً أو نبوياً .

ونظـراً للخلـط في هذه المسألة ، وعدم وضوحها في أذهان الكثيرين ، تـرى أحدهم ، يجادل في مسألة شرعية ، ويقول : أنا أريد دليلاً ، وأنا مـع الدلـيل وهو يقصد بكلامه هذا ، أنه يريد نصاً ، يريد أن يقول له محدثه : قال الله تعالى ، أو قال رسول الله ﷺ .

على رسلك أخي الكريم ! ألم تعلم أن من الأدلة الشرعية ما هو نص ، ومنها ما ليس نصاً ، فلا يلزم أن يكون هذا الدليل نصاً قرآنياً أو نصاً نبوياً ، بل يمكن أن يكون الدليل أمراً آخر.

ولهـذا أقول : إن كثيراً من إخواننا يقع في خلط كبير عندما يقول : أنا مع الدليل ، ويقصد بكلامه هذا أنه مع ظاهر النص .

وفـي بعـض الأحـيان ، يـؤدي الجمود على ظاهر النص إلى إيقاع المسلمين في حرج شديد ، فمثلاً يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة البقرة " وأشهدوا إذا تبايعتم ... "

ظاهر النص إيجاب ، أو طلب الإشهاد على كل بيع يقع ، صغيراً كان هـذا البيع أو كبيراً ، فكأن المسلم مطالب إذا اشترى حزمة جرجير أن يأتي بشاهدين .

هل قال بهذا أحد ؟ هذا ظاهر النص ، أليس كذلك ؟!

فالـنص لم يقل : أشهدوا إذا تبايعتم في البياعات الفلانية ، ولا تشهدوا في الأخرى ، وإنما النص عام :" وأشهدوا إذا تبايعتم .... ".

والمـراد فـي هذه الآية مثلاً أن الله تعالى ندب وأرشد المسلمين إلى الإشـهاد فـي البـياعات الكبيـرة التي يمكن أن تكون مجلاً للخلاف والنـزاعات والشـقاق ، شـخص ما يريد أن يشتري شقة أو عمارة ، فينبغي له أن يشهد على ذلك البيع ، لماذا ؟ حتى لا يقع شقاق ، وحتى لا يقع نزاع فيما بينه وبين صاحبه .

ترتيب الأدلة الشرعية

لهذه الأدلة التي ذكرناها ترتيب يتعين الالتزام به إذا عرضت لنا مسألة ، وأردنـــا أنْ نصل إلى حكمها الشرعي ، فنلجأ أول ما نلجأ إلى القرآن الكـــريم فهو أول دليل نرجع إليه ؛ لكي نتعرف على الحكم الشرعي ، والقـــرآن هـــوَ النص الشرعي المنزل على النبي ﷺ " بلفظه ومعناه ، فـــإذا وجدنا غايتنا وبغيتنا في النص الشرعي المنزل باللفظ والمعنى إذا لســـنا بحاجـــة إلى أن ننظر فيما سواه ، ولسنا في حاجة إلى أن نبحث عنه في مكان آخر.

فإذا لم نجد الحكم في القرآن نلجأ إلى الدليل الثاني : الـــنص الشـــرعي المنـــزل بمعـــناه الموحى به إلى النبي ﷺ وهو السنة النبوية الشـــريفة فإن وجدنا غايتنا في السنة ، فلسنا في حاجة إلى اللجوء إلى غيرها .

فإذا لم نجد حكم المســـألة فيَ القرآن ، ولا في السنة نلجأ إلى الـــبحث فيَ أقوال وآراء المجتهدين السابقين ، فإن رأيناهم أجمعوا على حكـــم معـــين لمسألة معينة وجب علينا الالتزام بهذا الحكم ، وهذا هو الدليل الثالث ، وهو الإجماع ، وهو اتفاق المجتهدين من أمة محمد ﷺ على حكم شرعي لمسألة من المسائل في عصر من العصور بعد وفاته ﷺ .

فإذا لم نجد اتفاقاً بين المجتهدين نلجأ إلى الدليل الرابع ، فننظر إلـــى هذه المسألة الجديدة ، هل لها شبه في مسألة ورد عليها نص في

القــرآن أو الســنة ؟ فــإن وجدنا لها شبيهاً نقلنا حكم المسألة التي ورد عليها نص إلى المسألة التي لم ينص عليها .

مثال :

كثير من الناس الذين لا يتقون الله يشربون الحشيش أو البانجو ، نقول لهم : هذا حرام .

وقــد يردون عليك يقولون : ما دليلك ؟ هل معك آية قرآنية أو حديث نــبوي ورد فــيه النص على حرمة الحشيش أو البانجو ؟ وما هو هذا النص ؟

نعم ! نحن لم نجد نصاً صريحاً على حكم الحشيش والبانجو والأفيون ومــا شابه ذلك ، ولكنا نظرنا في القرآن ، فوجدنا ربنا قد حرم الخمر، وبــين لــنا علة التحريم ، أي السبب الذي حرمت من أجله ، وهي أنها تغــيب العقــل والإدراك والتمييــز، وتصد الإنسان عن ذكر الله وعن الصلاة ، وتوقع الناس في الفحشاء والبغضاء والعداوة .

ونظــرنا إلى الحشيش والبانجو والأفيون وما شابه فوجدنا هذه الأشياء تحقــق ذات المفاسد التي حرمت الخمر من أجلها ، فأيقنا وجزمنا يقيناً لا شــك لدينا فيه أن شرب الحشيش محرم ، وأن حكم الخمر ينقل إلى شرب الحشيش تماماً بتمام .

لمــاذا ؟ لاشــتراكهما في تحقيق ذات المفاسد ؛ لأنه من التناقض في الشــرع أن يحــرم الله الخمر لعلة معينة ، ولا يحرم ما يماثلها في هذه العلة ، وهي تحقيق هذه المفاسد الكبيرة التي تتحقق من شرب الخمر .

الدليل على ترتيب الأدلة

ذكــرنا أن القاعــدة المقررة عند العلماء أنه متى عرضت مسألة فإنهم يبحثون عن حكمها في القرآن ، فإن لم يجدوا حكمها فيه بحثوا عن هذا الحكم في السنة ، ثم الإجماع ، ثم القياس ، والسؤال :

هل على هذا الترتيب أدلة ؟ أم أنه رُتِّب بالهوى ؟!

نعــم ! عليه أدلة كثيرة ، اقرأ ، وتأمل قول الله تعالى في سورة النساء " يــا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعــتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيراً وأحسن تأويلا "

فإذا تأملت هذه الآية فإنك ستجد أن المأمور بطاعته أولاً هو الله ، وهذا يعنـــي أن القرآن هو أول ما يجب اتباعه ، ثم المأمور بطاعته ثانياً هو رســول الله ﷺ ، وهذا يعني أن السنة هي ثاني ما يجب الرجوع إليه ، ثــم المأمــور بطاعته ثالثاً هم أولي الأمر من المسلمين ، والمعلوم أن أولــي الأمــر في مجال السياسة والحزوب هم الحكام ، لكن في مجال الفــتوى والتشريع هم المجتهدون والعلماء ، وهذا يعني أن الذي يجب طاعــته ثالثاً في الفتوى والتشريع هم المجتهدون متى اتفقوا على حكم شرعي ، ولا يخفى أنهم لا يمكن أن يتفقوا على حكم يخالف القرآن أو السنة .

وعلــى هذا ! فإذا رأى الحاكم أمراً دنيوياً وجبت طاعته ، طالما أنه لم يأمــر بمعصية ، ولم يأمر بمنكر ، وإذا اتفق العلماء والمجتهدون على

حكـــم معـــين وجبت طاعتهم ، فالمصدر الثالث للأحكام الشرعية هو " الإجماع " .

ثم يقول سبحانه وتعالى " فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول " بداية نشير إلى أنه لا يتصور وقوع النزاع إذا وجد نص صريح في القرآن أو السنة أو وجد في المسألة إجماع بين الفقهاء .

فإذا لم يوجد النص القرآني أو النبوي ، ولم يوجد الإجماع فهنا يمكن أن يحدث النزاع بين الفقهاء في حكم المسألة ، والمولى عز وجل يبين لـــنا المصـــدر الذي نرجع إليه إذا لم نجد الحكم في هذه الثلاثة مصادر الســـابقة يقول سبحانه " فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا "

إذاً ! المصـــدر الـــرابع للأحكام هو : أن نرد الأمر المتنازع فيه إلى ما نـــص الله تعالى عليه في القرآن ، ثم إلى ما نص عليه الرسول ﷺ في ســـنته بمعنـــى أننا إذا وجدنا مسألة شبيهة بالمسألة التي نبحث لها عن حكم في القرآن والسنة ، أيقنا أن الحكم المنصوص عليه فيهما هو الذي يتعين نقله إلى حكم المسألة التي لم يرد فيها نص .

هنالك أدلة على هذا الترتيب من السنة الشريفة منها :

حـــديث الإمـــام البغوي الذي يرويه لنا عن بعض أصحاب معاذ بن جبل عن معاذ يقول : " لما بعث الرسول ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن قاضياً قـــال لـــه : بم تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بكتاب الله ؟ قال : ﷺ فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة الرسول ﷺ . قال ﷺ : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي ولا أقصر، قالوا : فضرب النبي ﷺ صدر معاذ ،

وقـال : الحمـد لله الـذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضى الله ، ويرضي رسول الله ﷺ" .

وتجـدر الإشـارة إلـى أن المحدثـين عندهم شيئاً من التحفظ على هذا الحـديث من ناحية السند ، ويقولون : هذا حديث ليس بمتصل السند ، ولا تحققت فيه شروط الصحة التي وضعها علماء الحديث .

قـد يكون هذا صحيحاً ، لكن أئمة العلم اتفقوا على تلقيه بالقبول ، حتى قال الإمام الغزالي في المستصفى يقول : هذا الحديث لم يطعن عليه إلا لكـونه مرسلاً ـ سأتكلم بإذن الله تعالى عن معنى المرسل عند الكلام عـن السـنة ـ يقول الإمام : لكن الأمة بعد أن تلتقه بالقبول ليست في حاجة للبحث له عن سند أصلاً "

هـذا كـلام الإمـام الغزالـي ؛ لأنه أشهر من أن نبحث له عن سند ، كحـديث " ازهـد فـي الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس " .

فإنـه يُقَـالُ : هذا الحديث من شهرته لا يحتاج إلى سند ؛ لأنه أضحى مشهوراً على ألسنة المحدثين والفقهاء .

والناظـر في حديث معاذ يجد أن النبي ﷺ يقول فيه هذا اللفظ : " فإن لم تجد "

إذاً ! يمكـن أن يكون هناك مسألة ليس عليها نص صريح في القرآن ، بناء على سؤال النبي ﷺ هذا .

ولما قال معاذ : فبسنة رسول الله . قال ﷺ : فإن لم تجد ؟

إذاً ! هناك شيء ليس عليه نص صريح في القرآن ولا في السنة

فائـــدة

هناك شيء لطيف في هذا الحديث :

الأدلة التي قالها معاذ أربعة أم ثلاثة ؟

ثلاثة فقط ، فما هو الدليل الناقص ؟

الإجماع ، لماذا ؟

نقـــص الإجمـــاع في الحديث ؛ لأنه لا مجال له في حياة النبي ﷺ ، من الذي سيجمع والنبي ﷺ موجود ؟

نقـــول : إن الإجمـــاع هو : اتفاق المجتهدين من أمة النبي محمد ﷺ في عصر من العصور على حكم شرعي .

هل هذا الكلام له محل في حياة النبي ﷺ ؟

لا ! ليس له محل في حياة النبي ﷺ ، وإنما سيصبح له محل بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى .

وقـــد ورد معنى هذا الحديث في أكثر من أثر رواه البغوي وغيره عن ميمون بن مهران " أن أبا بكر الصديق كان إذا عرض له قضاء يبحث أول مـــا يبحث في كتاب الله تعالى ، فإذا وجد الحكم قضى به ، وإن لم يجد كان يبحث في سنة ﷺ ، فإن لم يجد ، قال : جمع رؤوس الناس ، فاستشارهم فإن اتفقوا على أمر قضى به رضي الله تعالى عنه .

هـــناك أثـــر آخر عن عمر بن الخطاب : اعتبره الإمام بن القيم أساساً لكـــتابه " أعـــلام الموقعين " فقد شرح هذا الأثر فيه ، وهو مشهور في كـــتب العلـــم بكتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري ، وفيه بيان صريح وواضح إلى ترتيب هذه الأدلة يقول فيه " الفهم الفهم فيما أدلي إليك مما ورد علـــيك ممـــا ليس في قرآن ولا سنة ، ثم قايس الأمور عند ذلك ،

واعـــرف الأمثال ، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله تعالى وأشبهها بالحق " وهذا دليل ظاهر على مشروعية القياس .

وقـــال عمــر في كتابه لشريح " إذا حضرك أمر لابد منه فانظر ما في كتاب الله فاقض به ، فإن لم يكن ففيما قضى به رسول الله ﷺ ، فإن لم يكـــن ففيما قضى به الصالحون وأئمة العدل ، فإن لم يكن فأنت بالخيار فـــإن شئت أن تجتهد رأيك فاجتهد رأيك ، وإن شئت أن تؤامرني ، ولا أرى مؤامرتك إياي إلا خيراً لك ، والسلام "

وهـــذا دلـــيل ظاهـــر علـــى وجوب الالتزام بما أجمع عليه المجتهدون السابقون .

القرآن دراسة أصولية

المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامي هو القرآن الكريم .
والقرآن له أسماء كثيرة منها : القرآن – الكتاب – التنزيل – الفرقان .
يقـول العلمـاء : إن كثرة الأسماء تدل على عِظَم المسمى ، وطالما أن أسـماءه كثيـرة ، فهـذا دليل على أنه شيء عظيم ، وهذا شرف لهذا الكتاب ، وهو كلام الله تبارك وتعالى ، وسنبدأ بتعريف القرآن في اللغة والاصطلاح

تعريف القرآن في اللغة :

القرآن : مصـدر مرادف للقراءة ، مأخوذ من الفعل قرأ ، وقرأ تعني : ضم وجمع ، ويقال : قرأ الشيء بالشيء بمعني : ضمه وجمعه .
والمعنـى أن فـي القرآن يضم الحرف إلى الحرف فتتكون الكلمات ، وتضـم الكلمـة إلى الكلمة ، فتتكون الآيات ، وتضم الآية إلى الآية ، فتتكون السور، وضمت السورة إلى السورة ، فتكون المصحف .
والسؤال :

ما العلاقة التي تربط بين القرآن بمعناه اللغوي : الضم والجمع ، والقرآن الكريم الذي هو المعجزة المعروفة ؟

هل هناك علاقة ؟
نعم ! ما هو الذي ضم وجمع ؟
قالوا : في القرآن ضم وجمع للآيات بعضها إلى بعض .
وفي القرآن جمع لثمرات الكتب السابقة ، فهناك ضم وجمع .

إذاً ! القــرآن ضم وجمع ثمرات كل الكتب السابقة في التوحيد والإيمان والعمــل والإيمــان بالــبعث والجزاء ، صدّق القرآن على هذه الأمور وجمعها وضمها في سلسلة واحدة.

تعريف القرآن اصطلاحاً :

القــرآن اصــطلاحاً هــو : كلام الله تعالى المنزل بالنظم العربي على رسوله محمد ﷺ للإعجاز بسورة منه ، المتعبد بتلاوته ، والمكتوب في المصاحف ، والمنقول إلينا نقلاً متواتراً .

القرآن والكتاب

اشــتهرت المعجزة المنزلة على النبي ﷺ باسمين مشهورين : القرآن ، والكــتاب ، وفــي هــذا إشــارة واضحة إلى أن الله تعالى يطلب من المسلمين أن يحفظوه تلاوة وقراءة ، وأن يدونوه كتابة .
وكأنهــا إشــارة إلــى أن هناك وسيلتين لحفظ هذا القرآن " القراءة – الكــتابة " ولــذلك ســمي قرآناً ، وسمي كتاباً ، فيتعين على المسلمين الاعتناء به في الناحيتين : ناحية الحفظ ، وناحية التدوين والكتابة .

فإن قيل : ما فائدة تسمية كلام الله المنزل على رسوله ﷺ بهذين الاسمين ؟
أجــيب : بــأن فائدته تنبيه المسلمين إلى العناية بتدوينه كتاباً ، وبحفظه قرآناً بحيث لا تغنى إحدى الطريقتين عن الأخرى [1]

1) انظر : أصول الفقه للدكتور زكريا البرى ص ١٥ هامش واحد

القرآن والفرقان

يسمى كلام الله رب العالمين المنزل على النبي ﷺ أيضاً بالفرقان، وهذه إشارة إلى أن ثمرة هذا الكتاب، وثمرة الاعتراف به والاعتناء به في التدوين والقراءة أن يوجد لدى الإنسان فرقان بين الحق والباطل، بين الصلاح والفساد، بين الضلالة والهدى

فإن سأل سائل :

هل القرآن غامض ؛ حتى تقوم بتعريفه ؟
وهل يخفى عليك أن كل أطفالنا يعلمون ما هو القرآن
قل لغلامك الصغير: أعطني القرآن ، [illegible]
، فلماذا يتعبنا الفقهاء ، ويجهدنا العلماء ويقولون [illegible]
اصطلاحي للقرآن الكريم ؟
وهل المسلمون في حاجة إلى تعريف اصطلاحي للقرآن؟
فالقرآن أشهر من أن يحتاج إلى تعريف ؛ لأن الذي يحتاج إلى تعريف هو ما يجهله الناس ، أما المعروف فما فائدة تعريفه ؟

قال العلماء : نعم القرآن أعرف من أن يعرف [illegible] ، لكن التعريف الاصطلاحي له جملة [illegible] تحصيلها وتحقيقها، ومن هذه الفوائد التي عرضها الفقهاء [illegible]

أولاً : أن الكتب المنزلة من الله تبارك وتعالى للبشر لا تقتصر على القرآن ، فالله تعالى أنزل التوراة والإنجيل ، فكيف نميز بين القرآن وبين ما عداه؟ فهذا منزل من عند الله ؛ وهذا منزل أيضاً من عند الله ،

وهـذا موحـ [illegible] الفقها

والأصل [illegible] بـه مـن الله ، وهذا موحى به أيضاً من الله ، فالفقهاء الأصوليون يضعون تعريفاً للقرآن لتحقيق فائدة ، وهي أن نميز بين القرآن وبين ما عداه من الكتب السماوية السابقة.

ثانيا : الإنسان مأمور بأن

ثانيا : [illegible] يقرأ في صلاته بشيء من القرآن ، فلابد أن [illegible] الـذي لا تصـح الصـلاة إلا بالقـراءة [illegible] من الممكن أن يقرأ أي شخص بأي شيء [illegible]

[illegible] نعرف القرآن ؛ حتى ننفذ الأمر الإلهي " فاقرءوا ما تيسر من القرآن "

ثالثا : هناك نص واحد [illegible]

ثالثاً [illegible] بتلاوته ، وهذا النص هو القرآن [illegible] ليست عبادة ، فأي نص هذا الذي تعد قراءته عبادة [illegible] قراءته عبادة ؟ لابد وأن نعرف القرآن [illegible] نصل إلى [illegible] النص الذي تعتبر قراءته عبادة لله رب العالمين [illegible]

رابعـا: القـرآن لا يصح أن يمسه

رابعاً: [illegible] يمسه إلا طاهر يقول سبحانه " إنه لقرآن [illegible] لا يمسه إلا المطهرون " فالطهارة ليست [illegible] ما أوحى الله تعالى به إلى النبي ﷺ أو إلى [illegible] المرسلين ، فيلزم على هذا أن نحدد النص الذي [illegible]

لهذه الأسـباب وغيرها وضع الفقهاء تعريفاً للقرآن وصاغوا تعريفاً له [illegible]

خصائص القرآن الكريم

الخاصية الأولى : القرآن منزل بالنظم العربي ....

وقـد حرصت في هذا التعريف على أن أقول : بالنظم العربي دون أن أقول : اللفظ العربي ، مع أنه قد يكون المعنى واحداً .

ولكـن السـر في هذا : هو أن في التعبير بالنظم العربي تشبيهاً للقرآن باللؤلؤ والدرر المنثورة ، نقول النظم كأنه عقد منظوم .

وأيضـاً : فكلمـة النظم أكثر أدباً من اللفظ ؛ لأن الأخيرة تعني القذف بالشيء والرمي له ، تقول : لفظ فلان شيئاً ، بمعنى قذفه وطرحه من فمه .

فـرأيت مـع بعض المشايخ والأساتذة أن الأدب في تعريف القرآن أن أقول كلام الله تعالى المنزل بالنظم العربي .

تفسير القرآن الكريم

المـتفق عليه بين العلماء أن تفسير القرآن ليس قرآناً ، ولا يأخذ أحكام القـرآن مـن التعبد بقراءته ، أو حرمة المس له إلا مع الطهارة ، وإلا فهل يمكنك أن تقرأ في صلاتك شيئاً من التفسير؟

ولـو قلـنا : إن التفسير قرآن لأمكن أن يحفظ الإنسان نصاً من تفسير القرطبـي أوتفسـير ابـن كثيـر ، ويقرأه في صلاته ، وتصبح صلاته صحيحة .

بعض الناس يقولون لنا لما نسألهم : ما هو الإنجيل ؟

يقولون : إنجيل متى ، أو إنجيل يوحنا ، أوكذا وكذا .

فإذا قلنا : هذه أناجيل ، وليست إنجيلاً واحداً .

قالــوا : عــندكم أيهــا المســلمون أكثر من قرآن ، أليس عندكم قرآن القرطبي ، وقرآن ابن كثير ، .....الخ .

أيها الناس ! لا تخلطوا بين القرآن الكريم ، وتفسيراته ، فالقرآن الكريم شـــيء والتفاســير شيء آخر، وكل هذه التفاسير تدور حول نص واحد فقط ، هو القرآن الكريم ، إذاً التفسير ليس قرآن .

ترجمة القرآن الكريم

هل يمكن أن يترجم القرآن ؟

التــرجمة تعني : نقــل الكلام من لغة إلى لغة أخرى ، أو توضيح الكلام بذات اللغة ، ولذلك سمي عبد الله بن عباس : ترجمان القرآن .

الترجمة نوعان :

ترجمة حرفية ، وترجمة تفسيرية .

التــرجمة الحــرفية : وتعني أن نأتي بنص بديل عن النص الذي نترجمه حذواً بحذو ، بحيث يكون النص الجديد محققاً لذات الأغراض مشتملاً على ذات الحقائق من البلاغة والبيان والبديع .

الترجمة التفسيرية : وتعني أن نأتي بنص وننقل ما فهمناه منه إلى لغة أخرى بحسب فهمنا له ، وعلى قدر طاقتنا اللغوية .

أي هذين النوعين للترجمة ممكناً ؟

<u>أمـــا التـــرجمة الحرفية</u> للقرآن فمستحيلة لماذا ؟ لأنه مستحيل في كـــلام البشـــر، فأولى في كلام خالق البشر سبحانه وتعالى ، فإذا كان يســـتحيل علـــيك نقل كلامي إلى أي لغة أخرى بكل ما فيه من سجع – بديـــع – معاني – بلاغة ، فليس بإمكانك إذاً أن تفعل في كلام الله عز وجل .

قلـــنا : إن القـــرآن لا يمكـــن أن يترجم ترجمة حرفية ، ولذلك ! نحن نطالـــب هـــؤلاء الـــذين يقومـــون بالترجمة للغات الأوربية وغيرها ، ويقولـــون : هـــذه نسخة للقرآن مترجمة بالفرنسية ، أو الإنجليزية ، أو غيرهما .

نقـــول لهـــم : علـــى رسلكم ! لابد وأن تبينوا للناس أن هذه الترجمات ليست قرآناً ، وإنما هذا فهمكم للقرآن الكريم .

<u>وأمـــا التـــرجمة التفسيرية</u> للقرآن فأمر ممكن ، فلا مانع من أن يتـــرجم نص قرآني ترجمة تفسيرية ، على معنى أن يقرأ الإنسان الآية ويقـــول هـــذه الآيـــة تتكلم عن مسألة معينة ، تتضمن معنى معيناً ، أو تتضـــمن حكايـــة معينة ، على أن ينبه أن هذا فهمي لكتاب الله تعالى ، ويكتب النص القرآني بخط عربي واضح ، ثم يكتب تأويله ، وفهمه له ، بحســـب طاقـــته وسعه بأي لغة يشاء ، لا مانع من هذا ، ولابد وأن نحـــدد هـــذا تحديـــداً ؛ لأن كثيـــراً من إخواننا في دول الخليج قاموا بتـــرجمات للقـــرآن الكريم ، وبثوها في دول أوروبا ، وكانت مقتصرة علـــى فهمهم ، فاختلط على الناس أن هذا هو حكم الله تبارك وتعالى ، وكلام الله عز وجل ، ولابد وأن نتقي الله تبارك وتعالى .

أثر الحكم بعدم اعتبار الترجمة قرآناً

ترتب على عدم اعتبار النص المترجم قرآناً ما يلي :

أولاً : أن هـذا الـنص لـيس لـه أحكام القرآن ، بمعنى أنه لا يجب الوضوء على من يمسه .

ويجوز أن تقرأه الحائض بغير خلاف .

ولـو كان النص المترجم مشتملاً على سجدة تلاوة فلا يطالب من قرأ هذا النص أن يسجد للتلاوة ؛ لأنه يقرأ ترجمة أو تفسيراً .

ثانـياً : كمـا ترتب على عدم اعتبار الترجمة قرآناً أن حفظ الله تعالى كتابه ، فلم يطرأ عليه تغيير أو تبديل ، بخلاف الكتب السماوية السابقة ، فالـنص الأول للإنجـيل لا يجده أحد ؛ حيث ترجم من العبرية إلى اليونانـية ، والأصـل لـم يعد موجوداً ، فبدأ التحريف والتبديل ، أما القـرآن فالقـول بعدم جواز ترجمته أدى إلى إغلاق هذا الباب تماماً ؛ لأنـه لا يصـح أن يترجم أساساً ، والممكن فقط هو أن تترجم تفاسيره وما يفهمه الناس منه .

موقف الأعاجم ومن لا يعلمون العربية

قـد يقول قائل : يترتب على غلق باب الترجمة أن يقتصر القرآن على العـرب فقط ، مع أن القرآن والرسالة الإسلامية كلها إنما يخاطب بها البشر جميعاً ، وإلا فماذا يفعل الأعاجم وغيرهم من المسلمين ؟

والجـواب : أنه ليس السبيل إلى نشر القرآن بين هؤلاء أن تترجم لهم النص القرآني ترجمة حرفية ، بل إن هناك سبيلاً آخر ، وهو أن نذكر

النص القرآني باللغة العربية في صلب الصفحة ، وأن نذكر في هامشها معـناه بلغـتهم تـرجمة تفسيرية ، لكن يظل النص القرآني غير قابل للترجمة إلى لغة أخرى ، وعلى من يترجم ، ويقول : المعنى كذا وكذا أن يقول في أسفل الصفحة أن هذا كلام فلان من الناس ، أو هذا فهمه.

وأمـا غيـر العرب من غير المسلمين فنحن مطالبون بأن نعرض لهم أخـلاق الإسلام وآداب الإسلام وأوامر الإسلام ، نعرضها لهم ؛ حتى يفهموها ، في صورة قولية وفي تطبيق عملي لأخلاق الإسلام.

والمؤسـف أن المسـلمين الآن أصبحوا فتنة في نظر هؤلاء الكفار؛ لأن المسـلمين تخلفـوا ، وأصبحوا ضمن دول العالم الثالث ، ودول العالم الرابع ولو هناك عالم بعد الثالث لقالوا : المسلمون داخلون فيه .

ومـن الطرائف أننا لا نعرف من أين أتوا بالثالث بعد الأول مباشرة ، مـع أن الترتيب الطبيعي للأرقام أن يقال : الأول ، والثاني ، والثالث ، ولا ندري من هو الموجود بالمنتصف ؟

لماذا هذا التخلف ؟

هل لأن ديننا يدفعنا دفعاً لهذا التخلف ؟

لا ! والله ، نحن لا نريد أن نكون فتنة للذين كفروا وعلينا أن نتمثل هذه الآيـة القـرآنية الكـريمة " ربـنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين "

إذاً ! لما أغلقنا باب الترجمة ظل القرآن محفوظاً بفضل الله تعالى .

ويمكـن أن يعبـر عـن قضية حجية القرآن على غير العرب ، والتي يـتخوَّف البعض من القول بحظر الترجمة حفاظاً على عالمية الإسلام بالسؤال التالي :

كيف يكون القرآن حجة على غير العرب وهم لا يعرفون العربية ؟

أجـــاب بعـــض المشـــايخ عن هذا السؤال بأنه : إذا كان القرآن الكـــريم معجـــزاً للعرب بفصاحة ألفاظه وبلاغة أساليبه وخفته على اللســـان وحسن وقعه فى السمع وأخذه بمجامع القلوب ، فإنه معجز للبشـــر أجمعـــين بما تضمنه من الحقائق الثابتة والتوجيهات السديدة والأغـــراض السامية والمقاصد النبيلة – وغيرها من وجوه الإعجاز التى سنشير إليها بعد قليل –

وإذا كـــان العـــرب الذين يتكلمون اللغة العربية بفطرتهم ويأتون من وجـــوه البلاغة بما يعجز عنه غيرهم قد عجزوا عن الإتيان بمثله ، فمن عداهم ممن لا يعرف لغتهم يكون أعجز حتماً .

وإذا فرضـــنا أن الأعجمـــي تعلم لغة العرب وأجادها ، فقصارى ما يصـــل إلـــيه فى ذلك أن يكون مثل بلغائهم الذين عجزوا عن الإتيان بشيء من مثل الكتاب الكريم ، فيكون عاجزاً عن ذلك مثلهم ، وبهذا يكون القرآن الكريم حجة على غير العرب من هذه الناحية أيضاً [١]

الخاصية الثانية : القرآن منزل بلفظه ومعناه :

القـــرآن منـــزل بلفظه ومعناه ، وعلى هذا فقد كانت مهمة جبريل عليه الســـلام أن ينقله إلى محمد ﷺ هكذا ، دون تبديل ، ولا تصرف ، وأن ينقله محمد ﷺ هو الآخر إلى من بعده ، دون تبديل أو تصرف .

---

1) انظر : أصول التشريع الإسلامى للشيخ على حسب الله ص ٢٨ .

وقـد كانت هذه الخاصية حتى يتميز القرآن عن صور الوحي الأخرى ،كما في الكتب السماوية السابقة ، والسنة النبوية الشريفة .

فالسنة أنزل الله تعالى معناها على رسول الكريم ﷺ ثم بما فطره عليه من القدرة على كلامه الجامع عبر عنها النبي ﷺ بألفاظ من عنده .

هذا كلام مهم ، ماذا يعني ذلك ؟

يعنـي أن أمين الوحي قال : يا محمد ! أعْلِم الأمة أن السواك مستحب ، فهنا عرّف النبي محمد ﷺ الأمة هذا المعنى بألفاظ من عنده وقال : " لو لا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة أو كل وضوء " أو كمـا قـال ﷺ " ،ومـع أن عبارات النبي ﷺ أرقى ما يصل إليه الإنسـان لكن اللفظ المستخدم في الحديث النبوي منه ﷺ أما القرآن فقد نزل بلفظه ومعناه ، وليس معنى هذه الخاصية أن الله تعالى أنزل الآية القـرآنية ، وأنزل تفسيرها الموجود في كتب التفسير ، وإنما المراد هو أن ربنا سبحانه وتعالى أمر رسوله ﷺ أن يعلم الناس أو يأمرهم بإقامة الصـلاة وإيـتاء الزكاة ولكن تبليغهم هذا الأمر لم يترك للنبي ﷺ أن يعبـر عـنه بألفاظ من عنده ﷺ ولكن قال المولى له " وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة "

هـذا الاخـتلاف بـين الحديث النبوي والقرآن واضح ، لكن الحديث القدسـي لمـا أضافه النبي ﷺ إلى الله تعالى فقد يقع اللبس ، فالحديث القدسـي يقـول النبـي ﷺ قـال الله ، كما في قوله ﷺ : قال الله : أنا الـرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته "

وقـد سـمي هـذا الحديث بالقدسي لماذا ؛ لأن النبي ﷺ نسبه إلى الله القدوس ، لكن الحديث النبوي لمّا لم ينسبه إلى الله قلنا : حديث نبوي .

والسؤال :

هل أُنْزِل الحديث القدسي بمعناه فقط كالحديث النبوي ، أم بلفظه ومعناه كالقرآن ؟

العلمـــاء لهم كلام كثير الحديث القدسي هل نزل بمعناه فقط ؟ أم معناه ولفظه ؟ وفي هذه المسألة خلاف .

الشيخ محمد عبد الله دراز رحمه الله : قال أنزل على النبي ﷺ بمعناه فقـــط ولكن لما كان الله تعالى قد أنزله على رسوله ﷺ ونحن متأكدون أنـــه وحـــي قلنا : حديث قدسيّ ، أما الحديث النبوي فإن بعضه بوحي وبعضـــه قـــد يكون باجتهاد من النبي ﷺ ، ولمّا لم نتأكد قلنا : حديث نبوي .

فريق آخر قال : إن الأحاديث القدسية منزلة بلفظها ومعناها .

والفرق بينها وبين القرآن الكريم يتضح في :

{أ} أن الحـــديث القدســـي لم ينزل للإعجاز ، وإنما أنزله الله لكي يعمل الـــناس بمقتضـــاه ، أما القرآن الكريم فقد أنزله الله للغرضين جميعاً ، فـــنحن مطالـــبون بالعمل بمقتضاه ، بالإضافة إلى أنه نزل للإعجاز ؛ حتـــى يعجـــز غير المسلمين ، ويبين لهم عجزهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم .

إذاً ! القـــرآن أنزل للإعجاز، والأحاديث القدسية حتى وإن نزلت بلفظها ومعناها فلم تنزل للإعجاز.

{ب} أن القرآن كله متواتر تواتراً تاماً بلفظه ، لا يختلف في ذلك أحد ، أما الأحاديث القدسية فبعضها متواتر،وبعضها غير متواتر .

ماذا يعني التواتر ؟

المتواتـــر هـــو : ما رواه جمع كبير عن جمع كبير عن مثلهم ، حتى يصـــل الســـند إلى رسول الله ﷺ ، بحيث يستحيل في العادة أن يتواطأ هؤلاء على الكذب .

فلـــو أن الآلاف من الناس اتفقوا على شيء معين ، هل من الممكن أن يـــتفق هـــؤلاء ، وهم من أماكن مختلفة كالعراق والسعودية والمغرب ومصر على الكذب ؟

الـــذي يمكن أن يتفق على الكذب واحد مع واحد ، أو اثنين مع مثلهما أو مع ثلاثة ، أما جمع كبير فمن المستحيل أن يتوافقوا على الكذب .

{ت} القـــرآن الكـــريم لا يجوز قراءته بالمعنى بالإجماع ، فلا يصح أن نقول : قال الله فيما معناه ، فهذا لا يصح ، أما الحديث القدسي والنبوي فمـــن الممكـــن أن نقـــول : قال الله فيما رواه عنه رسول الله ﷺ ، في الحـــديث القدسي نقول : فيما معناه فإنه يصح ، ولا مانع منه ، وكذلك الحديث النبوي يصح قراءته بالمعنى .

{ث} لا تصـــح الصلاة إلا بقراءة شيء من القرآن ، ولا تصح الصلاة بقراءة حديث قدسي .

{ج} لا تصـــح نســـبة القرآن إلا إلى الله عز وجل ، أما الحديث القدسي فـــيمكن أن نقول : قال رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربه ، وهذه فوارق جوهرية بين القرآن والحديث القدسي .

هل تجوز قراءة القرآن بالمعنى ؟

بدايـــة نشير إلى أن جمهور المحدثين ذهبوا إلى جواز رواية الحديث القدسي والحديث النبوي بالمعنى .

أمـــا القـــرآن فقـــد أجمع العلماء على أن القرآن هو اللفظ والمعنى ، ولـــيس المعنـــى وحده يعد قرآناً ، لأن التحدي كان باللفظ والمعنى ، ولمـــا تحدى الله تعالى المشركين طالبهم أن يأتوا بعشر سور من مثله مفتـــريات ، وواضـــح أن الـــتحدي هنا باللفظ ، ولقد وصف القرآن الكـــريم بأنه عربي في قوله تعالى " إنا أنزلناه قرآناً عربياً " فالقرآن بلفظـــه ومعـــناه عربي، وعلى ذلك ، فلا تصح قراءة القرآن بالمعنى بالإجماع [1]

وقـــد ادعـــى بعـــض الذين يتجنّوْن على القرآن أن الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان يرى أن القرآن هو المعنى فقط ، وبنوا على هذا جواز ترجمة القرآن عند أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه .

والأصل الذى بنوا عليه هذه الدعوى ما روى عنه أنه أجاز للفارسيين قـــراءة معانـــي الفاتحة بلغتهم الفارسية وقالوا : لو كان القرآن اسماً للـــنظم والمعنى عند أبى حنيفة لما أجاز ذلك ، فالقارئ في هذه الحالة لا يعد قارئاً للقرآن ، لأن الحاصل من القراءة بالفارسية معنى القرآن

---

[1]) انظر : المعجزة الكبرى للشيخ أبى زهرة ص ٥٨٣ .

فقــط ، وقــراءة القــرآن أمــر لا بد منه في الصلاة [١]. قال تعالى " فاقرءوا ما تيسر من القرآن " [٢]

وتحقــيق القــول فى هذه الفتوى الصادرة عن أبى حنيفة أنه رأى فى صــدر حياته طوائف من الفرس وقد دخلوا فى الإسلام ، ولم تطوع ألســنتهم للــنطق بالعــربية من غير رطانة أعجمية ، كما نرى اليوم الأعــاجم الــذين يعلمــون اللغــة العربية تتلوى ألسنتهم فى مخارج الحــروف العــربية ، فأجــاز أبو حنيفة لهم ذلك حتى تتمرن ألسنتهم وتلين للنطق بالعربية .

ولــذلك فقد اشترط لجواز ذلك ألا يكون الشخص مبتدعاً بهذا العمل ، أي أنه ترك القراءة بالعربية مع القدرة على النطق الصحيح بها ليقرأ معاني القرآن بلغة أخرى فارسية أو أوربية .
وقــد روى عــن أبــى حنــيفة أنه رجع عن هذا الرأى بعد أن رأى المبتدعين هم الذين يتخذون القرآن مهجوراً وهم الذين يستبيحون تلك الرخصة فحرم ما كان قد استحسن [٣]

هــل مــؤدى هــذه الفتوى أن يكون أبو حنيفة قد اعتبر القرآن هو المعنى دون النظم ؟ مع أن فقهاء الحنفية اختلفوا في أصل هذه الفتوى ، وهــل مــؤداها أن أبا حنيفة اعتبر الترجمة دعاء ، وليست قرآناً أم أنــه اعتبرها قرآناً ؟ إلا أن المقطوع به أن أبا حنيفة لم يعتبر القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ هو المعنى فقط ، فذلك ما لم يقله أحد من

---

١) انظر : أصول الفقه للشيخ البرديسى ص ١٧٢ .
٢) جزء من الآية الأخيرة من سورة المزمل .
٣) انظر : المعجزة الكبرى للشيخ أبى زهرة ص ٥٨٤ .

أهـل الإيمـان ، لأن محمـداً ﷺ أقـرأه جبريل اللفظ ولم يوح إليه بالمعانـي وحـدها ، وهـذا صريح فى قوله تعالى " لا تحرك لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه "[١]

فإذا كان أبو حنيفة قد اعتبر المترجم مجزئاً للصلاة فى الحدود التى رسـمناها فـي دور من أدوار اجتهاده الفقهي إلا أنه لا يعده قرآناً ، ولـذا لـم يقـل : إنه تجب سجدة التلاوة بالجزء المترجم إذا كان فى معنـى آيـة لها سجدة تلاوة ، وأجاز أن يمس غير المتوضئ الجزء المتـرجم ولا حرج عليه ، وتقرأ الحائض والنفساء المعنى المترجم ، ولا إثـم فـى ذلك ؛ لأنه ليس قرآناً ، وإنما سوغ ذلك للفارسيين أن يقرءوا المعاني لسورة الفاتحة على أنها دعاء حتى تقوم ألسنتهم من قبيل الرخصة الدينية ، فلما رأى الألسنة قومت ، ولانت ، واستقامت ، وخشي البدعة ، إذ يجد المبتدعة السبيل إلى بدعتهم فرجع عن رأيه ، ولا يصح الاعتماد على رأى رجع عنه صاحبه[٢]

هل يشتمل القرآن على ألفاظ غير عربية ؟

اتفق العلماء على أن الأعلام الأعجمية واقعة فيه كإبراهيم وإسماعيل وإسرائيل .

---

١) الآيات "١٦ – ١٧ " من سورة القيامة

٢) انظر : المعجزة الكبرى للشيخ أبى زهرة ص ٥٨٥ – ٥٨٦ ويراعى أن مذاهب الأئمة الثلاثة ، والتي رجع إليها أبو حنيفة في العاجز عن النطق بالعربية أنه يصلى ساكتاً مستحضراً معنى العبادة والطاعة والمناجاة ، ويسقط عنه ركن القراءة ؛ حتى يقـدر عليها ، كما يصلى العاجز عن القيام قاعداً ؛ حتى يقدر على القيام . انظر : المجموع للنووى ج٣ ص ٣٧٩ ، المغنى لابن قدامة ج١ ص ٥٢٦ .

كما اتفقوا على أنه ليس فى القرآن الكريم كلام مركب على أساليب غير العرب ، والخلاف بين العلماء إنما هو في غير الأعلام [١]

فذهب جمهور العلماء إلى القول بأنه ليس فى القــرآن شئ غيــر العربية [٢] وقد استدلوا على ذلك بالقرآن والمعقول :

أما القرآن فقوله تعالى " إنا أنزلناه قرآناً عربياً " [٣]

وقوله تعالى " ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين " [٤].

فهــذه الآيــات الكــريمة وغيرها تدل على أنه ليس فى القرآن غير العربي [٥]

وأما استدلالهم بالمعقول فقد قالوا : إن الله عز وجل جعل القرآن معجــزة نبيه ﷺ ودلالة على صدقه ؛ ليتحداهم به ، فلو كان فيه غير العربــي لما صح التحدي به ، لأن الكفار يجدون إلى رده طريقاً بأن يقولــوا : إن فــيما أتــيت به غير العربي ، ونحن لا نقدر على كلام

---

١) انظــر : شرح الجلال المحلى على جمع الجوامع ج١ ص ٣٢٦ ، إرشاد الفحول للشوكانى ص ٣٢ .

٢) انظــر : الرسالة للإمام الشافعى ص ٤٠ ، المستصفى للغزالى ج١ ص ١٠٥ ، الصــرة فى أصول الفقه ص ١٨٠ ، الإتقان للسيوطى ج٢ ص ١٢٥ وفيه قال أبو عبــيده : إنمــا انــزل القرآن بلسان عربى مبين فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول أ.هــ .

٣) جزء من الآية رقم " ٢ " من سورة يوسف .

٤) الآية رقم " ١٠٤٣ " من سورة النحل

٥) انظر : المستصفى للغزالى ج١ ص ١٠٥ .

بعضـــه عربــي وبعضـــه أعجمي وإنما نقدر على معارضة العربي الخالص [١]

وذهب بعض المتكلمين إلى القول بأن فى القرآن الكريم كلمات بغير العـــربية ككلمـــة " المشـــكاة " " كوة بالهندية " بل وفيه ما لا يعرفه العرب وهو " الأبّ " فى قوله تعالى ".وفاكهة وأبا " [٢]

أضف إلى ذلك أن الرسول ﷺ بعث إلى الناس كافة عربهم وعجمهم مما يعنـــى أنـــه يجب أن يكون كتابه جامعاً للغة الكل ليتحقق خطابه للكل إعجازاً وبياناً [٣]

ويجاب عن هذا بأنا لا نسلم أن فى القرآن كلمات غير عربية ، بل إن الموجـــود بلغة العرب ، وإنما وافقتها الفرس والهند في النطق بها ، كما وافقوا فى كثير من كلامهم من باب توارد اللغات .

والقـــول بـــأن فى القرآن ما لا تعرفه العرب " كالأب " غلط ، فإن الأب " الحشيش" وليس معنى أن بعضهم لا يعرف كلمة أن تكون هذه الكلمـــة خارج لغة العرب ، لأن لغة العرب أوسع اللغات ، فيجوز أن يخفى بعضها على بعض لكثرتها.

---

١) انظـــر : المـــرجع السابق ذاته وأيضاً : دراسات فى القرآن الكريم د / الحفناوى ص ٦٧ – ٦٨ .

٢) الآية رقم ٣١ ' من سورة عيسى

٣) انظـــر : الإحكام للآمدى ج١ ص ٤٧ وقد نسب هذا القول إلى ابن عباس رضى الله عنهما . وانظر : الإتقان للسيوطى ج٢ ص ١٢٥ .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ما كنت أدرى معنى " فاطر السماوات والأرض " حتى سمعت امرأة من العرب تقول " أنا فطرته أى ابتدأته [١]

وكــونه ﷺ بعــث إلــى الناس كافة متفق عليه لكن ترتيبكم على ذلك وجــوب أن يكون القرآن جامعاً لكل اللغات مردود ؛ لأنه يقتضى أن يكــون فــيه مــن جميع اللغات من الزنجية والتركية والرومية ، و الإجماع على أن ذلك لم يقع ، فدل على بطلان ما قالوه .

أضــف إلى ذلك أنه لــو كان كذلك لكان يجب أن يكون فيه من هذه اللغات قدراً يعلم به المراد ، ويقع به التبليغ ، فأما هذه الكلمات القليلة فلــم يعلــم بهــا شئ ، ولا يقع بها بيان ، ولأنه وإن كان مبعوثاً إلى الكافــة إلا أن القصــد إعجاز العرب ؛ فإنهم أهل اللسان والفصاحة والبيان ، فإذا ظهر عجزهم عن الإتيان بمثله دل على أن غيرهم عن ذلك أعجز ، وثبت صدقه فى حق الجميع [٢]

وقــد قال بعض العلماء : إن فى القرآن ألفاظاً غير عربية الأصل لكــن العرب أدخلوها فى لغتهم وعربتها ألسنتهم واللغات يأخذ بعضها من بعض [٣]

---

١) انظر : الإتقان للسيوطى ج٢ ص ١٢٥ ، الأحكام للآمدى ج ١ص ٤٨

٢) انظر فى هذا : دراسات فى القرآن الكريم د / الحفناوى ص ٦٨ – ٧- .

٣) انظر : إرشاد الفحول للشوكانى ص ٢٨ .

والأصـــح أن هذه الكلمات عربية الأصل ونقلها عنهم غيرهم بدليل أن الله عـــز وجل أضاف ذلك إليهم ، وخص قومه بالذكر معه بكتابه فقال تعالى " وإنه لذكر لك ولقومك " [١]
فدل على أن العرب سبقوا إلى ذلك وتبعهم غيرهم ، ولا شك أن العرب مـــن أقـــدم الأمم ، وأن لغتهم من أقدم اللغات ، وأنهم اختلطوا بغيرهم اخـــتلاطاً واسعاً ، فقد كان الرومان يستأجرون منهم الجنود والعساكر؛ لمـــا عـــرفوا بـــه من قوة وشجاعة ، وقد استولوا على مصر قديماً فى الحملـــة المعـــروفة بحملـــة الهكسوس سنة ٢٠٠٠ ق .م واستطاعت العربية أن تؤثر فى القبط الآرميين [٢]

حكم تعلم اللغة العربية

يترتب على أن القرآن أنزل بلسان عربي مبين أن تعلم اللغة من الدين ومعرفتها واجب ؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهمان إلا بفهم اللغة العربية،وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .
وعلى هذا ! فإنه يتعين على الأمة أن تخصص من أبنائها طائفة تحقق لها الكفاية فى هذا الباب ، وأما آحاد المسلمين فإنه يجب على كل مسلم ومســـلمة أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ؛ حتى يشهد به أن لا إلـــه إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ ، ويتلو به كتاب الله وينطق

---

١) جزء من الآية ٤٤ من سورة الزخرف.
٢) انظر : أصول الفقه د / سلام مدكور ص ١٠٢ - ١٠٣ ..

بالذكـر فـيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك [١]

الخاصية الثالثة : القرآن منزل للإعجاز بسورة منه :

الإعجـاز معـناه : يعني أن القرآن يرتقي عن طوق البشر ، وطوق المخلوقين ، فلا يتمكنون من الإتيان بمثله ، وسيتضح لنا ذلك فيما يلي:

معنى الإعجاز وأركانه

الإعجاز معناه في اللغة العربية : نسبة العجز إلى الغير وإثباته له ، يقـال : أعجـز الـرجل أخاه إذا أثبت عجزه عن شئ ، وأعجز القرآن الناس أثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله .

أركان الإعجاز

لا يتحقق الإعجاز أي إثبات العجـز إلى الغير إلا إذا توافـرت أركان ثلاثة :

١ – التحدي من طالب المنازلة والمباراة والمعارضة .

٢ – أن يـوجد المقتضـى الـذي يدفـع المتحدى إلى المباراة والمنازلة والمعارضة

---

١) انظـر : الرسـالة للإمام الشافعى ص ٤٨ وأيضاً : أصول الفقه للدكتور / سلام مدكـور ص ١٠٢ بالهامش ونقلاً عن حكاية الإمام ابن حجر هذا الحكم عن الإمام ابن تيمية .

٣ – أن ينتفي المانع الذي يمنع من هذه المعارضة (١)

مثال توضيحي لحقيقة الإعجاز :

إذا ادعــى رياضي أنه بطل في نوع من أنواع الرياضة ، وأنكر عليه دعــواه رياضي آخر، فتحدى مدعى البطولة من أنكر عليه ، وطلب مــنه أن يــباريه أو أن يأتي بمن يباريه ، وهذا المنكر شديد الحرص على إبطال دعوى هذا المدعى ، كما أنه ليس به أي مرض ، ولا أي عــذر يمنعه عن مباراته أو عن الإتيان بمن يباريه ، ومع ذلك ! فلم يــتقدم لمباراته ، ولم يأت بمن يباريه ، فإن هذا اعتراف منه بالعجز وتسليم الدعوى (2)

مدى توافر أركان الإعجاز في القرآن

المقطــوع بــه أن أركــان الإعجاز الثلاثة توافرت في القرآن الكريم وبيان ذلك فيما يلي :

أمــا الــتحدي : فقد قال الرسول ﷺ للناس : إني رسول الله إليكم وبرهانــي على ذلك : الكلام الله الذي أتلوه بينكم ، وبين لهم أن هذا الكــلام فوق أن ينال بالمعارضة لخروجه عن الطاقة البشرية ، فلما أنكــروا علــيه دعواه طلب منهم أن يعارضوا هذا القرآن وينازلوه ، وقال لهم : إن كنتم في ريب من أنه من عند الله ، وتبادر إلي عقولكم أنــه من صنع البشر، فأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو حتى

---

1) انظــر : المــرجع الســابق ص ٢٥ وأيضــاً : أصــول الفقه للأستاذ البرديسى ص ١٧٨ .

٢) انظر : علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٢٥

بسورة ، وطلب منهم هذه المعارضة بلهجات واخزة وألفاظ قارعة وعبارات تهكمية ، تستفز العزيمة وتدعوا إلى المباراة ، وأقسم أنهم لا يأتون بمثله ، ولن يفعلوا ولن يستجيبوا لطلبه ، ولن يأتوا بمثله [١]

قال تعالى في سورة القصص : " قل فأتوا بكتاب من عند هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم [٢] وفي سورة الطور " أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين [٣]

وقال سبحانه في سورة الإسراء " قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً " [٤]

وفى سورة هود " أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين " [٥]

---

1) انظر : المرجع السابق ذاته وأيضاً : أصول الفقه للأستاذ البرديسى ص ١٧٨ ، أصول التشريع الإسلامي للأستاذ على حسب الله ص ٢٥ .

2) الآيتان "٤٩ – ٥٠ " من سورة القصص

3) الآيتان " ٢٣ – ٢٤ " من سورة الطور

4) الآية " ٨٨ " من سورة الإسراء

5) الآية " ١٣ " من سورة هود . – يحتمل أن يكون الافتراء – الذى يدعونه فى نسبة هذه السورة إلى الوحي كأنه فرض أن امتناعهم عن الإتيان بسورة مثله إنما كان لتوقف ذلك على نسبة أشياء إلى الوحي عن الله ، وليس هذا فى مقدورهم ؛ فبين لهم فى هذه الآية تنازله عن صحة هذه النسبة واكتفاءه فى التحدي بأن يأتوا – من عند أنفسهم – بعشر سور مثله فى البلاغة والصدق – ويحتمل أن يكون هذا الافتراء – المزعوم – واقع فى المعاني التى تقررها السورة المطلوبة فتنازل عن أهم نواحي الإعجاز ، وهو اشتمال القرآن على حقائق سامية وحكم عالية مؤثرة فى القلوب مطهرة للنفوس – وطالبهم بعشر سور مثله =

وفــي ســورة البقرة قال سبحانه " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عـبدنا فأتــوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صــادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار آلتي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين " [١]

والمــتأمل فــي هــذه الآيات يجد أن النبي ﷺ تدرج في ذلك التحدي فطلب منهم أن يأتوا بمثله ، فلما عجزوا خفف الطلب إلى عشر سور مــن مثله ، ثم إلى سورة واحدة ، وفى كل مرة يقول لهم : استعينوا بمــن شــئتم مــن الإنس والجن وفى النهاية سجل عليهم العجز التام وجــابهم بالحقــيقة الــناطقة بــأن القرآن ليس في متناولهم ، فهــم معانــدون ينتظرهم جزاؤهــم في نــار وقودهــا الناس والحجارة [٢]

<u>وأما وجود المقتضى</u> أي الدافع الباعث للمباراة والمعارضة عند من تحداهم ، فهذا أظهر من أن يحتاج إلى بيان ،لأن الرسولﷺ قد جاءهم بــدين يبطل دينهم ومعتقداتهم الذي وجدوا عليه آباءهم ، وسفه عقولهم وســخر مــن أوثانهم ، واحتج على دعواه بالرسالة وبطلان دينهم بأن القــرآن مــن عــند الله ، وتحــداهم أن يأتوا بمثله ، فما كان أحوجهم

= مفتــريات تماثله فى النظم فحسب ، فلا بيان فيها لحقيقة ولا هداية نضال ولا إرشــاد لمسترشــد ولا أثر فيها لحكمة أو خبر صادق . انظر فى هذا : أصول التشريع الإسلامى للشيخ على حسب الله ص ٢٦

1) الآيتان " ٢٣ – ٢٤ " من سورة البقرة . **قلت** : معلوم أن سورة البقرة مدنية، مما يعنى أن التحدي وقع في المدينة كما سبق ووقع في مكة في آيات الإسراء وهود والقصص والطور.

2) انظر : المدخل للشيخ محمد مصطفى شلبى ص ٢٢٥ .

وأحرصـــهم والحالـــة هذه إلى الإتيان بمثله لإدحاض حجة محمد ﷺ ، وبـــذلك يبطل دينه ، وينصرون آلهتهم آلتي يعبدون آلتي سخر منها ﷺ ، ويدافعون عن دينهم وينجو الجميع من الحروب وويلاتها [١]

<u>وأمـــا ركـــن انـــتفاء المانع من المعارضة</u> فوجوده محسوس ملموس ، لأن القرآن نزل بلغة العرب وألفاظه من أحرفهم الهجائية ، وقـــد جرى في أسلوبه على أسلوبهم ، وهم ملوك البلاغة وأمراء الفصـــاحة وقادة البيان ، وميدان سباقهم مملوء بالشعراء والخطباء والفصحاء في مختلف فنون القول . **وهذا من الناحية اللفظية .**

وأمـــا مـــن الناحـــية المعنوية فقد نطقت أشعارهم وخطبهم وحكمهم ومناظـــراتهم بـــأنهم ناضـــجوا العقول ، ذووا بصر بالأمور وخبرة بالـــتجارب وقد دعاهم القرآن في تجديه لهم أن يستعينوا بمن شاءوا مـــن الإنـــس والجـــن ؛ ليستكملوا ما ينقصهم ويتموا عدتهم ، وفيهم الكهان وأهل الكتاب ، أضف إلى ذلك أن القرآن لم ينزل عليهم جملة واحدة ، حتى يحتجوا بأن زمنهم لا يتسع للمعارضة ، بل نزل مفرقاً فـــي ثـــلاث وعشرين سنة بين كل مجموعة وأخرى زمن فيه متسع للمعارضة والإتيان بمثلها لو كان في مقدورهم [٢]

---

1) انظـــر : علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٢٦ ، أصول الفقه للأستاذ البرديسى ص ١٧٨ .

2) انظـــر : المـــرجعين السابقين ذاتهما . ويراعى أن العرب كانوا يقيمون مسابقات بيانـــية يعقـــدونها فى الأسواق فى موسم الحج فى عكاظ ومجنة وذى المجاز ، فقد كانـــت فـــيهم تجارة المادة وتجارة البيان معاً ، فقد كان فى الأولى زاد الجسم وفى الثانـــية زاد النفس كما ظهر ذلك فى الشعر ومسابقاته، فمن معلقات تعلق فى أستار الكعـــبة وحولـــيات يقطـــع الحول فى نسج خيالها وصوغ عباراتها التى تصغي =

ويظهـــر مـــن هـــذا كله أن التحدي بمعارضة القرآن كان قائماً ، والـــباعث الدافع إلى المعارضة كان ظاهراً ، وليس ثمة ما يمنع من قـــيامهم بهـــذه المعرضـــة لو كانوا يستطيعون ؛ حتى يكفوا أنفسهم مؤونة القتال والنضال والغزوات عدة سنين .

فالـــتجاؤهم إلـــى المحاربـــة بـــدل المعارضة ، وائتمارهم على قتل الرســـول ﷺ بـــدل ائتمارهم على الإتيان بمثل قرآنه اعتراف منهم بعجـــزهم عن معارضته ، وتسليم أن هذا القرآن فوق مستوى البشر ودليل على أنه من عند الله [1]

قد يقول قائل : إن التاريخ الإسلامي لم يرد غير الذين صدقوا وآمنوا فحذفوا ما كانت فيه معارضة للقرآن الكريم –

والجواب : أن هذا كلام قيل من الأفاكين ، ويرده أمران :

١ – أنه ما كان يمكن أن يعم الإيمان ، وثمة معارضون للقرآن في جد لا لهو فيه ولا عبث .

= إلـــيها الأفـــئدة ... وقد أجمع المؤرخون فى القديم والحديث على أن العرب لهم مآثر فى البيان وذوق الكلام انظر : المعجزة الكبرى للشيخ أبى زهرة ص ٦٢ .

1) انظـــر : علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٢٧ ، وقال قائلهم – وهو الوليد بن المغيـــرة : والله مـــا مـــنكم رجـــل أعرف بالأشعار منى ولا أعرف برجز الشعر وقصـــيده منى ، والله ما يشبه الذى يقوله شيئاً من هذا ، وإن لقوله لحلاوة ، وإن علـــيه لطـــلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى علبه ، وإنه ليحطم ما تحته "

٢ – أن أعداء الإسلام كانوا في كل زمان منذ أن ظهر محمد ﷺ إلى أن قبضه الله تعالى ، يحرصون على بث الأفكار المنحرفة والأقوال الهدامة والمذاهب المخربة ، وأولئك ما كانوا ليستروا الكلام الذي عورض به القرآن ، إذ يرون فيه هدم الأصل ، فثبت من هذا أن القرآن فوق طاقة البشر [1]

الخاصية الرابعة :

القرآن مبدوء بسورة الفاتحة ومختوم بسورة الناس .

وهنا تثور مسألة ، وهي قضية ترتيب الآيات وترتيب السور .

والحق أن ترتيب الآيات توقيفية بوحي من الله تعالى لرسوله ﷺ ، فليس لأحد أن يبدله أو يغيره ، ولذلك :

فبعض السحرة يقول : سأقرأ عليه سورة " يس " معكوسة ، وهذا العمل إن فعله مستحلاً له كفر بغير خلاف ؛ لأن ترتيب الآيات توقيفي ، فالرسول ﷺ كانت مهمته أن ينقل لنا هذا الكلام دون ترتيب ، أو تبديل ، أو تغيير، ولذلك كان جبريل ينزل ، فيقول النبي لأصحابه : ضعوا هذه الآية في سورة كذا ولذلك عندما نقرأ سورة كالممتحنة مثلاً : فهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام :

الأول : صدر السورة " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء .... " هذه الآية نزلت في بدايات فتح مكة ، قبل الفتح ، والفتح في العام الثامن هجرية .

---

1) انظر : المعجزة الكبرى للشيخ أبى زهرة ص ٧٢ .

الثاني : في منتصف السورة يقول تعالى " يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن .... " .
وهذه الآية نزلت بعد صلح الحديبية في السنة السادسة الهجرية .

الثالث : في آخر السورة " يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً .... "
وهذه نزلت في بيعة النساء بعد فتح مكة في آخر السنة الثامنة الهجرية.
إذاً ! ترتيب الآيات توقيفي ، أي ليس لأحد أن يتدخل في ترتيب الآيات

أما ترتيب السور فقد اختلف العلماء فيه :
فريق من العلماء قال : ترتيب السور تم باجتهاد من الصحابة الكرام .
وفريق آخر قال : إن ترتيب السور توقيفي كترتيب الآيات سواء بسواء ، لماذا ؟
قالوا : إذا قرأت السور القرآنية تجد أن هناك أشياء بينها وبين بعضها ليس لها تفسير يفهمه الإنسان بعقله ، فلم ترتب بسبب النزول .
فلو كان الصحابة هم من رتبوها كانوا مثلاً رتبوها حسب النزول ، ورتبوها بحسب الطول والقصر مثلاً ، وهذا لم يحدث أيضاً .
وتجد في السور أشياء تلفت انتباهك ، فتجد " طسم " في أول الشعراء ، و" طس " في أول النمل ، " طسم " في أول القصص ، والسؤال : لماذا لم ترتب " طسم " خلف بعضها ، ثم " طس " مثلاً ؟

ولماذا لم تأت " المسبحات" خلف بعضها ، أوتأتي " حم " خلف بعضها ؟
فمثلاً " سبح لله" أول الحديد ، ثم " قد سمع الله" أول المجادلة ، ثم "سبح لله" أول الحشر بعدها ، ثم بعدها " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا " أول

الممتحـــنة وبعـــدها "ســبح لله" أول الصف ، وبعدها " يسبح لله " أول الجمعـــة ، وبعدها " إذا جاءك المنافقون" أول المنافقون ، وبعدها "يسبح لله" أول التغابن .

فلماذا كان ذلك كذلك ؟

لأن ترتيب السور توقيفي عن الله ، كترتيب الآيات ، ولذلك فليس لأحد أن يقـــدم أو يؤخـــر فيها ، وإلا يعتبر مبدلاً للترتيب المنقول عن اللوح المحفوظ هكذا قالوا.

وأنسب الأقوال وأعدلها هو ما قال أصحابه : إن أغلب سور القرآن الكريم في ترتيبها توقيفي ، وقـــد ذهب إلى هـــذا البيهقي وغيره .

والتـــرتيب الاجـــتهادي في بعض السور القليلة ، وقد حصرها البيهقي في سورتي " الأنفال و التوبة "

وحتى ولو ذهبنا إلى الأخذ بقول من قال : إن ترتيب السور تم باجتهاد مـــن الصحابة فإنه ينبغي لما ألا نخرج عما أجمع عليه أصحاب النبي ﷺ . لأنه إذا كان الصحابة أجمعوا على أن ترتيب المصحف على هذه الكيفـــية الموجـــودة معنا الآن ، بداية من الفاتحة ، وحتى الناس ، فلا يصح لأحد أن يبدل أو يغير فيما أجمع عليه أصحاب النبي ﷺ .

عدد آيات القرآن

عدَّد المسلمون عدد آيات القرآن الكريم ، وقالوا : هي ٦٢٣٦ آية .

وقـــد يقول قائل : إن هذا الكلام ليس مجمعاً عليه ، فمن العلماء من قال إن عـــدد الآيـــات هـــو : ٦٢٢٠ ، والـــبعض قال : بل هو ٦٢١٦ ، وبعضهم أقل من هذا بقليل .

ما هذا الكلام الخطير ؟

إن ذلك يعني أن القرآن مختلف في عدد آياته .

والحـــق أن المسلمين لا تختلف كلمتهم فيما هو قرآن ، وعلينا نبين هنا لماذا وقع الاختلاف إذاً ؟

إن ســـيد البشر ﷺ حينما كان يعلم الصحابة القرآن في أول الأمر كان يقف على رأس كل آية ، فيقول مثلاً : " الحمد لله رب العالمين " ويقف ، ثـــم يقول " الرحمن الرحيم " ويقف ، وهكذا حتى آخر السورة ، فلما فهـــم الصـــحابة ذلـــك ، وعلموه كان النبي ﷺ يصل الآيتين بعضهما ببعض في بعض الأحيان ، فعندما سمع الناس هذا الوصل ، ظنوا أن هاتـــين الآيتـــين آيـــة واحدة ، فلما عدَّدوا الآيات ، قالوا : إنهم ٦٢٢٠ وذلك لأنهم دمجوا بين الآيات بعضها البعض .

ولذلك ستقرأ القرآن ، وستجد فيه عجباً ، ستجد " طسم " آية ، و" طس" ليست آية ، لماذا ؟

لأن القضية هي : ماذا فعل النبي ﷺ ، فليست المسألة مفتوحة لكل أحد ، يحسب هذه آية ، ولا يحسب الأخرى آية .

وأيضـــاً : فعند النظر للقرآن فستجد أن " ألم " آية ، بينما " الر " ليست آيـــة و" المـــر" ليســـت آية ، و " المص " أول الأعراف ليست آية هذا الكلام مأثور عن النبي ﷺ .

مسألـــــة

في بعض الأحيان يقرأ الإمام في الركعة الأولى بسورة " الواقعة " مثلاً ، ثـــم فـــي الركعة الثانية يرجع إلى قراءة سورة " الرحمن " وهذا ما يسمى بـــ التنكيس .

العلمـــاء قالوا : إن تنكيس الآيات حرام بالإجماع ، وإن استحله صاحبه يصـــبح كافراً ؛ لأنه غير نظم القرآن ، وبدّله ، وحرف في كتاب الله ، فلا يصح أن يقرأ آية ، ثم يرجع ليقرأ الآية التي قبلها ، ثم التي قبلها ، وهكـــذا. أمـــا تنكيس السور فهو أخف قليلاً ، يعني إذا قرأ الواقعة في الركعة الأولى ، ثم الرحمن في الثانية ، هنا يكون قد رجع .

وينبغـــي أن يلتـــزم الإنســـان بالتـــرتيب المأثور عن النبي ﷺ أو عن أصـــحابه ، إلا إذا قرأ الواقعة في الركعة الأولى ، ثم نسي تماماً ، ولم يتذكـــر إلا الـــرحمن فليقـــرأها ، ولا مانع إطلاقاً ، مع أنه فعل خلاف الأولـــى ، ولكـــن ذلـــك وقع لحاجة ، وطالما أنه متذكر ، فنقول له : ينبغي لك أن تقلد أصحاب النبي ﷺ في ترتيبهم لآيات القرآن الكريم .

الخاصية الخامسة :

القرآن منقول إلينا بطريق التواتر:

ومعنى نقل القرآن إلينا على جهة التواتر: أن يرويه جمع عظيم يؤمن تواطـــؤهم علـــى الكـــذب عـــن النبي ﷺ، وقد حدث هذا بالفعل من الصـــحابة رضى الله عنهم ، فقد رووه شفاهة وكتابة ، كما أنزل عليه ، ثـــم يـــرويه عـــن هـــذا الجمع جمع آخر مثله ، وقد تحقق هذا من التابعـــين ، وهكذا حتى تصل الرواية إلينا كما نطق بها النبي ﷺ من غير تحريف ولا تبديل ولا زيادة ولا نقص [١] .

---

١) انظر : أصول الفقه للأستاذ البرديسى ص ١٧٦ .

الاحتجاج بالقراءة غير المتواترة

تعـريفها : عرف بعضهم القراءة غير المتواترة بأنها : ما نقلت إلينا قرآناً بغير طريق التواتر [١]

حجيتها : اختلف الفقهاء في الاحتجاج بالقراءة غير المتواترة :

فذهب الحنفية إلى صحة الاحتجاج بها والاستدلال بها ، لأنها وإن لم تثبت قرآنيتها لعدم التواتر، إلا أنها خبر عن النبي ﷺ والعمل بخبر الواحد واجب كما قالوا : إن مآل القراءة غير المتواترة أن تكون سنة سمعها الصحابي العدل من رسول الله ﷺ وردت على سبيل البيان لكتاب الله ، والسنة مما يصح الاحتجاج بها والاعتماد عليها في إثبات الأحكام ، وقد تكون القراءة غير المتواترة اجتهاداً ومذهباً لراويها ومذهب الصحابي حجة على رأى بعض الفقهاء [٢]

وذهب جمهور الأئمة إلى أنه لا يصح الاحتجاج بغير المتواتر لأن المنقول بغير التواتر ليس قرآناً لعدم تواتره ،لأن القرآن ما تتوفر

---

١) انظر : علم أصول الفقه للشيخ أبى النجا ص ٦٨ ومن المشايخ من سماها القراءة الشاذة وعرفها بأنها : هى ما فقدت ركناً من الأركان الثلاثة : موافقة العربية ولو بوجه وموافقة رسم المصحف ولو احتمالاً كمالك وملك يوم الدين وصحة السند وقد تكون القراءة الشاذة بالمخالفة فى نطق الحروف أو فى نطق هيئاتها أو بزيادة أحد الصحابة لفظاً لم يقرأه غيره . انظر : أصول الفقه د / البرى ص ٩٦

٢) انظر : أصول الفقه د / زكريا البرى ص ١٩ ، أصول الفقه د / بدران أبو العينين ص ٦١ .

الدواعـــي علـــى نقله لكونه كلام الرب سبحانه وتعالى وكونه مشتملاً علـــى الأحكام الشرعية وكونه معجزاً وما كان كذلك فلابد أن يتواتر فما لم يتواتر فليس بقرآن [١]

كمـــا أنه ليس سنة ، لأن الراوى لم ينقله على أنه سنة ، وإذا لم تكن قرآناً ولا سنة فإنه يحتمل أن تكون مذهباً لصاحبها فقط ،

إذا كان هذا شأنها فلا يصح أن تجعل حجة في استنباط الأحكام [٢]

ومع هذا الاختلاف في الاحتجاج بالقراءة غيـــر المتواترة إلا أن الإجمـــاع قائـــم على أنها ليست قرآناً وبالتالي في تصح الصلاة بقراءتها ولا يحكم بكفر من قال إنها ليس بقرآن [٣]

---

١) انظر : إرشاد الفحول للشوكانى ص ٣٠ .

٢) انظـــر : أصـــول الفقه د / البرديسى ص ١٧٦ ، أصول الفقه د / أحمد الشافعى ص ٤٩

٣) انظـــر : أصول الفقه د / أحمد الشافعي ص ٤٩ ويراعى أن هذه القراءات غير المتواتـــرة والمنســـوبة إلى بعض الصحابة قد أثبتها هؤلاء الصحابة في مصاحفهم التـــى كانوا يدونونها لأنفسهم أو نقلت عنهم على أنها تفسير وبيان له ، لا على أنها من ألفاظ القرآن نفسه ، وظن بعض الرواة أنها من ألفاظه فنقلوها باعتبارها قراءة غيـــر متواتـــرة انفـــرد بها بعض الصحابة ، وليست فى الحقيقة قرآناً ، وإنما هى تفســـيرات سمعوها من الرسول صلى الله عليه وسلم بياناً لبعض نصوص القرآن أ وكانـــت نتيجة اجتهاد منهم حملاً لنص على نص آخر فأثبتوها فى مصاحفهم ، كما يفعـــل بعض العلماء فى التعليق على نصوص بعض الكتب والقوانين توضيحاً لها وتقيـــيداً لإطلاقهـــا ، وهذا هو التفسير المقبول لهذه القراءات ، ونظير هذا الحديث المـــدرج وهـــو الـــذي زاد فيه الراوي كلمة فى متنه تفسيراً أو تعليقاً فيحسبها من يســـمعها من كلام النبي ﷺ ومثلوا له بما روى عن أبى هريرة من زيادة " أسبغوا الوضوء " في صدر الحديث المروى عن رسول الله ﷺ " ويل للأعقاب من النار " فقـــد رواه بهـــذه الـــزيادة انظـــر : أصول الفقه د / زكريا البرى ص ١٨ – ١٩ هامش "٣"

فائدة هذا الخلاف

تــرتب علـــى اخــتلاف الفقهاء في الاحتجاج بالقراءة غير المتواترة اختلافهم في بعض الأحكام الفقهية ومن ذلك:
أن الحنفية اعتمدوا على قراءة ابن مسعود في آية الكفارة " فمن لم يجد فصــيام ثلاثـــة أيام متتابعات " فاشترطوا التتابع في الصوم الواجب في كفـــارة اليمين عملاً بهذه القراءة في حين لم يشترط غيرهم ذلك ، عملاً بالقراءة المتواترة آلتي جاءت خالية من كلمة " متتابعات " ، وعلى هذا فإن شاء الحانث في يمينه صام الأيام الثلاثة متتابعة أو متفرقة [١]

ثبوت القرآن

مـــن قرون سحيقة والشمس – في مرآي العين – هي الشمس لم تتغير على تعاقب الأجيال ، ولم تزد ، ولم تنقص على اختلاف الليل والنهار، ومـــن قرون سحيقة والقمر – في مرآي العين – هو القمر لا يزال بين الخلـــف والسلف مستدير القرص هادئ النور ، لم يطرأ عليه مع اطراد الـــزمان تبديل ولا نالت منه " عوامل التعرية " التى يقول العلماء : إنها تنقص الجبال الرواسي وتبريها طولاً وعرضاً ....ونحن المسلمين نرى القرآن الكريم حقيقة علمية ثابتة كهذه الحقائق الكونية الدائمة ، فهو منذ بـــدأ لـــم يزد حرفاً ولم ينقص ... نقله جبريل عن الله بأمانة ، ونقله

---

١) انظر : أصول الفقه د / زكريا البرى ص ٢٠ ، أصول الفقه د / أحمد الشافعي ص ٤٩ .

كذلك محمد ﷺ عن جبريل ، ونقله الصحابة عن محمد ﷺ ، ثم تتابعت الجماهير الغفيرة تنقله عبر القرون ، حتى بلغت به إلينا مثلما نزل قبل أربعة عشر قرناً ، وسنورثه نحن غيرنا بهذه الهيئة المكتملة المصونة ، وسيظل الحفظة يروونه للأعصار المقبلة إلى أن ينفض سرادق الحياة والأحياء وينقلب الناس جميعاً إلى الله ... إن هذا القرآن قد اختصه الله بالحفظ والخلود ، فهو حقيقة محصنة من التحريف ، وهو حقيقة تغالب الفناء وتغلبه ...وليست هذه دعوى تقوم على حماس العاطفة وتعصب الإيمان ، فإن الذى نقوله هو منطق التاريخ ، ومنطق التاريخ هنا يستغرق الأذهان لا بالاستنتاج والحدس – أي التخمين – واستنطاق الآثار، بل بالحس القائم على الرؤية والسماع ... إن الأدلة التاريخية المختلفة قد ترشح ببعض الحق ، أما الحالة بالنسبة للقرآن فإن الشواهد على صدقه تجيء سيلاً غدقاً ينفى بطبيعته الشبه ، ويؤسس اليقين تأسيساً ...وبهذا التواتر الرائع ثبت القرآن ثبوتاً لا مجال فيه لظنون أو أوهام [1]

تاريخ القرآن

تاريخ القرآن يختلف عن تاريخ كل الكتب الأخرى ؛ وهو تاريخ يفخر المسلمون به .

تاريخ القرآن واضح وضوحاً عميقاً ، وليس عندنا فيه شيء مجهول ، نحن نعلم متى نزل ؟ وأي سورة بدأ بها ؟ بل أي آية ؟ وأي آية ختم

---

[1]) هذا الكلام من أجمل ما قرأت حول ثبوت القرآن وقد نقلته بألفاظه دون تصرف من كتاب نظرات فى القرآن لفضيلة الشيخ الجليل / محمد الغزالى عليه رحمات الله ورضوانه انظر : ص ٢٧ .

بهـا ؟ ومـا عدد آياته ؟ وما عدد سوره ؟ بل كيف كان ينزل ؟ وكيف كـان يكتب ؟ وكيف كان يحفظ ؟ وكيف وصل المصحف والقرآن إلى أمـة الإسـلام هـذه الأيـام على النحو الذي أراده الله وبلغه رسوله الكريم ﷺ .

أمـا الكـتب السماوية الأخرى الموجودة بين أيدي البشر الآن فلا يجرأ واحـد من أتباعها على أن يقول : إن كتابنا له سند موصول ، يرجع إلى فلان أو فلان .

لا يمكـن هذا ! إنما هناك نسخ كثيرة ، بينها تناقضات واختلافات ، لا يمكـن الجمع بينها ، ثم بأي لغة نزلت هذه الكتب ؟ ومن ترجمها ؟ ثم أين النص الأصلي ؟

أسئلة ، وأسئلة كثيرة دفعت العقلاء من أصحاب هذه الديانات أن يقولوا : إن تلك الكتب لا يمكن لمنصف أن يقطع بصحة نسبتها إلى أنبياء الله تعالى لكن القرآن على خلاف هذا .

المسـلمون بحمد الله تبارك وتعالى يقطعون بصحة انتسابهم إلى الله عز وجـل ، والمسلمون مطمئنون بفضل الله تعالى إلى صحة انتساب دينهم إلـى خالق السماوات والأرض سبحانه وتعالى ، وهذه قضية في غاية الخطورة ؛ لأن الشك فيها يخرج الإنسان من الإسلام بلا خلاف .

أول ما نزل من القرآن

المشـهور بين العلماء أن أول آية أنزلت على النبي ﷺ هي " اقرأ باسم ربك الذي خلق "

والحديث عن عائشة مخرج في الصحيحين .

" أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة ، كان لا يرى الرؤيا إلا جـاءت مـثل فلق الصبح ، واستمرت في الحديث إلى أن بينت نزول أمـين الوحي جبريل عليه السلام على النبي ﷺ في الغار ، وقال له : اقرأ ، فقال النبي ﷺ : ما أنا بقارئ .. الحديث "

ومـن العلماء من قال : إنه روي عن بعض الصحابة أن أول آية نزلت هي " يا أيها المدثر " .

ويمكننا أن نجمع بين هذين القولين : المشهور وغيره ، بأن نقول : إن أول آية نزلت بإطلاق هي " اقرأ " .

وأمـا " يا أيها المدثر" فهي أول آية نزلت ؛ لتأمر بالإنذار والتبليغ هذا هو سر الجمع بين القولين .

آخر آية نزلت من القرآن

والمشـهور أيضـاً أن آخـر آيـة نزلت هي قوله تعالى " واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهو لا يظلمون "

ومن العلماء من قال : إن آخر آية أنزلت هي " اليوم أكملت لكم دينكم "

وطـريق التوفيق بين القولين أن نقول : إن آية " اليوم أكملت لكم " هي آخر آية أنزلت مبينة للأحكام الشرعية .

وأمـا آيـة " واتقـوا يـوماً " فهي آخر آية نزلت على قول النبي ﷺ بالإطلاق لأنها أنزلت في شهر صفر من السنة التي توفي فيها الرسول ﷺ قبل أن ينتقل إلى الله عز وجل بأيام .

وآخر سورة أنزلت كاملة هي سورة " إذا جاء نصر الله والفتح " .

كيف كان ينزل القرآن ؟

قال تعالى " وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً "(٢)

من هذا يتبين أن القرآن لم ينزل على النبى ﷺ جملة واحدة ، بل كان ينزل وفقاً للحوادث وبياناً لحكم ما عرض من الوقائع ، أو جواباً لأسئلة واستفتاءات ، فمن الأول : قوله تعالى في سورة النساء " إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً " وآيات بعدها ، فإنها نزلت فى شأن رجل من الأنصار يقال له : طعمة بن أبيرق ، وكان قد سرق درعاً من جار له يدعى : قتادة بن النعمان في جراب دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه ، ولما علم أن أمره قد انكشف ألقاها فى بيت رجل يهودى يقال له : زيد بن السمين ، ثم ذهب ناس من أهله لرسول الله ﷺ يطلبون منه أن يعلن براءة صاحبهم من هذه السرقة التى وجدت فى بيت اليهودى ، فقضى النبى ﷺ بالظاهر، وهو براءة ابن أبيرق من تهمة السرقة فنزلت هذه الآيات تبرئة لليهودي وفضحا لهذا السارق وإن كان من المسلمين (١)

---

١) لا يجد القارئ المتجرد من الهوى والميل لهذه الآيات سبيلاً أمامه إلا أن يوقن بأن هذا الدين – أعنى الإسلام – تنزيل من اللطيف الخبير سبحانه وتعالى ، وليس من صنع البشر إذ لم يعهد فى عرف القوانين الأرضية نظام يحرص على المحافظة على العدالة المطلقة والمبادئ الخلقية السامية حتى وإن كان الذى سيستفيد من تطبيقها إنسان من غير أتباعها ومناصريها ، لكنها القيم الربانية التى لا تتجزأ ولو دققت النظر فى هذه القصة لوجدت الشواهد تدين اليهودى الذى وجد الدرع فى بيته وتبرئ المسلم السارق ، فلو لم تنزل هذه الآيات لتفضح السارق وتبرئ البريء =

ومن الثانى : أى القرآن الذى نزل جواباً عن سؤال أو استفتاء :
قــوله تعالى " ويسألونك عن اليتامي " " ويسألونك عن المحيض " " ويســألونك عن الخمر والميسر " ويسألونك عن الأنفال " وقلما كان القــرآن ينــزل ابتداء غير مسبوق بحادثة أو استفتاء غير أنه قد يأتى مــع جــواب السؤال أو حكم الواقعة حكم آخر يكون له بالحكم الأول ارتــباط كبيــر، فمن ذلك قوله تعالى " ويستفتونك فى النساء قل الله يفتــيكم فــيهن " فــإن الســؤال كان عن التزوج باليتامى من النساء فأجيــبوا عــن ذلــك مع زيادة حكم الإحسان إلى الولدان والعدل فى اليتامى [١]

فإن قيل : كيف توفق بين نزول القرآن منجمــاً أى مفرقــاً ، وقوله تعالى : " إنا أنزلناه فى ليلة القدر "
أجــيب : بأن معنى نزوله فى ليلة القدر أن ابتداء نزوله كان فيها ، فالضمير فى أنزلناه للقرآن ، ولا شك أن ابتداء نزول القرآن كان فى تلــك الليلة أو أن القرآن نزل جملة إلى اللوح المحفوظ الذى جعله الله سجلاً جامعاً لكل ما قضى وقدر، وكل ما كان وما يكون ، فهو شاهد ناطــق ومظهــر مــن أروع المظاهر الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالــى ، أو أن القــرآن نزل جملة فى ليلة القدر إلى بيت العزة من

= لأديــن هــذا الــيهودى ، ومع أن حال اليهود مع النبى ﷺ فى المدينة من الكيد والتآمــر كــان يقتضى استغلال هذه الحادثة للتخلص من مكائدهم، لكنه قانون الله القائل " ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى " انظر : تفسير القرطبى وتفسير ابن كثير فى تفسير هذه الآيات .

١) انظر : تاريخ الفقه الإسلامى د / محمد على السايس ص ١٦ .

السماء الدنيا ، ثم كان الله عز وجل ينزله على رسوله ﷺ إثر بعض [١]

حكمة نزول القرآن منجماً

ظل القرآن ينزل على رسول الله ﷺ منجماً خلال ثلاثة وعشرين عاماً حسب الوقائع والمناسبات ، فتارة ينزل عليه سورة بجملتها كما فى الفاتحة والمدثر ، وتارة ينزل عليه عشر آيات كما فى قصة الإفك وأول سورة " المؤمنون" وتارة خمس آيات ، وذلك كثير، بل قد صح أنه نزل عليه بعض آية كقوله " غير أولى الضرر " بعدما نزل قوله تعالى " لا يستوي القاعدون من المؤمنين " وما زال الأمر هكذا حتى كملت الشريعة بتمام نزول القرآن [٢]

وقد يسأل سائل : لماذا أنزل القرآن منجماً ، ولم ينزل دفعة واحدة ، كما أنزلت الألواح العشر على موسى عليه السلام ، وكما أنزل الزبور على داود .

وإن مثل هذا السؤال جاء على ألسنة المشركين معترضين متخذين منه سبيلاً للجاجتهم ، وقد نقل القرآن الكريم عنهم ذلك ورده ، فقال تعالى " وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً " [٣] .

وقد ذكر العلماء حكماً جليلة لنزول القرآن منجماً ، ويمكننا

---

١) انظر : المرجع السابق ذاته وأيضاً : دراسات فى القرآن د / الحفناوى ص ٤٧٣ – ٤٧٤ .

٢) انظر : تاريخ الفقه الإسلامى للشيخ محمد على السايس ص ١٧ .

٣) الآية " ٣٢ " من سورة الفرقان

إجمال هذه الحكم فيما يلى :

الحكمـــة الأولى : تثبـيت فؤاد النبى ﷺ ، وهذا واضح من الآية التى ذكـرناها قبل قليل ، ففي هذه الآية رد على اقتراح المشركين بإنزال القــرآن علـيه ﷺ جملــة واحدة ، فأجاب الله عز وجل بقوله " كذلك لنثـبت به فؤادك " فقد كانت الآيات القرآنية تنزل عليه ﷺ تقوى قلبه وتثـبت عزيمته وتحمل تأييداً مستمراً له وتزيل عنه ما أصابه من ألم وشــدة بسبب اضطهاد الكفارله ولأصحابه وتكذيبهم له ، فيقوم بحق الدعــوة بالجهــاد فى سبيلها ، وإذا كان المرء يستأنس بوليه إذا والى الاتصـــال به فكيف لا يستأنس ﷺ بلقاء الروح الأمين " جبريل عليه السلام " الذى يجيئه بكلام رب العالمين فى موالاة مستمرة ؟.

الحكمـــة الثانية : تسهيل حفظ القرآن وفهمه على المسلمين : فالعرب كانـوا أميـين لا يقرءون ولا يكتبون ، فالكتابة فيهم ليست رائجة بل يــندر فيهم من يعرفها وأندر منه من يتقنها ، قال الله عز وجل " هو الــذى بعث فى الأميين رسولاً منهم " [1] فما كان فى استطاعتهم أن يكتبوا القرآن كله إذا نزل جملة واحدة ،

وأيضـــاً : فإنـــه لــو نزل دفعة واحدة عليهم لعجزوا تماماً عن حفظه وفهمــه ، فاقتضــت حكمــة الله عز وجل أن ينزله على رسوله ﷺ مفــرقاً ؛ ليســهل عليهم حفظه ووعيه وفهمه ، وما ذلك إلا لأن هذا القــرآن أنزل ؛ ليحفظ فى الأجيال كلها جيلاً بعد جيل ، والمعلوم أن مــا يحفظ فى الصدور لا يعتريه التغيير، ولا التبديل ؛ وأما ما يكتب

---

١) جزء من الآية " ٢ " من سورة الجمعة .

فى السطور فقد يعتريه المحو والإثبات والتحريف والتصحيف ، فلأن الله عــز وجــل كتب الحفظ للقرآن فكان يحفظ جزءاً جزءاً ، أو كان ينزل مجزءاً ؛ ليسهل ذلك الحفظ [١]

الحكمـــة الثالثة : تــرتيل القرآن بتعليم تلاوته فقد قال الله عز وجل " كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً "

وهــذا النص يستفاد منه أن تلاوة القرآن وطريقة ترتيله هى من تعليم الله تعالــى ، إذ أنه سبحانه وتعالى ينسب الترتيل إليه ، تعالت قدرته وحكمته وعظم بيانه ، فنحن بقراءتنا وترتيلنا إن أحكمناه إنما نتبع ما علــم الله تعالى نبيه من ترتيل محكم جاء به التنزيل ، وأمر به النبى ﷺ فى قوله تعالى "ورتل القرآن ترتيلاً " [٢]

ومــا كــان تعليم هذا الترتيل المنزل من عند الله تعالى ليتوافر إذا لم ينزل القرآن منجماً ، فلو نزل جملة واحدة ما تمكن النبى ﷺ من تعلم التــرتيل ، ولــو علمه الله تعالى بغير تنجيمه ما كان فى الإمكان أن يعلمه قومه، وهم حملته إلى الأجيال من بعده [٣]

---

١) انظــر : المعجزة الكبرى للشيخ أبى زهرة ص ٢٢ ، دراسات فى القرآن د / الحفــناوى ص ٤٧٧ ويراعــى أن النبى ﷺ نفسه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب أما غيره من الرسل السابقين ، فقد كانوا قارئين كاتبين يمكنهم أن يضبطوا ويحفظوا مــا ينــزل عليهم من الكتب جملة . انظر : تاريخ الفقه الإسلامى للشيخ السايس ص ١٧ .

٢) الآية رقم " ٤ " من سورة المزمل

٣) انظر : المعجزة الكبرى لفضيلة الشيخ أبى زهرة ص ٢٣ .

الحكمة الرابعة : اقتضـــت حكمة الله أن يكون فى القرآن ما هو ناسخ وما هو منسوخ ، وهذا لا يتأتى إلا فيما ينزل مفرقاً [١]

الحكمة الخامسة : مسايرة الحوادث والطوارئ فى تجددها وتفرقها ، فكلمـــا جـــد منها جديد نزل من القرآن ما يناسبه وفصل لهم الله من أحكامه ما يوافقه ، ومعلوم أن هذه الحوادث لم تقع جملة واحدة ، بل وقعـــت متفـــرقة ، ومن ثم كان لا مفر من نزول القرآن مفرقاً على حسب هذه الأقضية والوقائع .

أضف إلى ذلك أن نزول القرآن معقباً على الحوادث التى نقع أو مجيباً علـــى التســـاؤلات التى توجه للرسول ﷺ باعث على القبول وأدعى للامتثال للأحكام ولا يتأتى ذلك إلا إذا نزل مفرقاً [٢]

---

١) انظر : تاريخ الفقه الإسلامى للشيخ السايس ص ١٧

٢) انظر : المرجع السابق ذاته وأيضاً : دراسات فى القرآن د / الحفناوى ص ٤٧٨ ويراعـــى أن آيات القرآن وثيقة الارتباط بالظروف التى جاءت فيها ، وفقه هذه الظروف جزء من فقه الهدايات السماوية التى تعلقت بها وتعرضت لها، ولو أن القـــرآن نـــزل دفعة واحدة لأمكن لدارسه أن يفصل بين معانيه وبين الملابسات العديدة المتشعبة التى أحاطت بها أو لحار فى وضع كل حكم بإزاء الحالة الدقيقة التى تناسبه ... لذلك فلابد فى فقه القرآن من فقه الحياة نفسها التى أحاطت ببداية أمره ونهايته .. ومن الظلم الفادح للقرآن الكريم أن يحاول أحد تفسيره وهو ذاهل عـــن الجو الذى اكتنف نزول الآيات فإن تاريخ النزول أو سببه جزءان لا يمكن تجاهلهما في تكوين المعنى وإيضاح المقصدبل لا يمكن تجاهلهما في تربية الناس بالقرآن وأخذهم بآدابه أ.هـــ انظر : نظرات فى القرآن للشيخ محمد الغزالى

الحكمـــة السادســـة : التدرج فى تشريع الأحكام رحمة بالعباد ، فــإنهم كانــوا قــبل الإسلام فى إباحة مطلقة ، فلو نزل عليهم القرآن جملـــة واحدة لثقلت عليهم التكاليف ، ولما أطاقوها ، فتنفر قلوبهم عن قبول ما فيه من الأوامر والنواهي يوضح ذلك :

حـــديث عائشة رضى الله عنها عند البخاري قالت " إنما أنزل أول ما نـــزل مـــنه ســـورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الـــناس إلـــى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شئ : لا تشـــربوا الخمـــر لقالـــوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا "

وبـــناء علـــى ذلـــك فقـــد اهتم القرآن أولاً بغرس وتثبيت العقيدة فى الـــنفوس، ولـــم يكلفهم من العبادات فى مكة إلا بالقليل ، فالصلاة لم تفـــرض علـــيهم إلا قـــبل الهجرة بقليل ، والصيام والزكاة فى السنة الثانـــية من الهجرة والحج فى السنة السادسة ولم تحرم عليهم الخمر تحـــريماً مطلقـــاً إلا فى المدينة المنورة وكذلك الربا لم يحرم إلا بعد الهجرة [١]

المكي والمدني

كـــان نزول القرآن منجماً سبباً فى أن بعضه نزل بمكة وبعضه نزل بالمدينة فكان منه المكي ومنه المدني .

فالمكـــي: ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعد الهجرة ، فما نزل بعـــد الهجرة ولو بمكة يسمى مدنيا ، وما نزل قبل الهجرة يسمى مكياً

---

١) انظر : المرجعين السابقين ذاتهما .

، فالتقســيم زمانـــي وليس بمكاني ، وليست العبرة بمكان النزول إنما العبرة فيه بزمانه (١)

أهمية العلم بالمكي والمدني

تتجلى هذه الأهمية فيما يترتب عليه من فوائد يحتاجها الإنسان والتي منها :

١ – يترتب على معرفة المكي والمدني تمييز الناسخ من المنسوخ فيصار إلى الأخذ بالناسخ وترك المنسوخ ،فلو تعارضت آيتان لورودهما فى

---

١) انظر : المعجزة الكبرى للشيخ أبى زهرة ص ٢٤ ويراعى أن التمييز بين المكي والمدني بحسب زمان النزول هو أشهر الطرائق الثلاثة التى اصطلح عليها العلماء فى التمييز بينهما ، ويضاف إلى هذا الاصطلاح اصطلاحان آخران : [ا] التمييز بيـــنهما بحســب مكان النزول فما نزل بمكة ولو بعد الهجرة مكي والمدني ما نزل بالمديـــنة ويدخل فى مكة ضواحيها كمنى وعرفات كما يدخل فى المدينة ضواحيها كالمنـــزل على النبى ﷺ فى بدر وأحد ، وهو اصطلاح معيب لأنه غير ضابط ولا حاصر إ ذ لا يشتمل على ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما كقوله تعالى " لو كـــان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة " الآية " ٤٢ " من سورة التوبة .

[ب] المكـــي ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة فما كان بصـــيغة " يـــا أيها الناس " فهو مكي ، وما كان بصيغة " يا أيها الذين آمنوا " فهو مدني ، لأن الكفر غالباً كان فى مكة فخوطبوا " يا أيها الناس " والإيمان غالب فى المديـــنة فخوطـــبوا " يا أيها الذين آمنوا "، وهذا الاصطلاح منتقداً أيضاً ؛ لأنه لا يشمل ما نزل غير مصدر بأحدهما ، نحو قوله تعالى " يا أيها النبى " ثم إنه قد نزل بالمديـــنة مـــا جاء بصيغة " يا أيها الناس " نحو أول سورة النساء " يا أيها الناس اتقـــوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة " انظر فى هذا : مناهل العرفان للشيخ الزرقانى ج١ ص ١٨٧ وأيضاً : دراسات فى القرآن د / الحفناوى ص ٤٥٩ .

موضـــوع واحـــد وكـــل آية منهما تثبت حكماً مخالفاً لما تثبته الآية الأخـــرى وعـــرفنا أن إحـــدى الآيتين مكية والأخرى مدنية ففي تلك الحالـــة نحكـــم بـــأن الآية المدنية ناسخة للآية المكية نظراً إلى تأخر المدني عن المكي .

٢ – معـــرفة المكي والمدني تبصرنا بمعنى الآية القرآنية ، وتحجزنا عن الخطـــأ فـــي تفسيرها ، ذلك أن من قرأ سورة " الكافرون " ولم يعلم أهـــي مكـــية أم مدنية ؟ فإنه يحار في معناها ، وقد يستخرج منها أن المســـلمين لا يكلفون بالجهاد ، وإنما عليهم أن يقولوا للآخرين " لكم دينكم ولي دين " لكن إذا علم أن هذه السورة نزلت في مكة حين قال أهـــل الشرك والضلال لرسول الله ﷺ : تعال يا محمد نعبد ربك يوماً وتعـــبد آلهتنا يوماً ، أدرك أن هذه السورة كانت علاجاً للمرحلة التي قضـــاها ﷺ في مكة ، وليست دليلاً على عدم مشروعية الجهاد الذي نزلت الآيات بفرضيته في الآيات الأخرى بالمدينة المنورة [1].

٣ – معـــرفة المكي والمدني تدعوا إلى الثقة بالقرآن وبوصوله إلينا سالماً مـــن التغيير والتحريف والتبديل ، ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام حتى أنهم يعرفون ويتناقلون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها ، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر ، وما نزل بالليل ومـــا نـــزل بالـــنهار، وما نزل بالشتاء وما نزل بالصيف ، وما نزل

---

[1]) انظـــر : دراسات فى القرآن د / الحفناوي ص ٤٦١ وأشار فضيلته بالهامش إلى أنـــه نقـــل عـــن التعبيـــر المغنى فى القرآن ص ٤٧ ، من روائع القرآن للسيوطي ص ١٠٣

بـــالأرض ومـــا نزل بالسماء ، فلا يعقل بعد هذا أن يسكتوا ويتركوا أحداً يمسه ويعبث به [١] .

مميزات كل من المكي والمدني

استنبط العلماء مميزات يعرف بها كل من المكي والمدني إن لم يمكن الوقوف على ذلك بالنقل وإليك بيانها :

١ – إن الآيـــات المقررة للأحكام المبينة للفرائض والحدود معظمها مدني ، أما المكي فأغلبه يرجع إلى المقصد الأول من الدين وهو توحيد الله تعالـــى وإقامة البراهين على وجوده وهدم قواعد الشرك والحث على تطهير القلوب من الرذائل والتحلي بمكارم الأخلاق ، وهذا ما تقضى بـــه الحكمة ويتفق مع الحالة النفسية للناس حينئذ ، فإن رسول الله ﷺ جـــاءهم وقد تأصل الشرك فى نفوسهم وعكفوا على الأصنام وعبدوا الأوثـــان ولم يفقهوا معنى الحياة الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، فالأوفـــق بحـــالهم أن لا يسـن لهم وهم يسبحون فى دياجير الجهل

---

١) انظر : المرجع السابق ذاته ، وأيضاً : مناهل العرفان للزرقانى ج١ ص ١٨٨ ، وقـد ذكر المشايخ أن القرآن المكي استغرق نزوله الفترة التى قضاها ﷺ بمكة وهى اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً من ١٧ رمضان سنة ٤١ من ميلاده ﷺ إلى أول ربيع الأول سنة ٥٤ من ميلاده ﷺ ، وأما الفترة المدنية التى قضاها ﷺ بالمدينة فهي تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من أول ربيع الأول سـنة ٥٤ مـن مـيلاده ﷺ إلى تاسع ذي الحجة سنة ٦٣ من ميلاده عليه الســلام وهى السنة العاشرة للهجرة وما نزل من القرآن في هذه الفترة يقال له : المدنـــي ، ومكـــي القـــرآن = ٣٠ / ١٩ مـــن القرآن ومدنيه ﷺ ٣٠ / ١١ منه ومجمـــوع سور القرآن الكريم ١١٤ سورة منها ٢٩ مدنية و٨٥ مكية . انظر : تـــاريخ التشريع للشيخ الخضري ص ٨ ، تاريخ التشريع الإسلامي للدكتور عبد العظيم شرف الدين ص ٥٢ .

والضلال قوانين للمواريث والبيوع وغيرها ، ولذلك قصد القرآن أول الأمـــر أن يجتث من نفوسهم جذور الشرك ، ويستأصل تلك الشرور والآثـــام التى كانوا منغمسين فى حمأتها ، فذكرهم بالله واليوم الآخر ووصـــف لهـــم يوم الدين ، وبين أهواله وشدائده ، وأفاض فى ذكر الجـــنة والنار، وضرب لهم الأمثال بمن كانوا قبلهم ، وما أصابهم بما كســبت أيـــديهم ، ودعاهم إلى التفكير فى أنفسهم ، وما يحيط بهم ؛ ليهتدوا إن كانوا يعقلون [١]

ولمـــا انتقل النبى ﷺ إلى المدينة كان التنظيم الكامل للمعاملات ، لأنه وجـــدت دولـــة إسلامية فاضلة تنظم العلاقات بين الناس وتقوم على تنفـــيذها والقضـــاء بها ينظم التعامل ، أما الدولة التى كانت قائمة فى مكة فقد كانت دولة شرك ، ومن المستحيل أن تنفذ أحكام الإسلام فى ظلهـــا ، لهـــذا كله سكتت النصوص القرآنية عن تشريع الأحكام فى مكة [٢] .

٢ – آيـــات القرآن المكي على الجملة قصار؛ ليتمكن الرسول والمؤمنون مـــن حفظهـــا ، وهذه الآيات ذات وقع معين فى الأذن والنفس تبعث علـــى الـــرهبة والخشـــية ، وتشعر بمعنى الجلال والجبروت كمعظم الســـور التى تقرؤها في جزء تبارك ، وعم يتساءلون ، فجزء تبارك

---

١) انظر : تاريخ الفقه الإسلامى للشيخ السايس ص ٢٣ – ٢٤

٢) انظر : المعجزة الكبرى للشيخ أبى زهرة ص ٢٥ ويراعى أن المحرمات كتحريم الخمر والميسر كانت ثابتة من أول الإسلام وإن كان سكوتاً عنها ، فلم تكن موضع إباحة ،بل موضع سكوت وعفو حتى نزل التشريع بتحريمها تحريما قاطعاً .

كلـــه مكـــي ، وعدد آياته ٤٣١ آية ، وجزء عم كله مكي وعدد آياته ٥٧٠ آية [١]

٣ – إن صـــيغة الخطاب فى المكي تارة تكون بــ " يا أيها الناس وتارة بــ " يا بنى آدم " وفى المدني يغلب أن تكون بــ " يا أيها الذين آمنوا " ولـــم يـــرد فـــى المدني الخطاب بــ " يا أيها الناس " إلا فى آيات يسيرة [٢]

٤ – كـــل ســـورة جاء فيها لفظ " كلا " فهى مكية وقد ذكر هذا اللفظ فى القـــرآن ثلاثـــاً وثلاثين مرة فى خمس عشرة سورة كلها فى النصف الأخير من القرآن ، والحكمة فى ذلك أن عبارات الزجر والردع إنما تلـــيق بالجبابرة سكان مكة ،أما اليهود سكان المدينة فهم قوم أهل ذلة وضعف يراعى فى خطابهم ما لا يراعى فى خطاب غيرهم [٣] .

٥ – كل سورة فيها سجدة تلاوة فهى مكية إلا الحج فالراجح أنها مدنية .

٦ – كـــل ســـورة فيها ذكر المنافقين مدنية إلا العنكبوت لأن المنافقين لم يكونوا بمكة .

---

٢)انظر : دراسات فى القرآن د :/ الحفناوي ص ٤٦٥ .

٢) انظـــر : تاريخ الفقه الإسلامي للشيخ السايس ص ٢٤ وهذه المواضع المشار إليها ســـبعة: اثنـــتان في البقرة " يا أيها الناس اعبدوا ربكم – يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حـــلالاً " وأربـــع في النساء : أولها : إن يشأ يذهبكم أيها الناس – يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق – يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم " وواحدة في الحجرات " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى .

٣) انظر : المرجع السابق ذاته وأيضاً : دراسات فى القرآن د / الحفناوي ص ٤٦٦

٧ – كـــل سورة فى أولها حروف التهجي فهى مكية سوى سورتي البقرة وآل عمران فهما مدنيتان بالإجماع وفى الرعد خلاف .

٨ – كل سورة فيها قصـــة آدم أو قصص الأنبيـــاء فهى مكية سوى سورة البقرة [١] .

أوائل السور

افتتح الله عز وجل بعض السور بحروف معينة مثل " الر " " حم " " ص" ن " " ق " وغيـــر ذلـــك مما لم يعرف القصد منه ، ويعتبر من الأسرار المحجوبة عنا ، وإن كان من المفسرين من قال : المراد بها الدلالـــة علـــى أسماء الله ، فمثلاً " الر " و " حم " و " ن " تكون فى مجموعها كلمة الرحمن .

وقـــيل : إنهـــا إشارة تنبيه لبدء الكلام ، ويذهب كثير من المفسرين إلى أنها أسماء للسور المبدوءة بها .

ومـــن المشـــايخ من قال : هذه الحروف بقصد تمرين الألسن على نطق الحـــروف نطقـــاً ســـليماً لمن تختلف لهجاتهم فى نطقها حتى ينطقها الجمـــيع على وضع واحد ، يدل لذلك : أنها تنطق عند تلاوة القرآن حروفاً مفردة لا كلمة مركبة كما هو مكتوب [٢]

---

١) انظر : المرجعين السابقين ذاتهما .

٢) انظر : أصول الفقه د / مدكور ص ١٠٣ .

وعـــندي أنهـــا ذكـــرت لإثبات عجز المشركين عن الإتيان بمثل هذا القـــرآن أو ســـورة منه ، مع أنه نزل بلغتهم التي برعوا بها ، والتي تتكون كلماتها من مثل هذه الحروف التي يعلمونها ، وإلا فلو لم يكن لهـــا معنـــى يفهمونه لجادلوا رسول الله ﷺ بأن فى القرآن ما ليس له معنى ، وهو ما لم يحدث [١] .

حفظ القرآن فى الصدور

كـــان جبريل عليه السلام إذا نزل بآية أو سورة على النبى ﷺ وسرى عنه ما كان يجده عند الوحي سارع الرسول إلى القراءة مع جبريل ؛ حرصـــاً مـــنه ﷺ على حفظ ما يوحي إليه خشية أن يفلت منه شئ ، فـــنهاه والله عـــز وجـــل عن هذا التسرع ، وعلمه كيف يتلقى القرآن بقـــوله تعالـــى " ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربى زدني علماً " [٢] ، ووعده جل شأنه بأن يجمعه في قلبه وأن يبين لـــه معانـــيه ، فقـــال سبحانه " لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه " [٣] .

فكـــان النبي ﷺ يستمع لجبريل ، ثم يقرأه عليه ، كما أقرأه ، ثم يبلغه من حضر من أصحابه ثم يستحفظهم إياه فكانوا يتنافسون فى حفظه ، ثـــم يتلون أمام الرسول ﷺ ما حفظوه ليتثبتوا من حفظه على نحو ما ســـمعوا منه – ﷺ – وكان ذلك من أعظم ما يتقربون به إلى ربهم ، وكانـــوا يعلمون من لم يشهدوا النزول من إخوانهم ، وكان النبى ﷺ

---

١) يراعـــى أن هذا القول وغيره من قبيل الظن والتخمين والأولى أن نكل علمها إلى الله مع إيماننا بظاهرها وما أجمل قول أبى بكر الصديق " فى كل كتاب سره وسر الله فى القرآن أوائل السور" .

٢) الآية " ١١٤ " من سورة طه .

٣) الآيات " ١٦ – ١٩ " من سورة القيامة .

يغـــريهم بتعلـــيم القرآن بقوله " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " ولهذا حفظ القرآن الكريم كثير من الصحابة رضوان الله عليهم [١]

وفـــى شهر رمضان من كل عام كان يعرض رسول الله ﷺ ما عنده مـــن القرآن على جبريل عليه السلام ، حيث كان يزل لهذا الغرض ، وفى العام الأخير من حياة الرسول ﷺ عرضه مرتين ، فكان جبريل يقـــرأ أولاً ،ثـــم يـــتلوه الرسول بالقراءة ، ولم ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا والقرآن كله محفوظ فى صدور أصحابه مرتباً غير أنهم لم يكونوا كلهم فى الحفظ سواء ، بل فيهم الحافظ لبعضه ، وفيهم من يحفظه كله ، ومنهم من حضر العرضة الأخيرة التى استقر عليها وضع القرآن الأخير مجرداً مما نسخ منه ومنهم من لم يحضرها [٢] .

تدوين القرآن

لم يكن الرسول ﷺ يكتفي بحفظ القرآن فى صدره وصدور أصحابه ، وإنما كان يدعوا كتاب الوحي – وقد كانوا أشبه بالموظفين المنقطعين لهذه المهمة الجليلة ، أعنى مهمة التدوين فى السفر والإقامة – فيملى علـــيهم ﷺ مـــا ينـــزل به الملك ، ويأمرهم بكتابته مبالغة فى تسجيله وتقيـــيده وزيادة فى التوثق والضبط والاحتياط فى كتاب الله عز وجل ، وكان هؤلاء الكتاب من خيرة الصحابة منهم :

أبـــو بكـــر، وعمر، وعثمان ، وعلى ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مســـعود ، وأبى بن كعب ، وكانوا يكتبون ما يملى عليهم فيما يكتب علـــيه فـــي ذلك الوقت ، وهو عسب النخل واللخاف وعظام الأكتاف

---

١) انظر : أصول الفقه د / أحمد الشافعى ص ٥٠ .

٢) انظر : المدخل فى التعريف بالفقه الإسلامى د / محمد مصطفى شلبى ص ٢٢٩

والأضـــلاع وغيرها من الرقاع ، ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله ﷺ ، ويحفظ في مكان أمين ، إلى أن تم نزول القرآن الكريم [١] .

ويجب التنبيه هنا إلى أن الرسول ﷺ ما توفي إلا والقرآن كله مكتوب عند الصحابة ، وإذا كان لم يكن كله مكتوباً عند بعضهم أو عند واحد مـــنهم بعينه ، إلا أن ذلك لم يكن منفياً عن جميعهم ، فهو مكتوب كله عـــند جميعهم ، وما ينقص عند واحد يكمله ما عند الآخرين ، وهكذا تضـــافروا جمـــيعاً على نقله مكتوباً ، وإن تقاصر بعضهم عن كتابته كمل الآخر وكان الكمال النقلي جماعياً وليس آحادياً [٢]

الحكمة في عدم جمع الرسول للقرآن في مصحف واحد

تكلـــم العلمـــاء عـــن الحكمة في أن الرسول ﷺ توفي دون أن يجمع القرآن في مصحف واحد ، وذكروا لذلك جملة أسباب هي :

[١] أنـــه كان ﷺ ينتظر الوحي حتى آخر لحظة من حياته ، فربما نزل شـــئ أو نسخ منه آيات فيكفي حفظ الصحابة له مرتباً ، والله سبحانه وتعالـــى مـــن وراء ذلك كله متكفل بحفظه من الضياع والتبديل " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " [٣] .

---

١) انظـــر : أصول الفقه للأستاذ / زكي الدين شعبان ص ٣٥ ، نظرات في القرآن للشـــيخ محمد الغزالي ص ٣٥ ويراعى أن العسب هو الأجزاء العريضة من جريد النخل والأكتاف : العظم العريض في كتف البعير واللخاف : الحجارة الرقاق .

٢) انظر : المعجزة الكبرى للشيخ أبي زهرة ص ٢٨ .

٣) انظر : المدخل للدكتور / محمد مصطفى شلبي ص ٢٣٠ .

[٢] أن ذلــك مــن عمــل الله تعالى ، لأن الله العليم الحكيم جعل حفظ القــرآن الكــريم فى الصدور ابتداء وانتهاء وفى السطور احتياطاً ، ولــتكون كتابــته مــن بعد ذلك صحيحة من كل وجوهها لا يعتريها تصــحيف ولا تحريف ، وإن تواتر القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ يكــون كمــا تلقاه عن ربه العليم الحكيم ، والتواتر يكون بالتلقي فى الصــدور لا فــى السطور، ولا يكون تواتر فى مكتوب إلا إذا قريء المكــتوب علــى من أخذ عنه وأجازه ، فالمكتوب يحتاج فى نقله إلى الإجــازة القولــية ، و الإجازة القولية لا تحتاج إلى كتابة إلا بمقدار تسجيل الإجازة [١] .

[٣] أن رســول الله ﷺ لــم يــوجه كــل عنايته لهذا المكتوب لئلا يفهم الصحابة أن المعول عليه في نقل القرآن هو الكتابة فيتراخوا فى حفظه ، والكتابة حينذاك سهلة المحو والتبديل ، فترك ذلك ليستقر فى نفوسهم أن المعول عليه أولاً هو الحفظ والنقل بطريق القراءة ، وإنما أمر بكتابته ليكون تذكرة للقراء وليكون له سندان : الحفظ والكتابة [٢] .

جمع القرآن

عــندما آثــر رســول الله ﷺ أن يذهب إلى الرفيق الأعلى ترك الدنيا بعــدما أدى رسالته أنجح أداء ، تركها بعدما استقر الوحي في صدور الرجال وبطون الكتب ، واندلحت الدائرة التي يتلى فيها القرآن الكريم ؛ حتــى بلغت ألف ميل ، من أقصى اليمن إلى أطراف الشام ، ومن

---

١) انظر : المعجزة الكبرى للشيخ أبى زهرة ص ٢٩ .

٢) انظر : المدخل للدكتور / محمد مصطفى شلبى ص ٢٣٠ .

الخلــيج العربـــي إلى شواطئ البحر الأحمر ...والغريب أن معلمي القرآن وصلوا حداً من الكثرة يستحق التأمل خصوصاً فى هذه الفترة المكافحـــة العصـــيبة ، انظـــر كيف قتل سبعون قارئاً فى معركة بئر معـــونة ! ومـــع هذه الخسارة الفادحة فإن معلمي القرآن فى صحراء الجزيـــرة لم تقع بينهم أزمة ، بل ظلت وفودهم تتساب هنا وهناك من غير انقطاع .

وقـــد ذكـــرنا أن القـــرآن نـــزل كله وكتب كله وحفظ كله على عهد الرســـول ﷺ فلما استخلف أبو بكر وتولى شئون المسلمين عنّ لأولي الأمـــر أن يجمعوا الوثائق التى سجلت فيها آيات الكتاب العزيز، وأن يضـــموا بعضـــها إلـــى بعض ليكون من هذه الأصول المكتوبة بأمر رسول الله ﷺ مصحف واحد تحفظه " الدولة " لديها ، وهو وإن أودع خـــزائنها لعدم الحاجة إليه فى الحاضر، لأن القراء كثرة مستفيضة ، وروايـــة القرآن بالتلقي العام منتشرة بين المسلمين إلا أن المستقبل قد يتطلبه [١] .

سبب جمع القرآن

تذكـــر الروايات أن السبب المباشر فى جمع القرآن هو استشهاد عدد كبيـــر مـــن القراء والحافظين لكتاب الله فى موقعة اليمامة سنة ١٢٢ هـــ التى نشبت بين المسلمين وأهل الردة أتباع مسيلمة الكذاب ، وقد قـــدر بعـــض العلمـــاء عدد القراء الذين استشهدوا يومذاك بخمسمائة قارئ ، فأشار عمر بن الخطاب على أبى بكر رضى الله عنهما بجمع القرآن فى المصحف خشية أن يذهب منه شئ بموت القراء قال عمر

---

١) انظر : نظرات فى القرآن للشيخ محمد الغزالى ص ٣٦ – ٣٩.

: إن أصحاب رسول الله ﷺ يتهافتون على القتال تهافت الفراش على النـار، وإني أخشى أن لا يشهدوا موطناً إلا فعلوا ذلك حتى يقتلوا ، وهـم حملـة القرآن فيضيع الأمر وينسى ، ولو جمعته فى مصحف لكان خيراً ومصلحة للمسلمين، فتردد أبو بكر أول الأمر وقال : كيف أفعـل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فتراجعا فى ذلك حتى شرح الله صـدر أبـى بكر لهذا العمل فأرسل إلى زيد بن ثابت وقال له : إنك شـاب عاقـل لا نـتهمك ، كـنت تكتب القرآن لرسول الله ﷺ وقد حضرت العرضة الأخيرة فتتبع القرآن واجمعه [١] .

ثـم جمـع أبو بكر الحفظة المشهود لهم بالإتقان ، وفيهم على بن أبى طالـب وأبـى بن كعب وعثمان بن عفان ، وأمرهم بمعاونة زيد فى جمـع القـرآن ، فأخـذوا يوالون الاجتماع ، وأحضروا كل ما كتب بإملاء النبى ﷺ ، ثم أخذوا يقرءون ويقابلون بين ما يقرءون وبين ما يجدونـه مكـتوباً إلـى أن كتبوا القرآن على الترتيب والضبط اللذين تلقوهما عن رسول الله ﷺ .

كيفية الجمع

قـام زيد بجمع القرآن من الرقاع المكتوبة ومن صدور الرجال ، ولم يكتف بواحد منهما عن الآخر؛ زيادة فى التوثيق ومبالغة فى الاحتياط ، يدل لذلك :

---

١) هذه العبارة تبين سبب اختيار زيد لهذه المهمة الشاقة ، ولأنه حفظ القرآن كله فى حياة الرسول ﷺ انظر : المدخل للدكتور / محمد مصطفى شلبى ص ٢٣٠ .

مـــا روى أن أبا بكر قال لعمر وزيد : اقعدا على باب المسجد ، فمن جاء كما يشاهده على شئ من كتاب الله فاكتباه " (١) .

فوائد هذا الجمع

لهذا الجمع فوائد كثيرة يكفينا منها :

[١] أنـــه بحـــث عـــن الرقاع وتثبت منها ، وجمع لها فى مكان واحد كالأصل الذى يرجع إليه ، حتى يستتب الأمر ويؤمن الضياع .

[٢] تجديـــد ماعساه أن يكون قد تآكل من حروف الرقاع التى ليس من شأنها أن تحتفظ بما يرسم عليها من الحروف مدة طويلة .

[٣] اتصال السند الكتابي بأخذ الصحف البكرية من الصحف التى كانت بـــين يـــدي رســـول الله ﷺ ، كمـــا اتصل السند المتواتر فى الرواية والتلقـــي عن الشيوخ فيكون القرآن متواتراً حفظاً وكتابة ، وهذا من توفـــيق الله للمؤمنين إذ به حفظ القرآن ، وصدق الله " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " (٢).

---

١) يقـــول ابـــن حجر : المراد بالشاهدين : الحفظ والكتابة – وقال السخاوى : إنهما يشـــهدان علـــى أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ ، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التى نزل بها القرآن فكان زيد لا يكتب شيئاً إلا إذا شهد به عدلان ولذلك لما لم يجد آخر سورة براءة مكتوبة إلا عند أبى خزيمة بـــن ثابت مع أنه كان يحفظها هو وكثير من الصحابة يحفظونها قال : اكتبوها ؛ فـــإن رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين . انظر : الإتقان للسيوطى ج١ ص ٥٨.

٢) انظر : المدخل للشيخ / محمد مصطفى شلبى ص ٢٣١ .

مصير المصحف المجموع

بعـــد أن تـــم الجمع وضعت هذه الصحف مرتبة عند أبى بكر ، فلما توفـــى وضـــعت عند عمر بن الخطاب ، وبعده وضعت عند ابنته أم المؤمنـــين حفصة بوصية من عمر، وظلت عندها إلى أن توفيت سنة ٤٥ هـــ فأخذها عبد الله بن عمر ، وبقيت عنده ، حتى أخذها مروان بـــن الحكـــم والى المدينة من قبل معاوية بن أبى سفيان ، ومحاها ، وقـــال مدافعاً عن وجهة نظره : إنما فعلت هذا ؛ لأن ما فيها قد كتب وحفـــظ بالمصحف الإمام – يقصد مصحف عثمان الذى سنتكلم عنه بعـــد قلـــيل – فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب فى شأن هذا المصحف مرتاب [١] .

المصحف العثماني

بقيت الصحف المجموعة فى مستودعها العتيد لا يحتاج إليها أحد ، أو لا يشـــعر بهـــا ، فـــإن القـــراء يـــتلون كـــتاب الله عن ظهر قلب ، ويتدارســـونه فـــى بيوتهم ومحافلهم وأسواقهم ومجامعهم دون ريبة ، واطرد سير القرآن مع امتداد الدولة الإسلامية، فما يفتح بلد جديد إلا عمَّـــره بالقـــرآن أهـــل القرآن ، وكان للجيوش الإسلامية فى جبهتي

---

١) انظر : أصول الفقه الإسلامى د / زكى الدين شعبان ص ٣٧ .

فارس والروم دوى بالقرآن كدوي النحل فى خلاياها ، ولم يكن هناك علم آخر يشارك القرآن جزءاً من الوقت [١] .

وفى زمن عثمان بن عفان وجد ما اقتضى كتابة المصاحف وإرسالها إلى الأمصار الإسلامية الموجودة فى ذلك الوقت ، وأمرهم بالاقتصار على ما جاء فيها وتحريق ما عداها من الصحف ؛ ليجتمع المسلمون علـــى مصـــحف واحد ، وحتى لا يقع فى القرآن زيادة ولا نقص ولا تبديل فى آياته ، ولا تغيير فى ترتيبه [٢].

السبب فى نسخ المصحف العثماني

تذكـــر الـــروايات أن أهـــل العراق والشام حين اجتمعوا لفتح أرمينية وأذربـــيجان تنازعوا فى القراءة واشتد النزاع بينهم ، وكان أهل الشام يقـــرءون قـــراءة أبـــى بن كعب ، وأهل العراق يقرءون بقراءة ابن مســـعود ، وأبـــى موسى الأشعري ، ورمى بعضهم بعضاً بالخطأ ،

---

١) انظـــر : نظرات فى القرآن للشيخ محمد الغزالى ص ٤١ وفى ص ٤٢ قال : لا نعرف كتاباً فى التاريخ لقي هذه الحفاوة ، أو وجد ذلك الإقبال ، وقد كانت سور القـــتال تتلى أحياناً فى نشيد جماعي ، تهدر به الكتائب الغازية ، كما نرى هتاف الجمـــوع فـــى عصرنا بالنشيد القومي مثلاً إبان فترات الحماس أ .هـــ . وقال الشـــيخ أبـــو زهرة فى المعجزة الكبرى ص ٣٤ : وما تم هذا – يعنى التواتر – بالكتابة والحفظ لكتاب فى الوجود غير القرآن ، ولا يهمنا أن يقر ذلك المعاندون أم لا يقروه ، فذلك إيماننا والحجة القاطعة لا يضيرها ارتياب فى غير موضعه ، بـــل الحقائـــق ناصعة والبينات قائمة ثابتة وهى فى حكم البدهيات القاطعة ومن يـــرتاب فـــى أمر عقلي لا ريب فيه فهو يضل نفسه ولا يضر غيره والحق أبلج والباطل لجلج أ . هـــ .

٢) انظر : أصول الفقه للأستاذ / زكى الدين شعبان ص ٣٧ .

فـــرأى حذيفة بن اليمان وهو من كبار الصحابة ذلك ، ففزع ، ورفع الأمـــر للخلـــيفة قائلاً له : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصـــارى . قال : فبماذا ؟ قال : فى كتاب الله تعالى ، وقص عليه الخبـــر ، فجمع عثمان الصحابة ، وشاورهم فى الأمر ، فقالوا له : ماذا تـــرى ؟ قال : أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد ، ويحرق ما عـــداه ، فوافقـــوه على ذلك ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير ، وســـعيد بـــن العـــاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بكتابة القـــرآن ، وقـــال للقرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم وزيد فى شئ فاكتبوه بلغـــة قـــريش ، فإنـــه إنما نزل بلسانهم ، فلم يختلفوا فى شئ إلا فى "الـــتابوت " فقال زيد : بالهاء ، وقالوا : بالتاء ، فعرضوا الأمر على عـــثمان ، فأمـــرهم بكتابـــته بالتاء ، ولما انتهوا من الكتابة نسخ عدة مصـــاحف وأرسلها إلى الأمصار ، وأمر الناس بحرق ما عندهم من المصاحف التى تخالفها ، كما ألزمهم بالقراءة بما يوافقها [١]

وســـبب ذلـــك أن بعـــض الصـــحابة كـــان قد كتب لنفسه نسخة من المصـــحف ولم يلتزم فى كتابتها توالي السور وترتيبها وفق الترتيب التوقيفـــي ، وذلـــك لأن أحدهم كان إذا كتب سورة ، أو بعض آيات أنـــزلت على رسول الله ، ثم خرج فى سرية مثلاً فنزلت وقت غيابه سورة فإنه كان إذا رجع يأخذ فى حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته ، ثـــم يستدرك ما كان قد فاته فى غيابه ، فيجمعه ، ويتتبعه على حسب ما يسهل عليه ، فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير بسبب ذلك ، وكان منهم مـــن كـــتب بعـــض المنســـوخ ، ومـــنهم من كتب مع الآيات بعض التفسيرات والتأويلات التى سمعوها من رسول الله ﷺ كما كان بعض

---

١) انظر : المدخل للشيخ / محمد مصطفى شلبى ص ٢٣٢ .

هـذه المصـاحف غير مشتمل على القرآن كله ، فكان فى بعضها ما لـيس فى البعض الآخر، ومن ثم وقع الاختلاف فى القراءة بين أهل الأمصـار المخـتلفة ؛ مما دفع عثمان إلى جمع الناس على مصحف واحد ، وأحرق ما عداه (١) .

" تنبيه "

القرآن كما يعرفه علماؤه نزل بوجوه عدة ، قرأ بها الرسول ﷺ وأقرأ بها غيره ، ويسر على المسلمين تلاوة ما يؤثرون منها ، فهى جميعاً سـواء ودلالتها على الوحي الأعلى ، كدلالة ليث وأسد على الحقيقة المعـروفة ، نعـم ! فإن آية " إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا " يصح أن تتلـى " إن جاءكم فاسق بنبأ فتثبتوا " كلتاهما سواء ، وليست إحداهما بأكثر من الأخرى في شئ (٢) .

وقـد أجيز في أول نزول القرآن أن يقرأ على لغات سبع من لهجات العـرب كلهـا " يمنيها ونزارها " ؛ لأن رسول الله ﷺ لم يجهل شيئاً مـنها ، ولذلك فقد روى البخاري " أن القرآن أنزل على سبعة أحرف نسـخت ست وبقيت واحدة " وروى الترمذى عن أبى بن كعب قال : لقـي رسـول الله ﷺ جبريل فقال : يا جبريل ! إني بعثت لأمة أمية مـنها العجـوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ كتاباً قط : فقال لي : يا محمد ! إن القرآن أنزل على سبعة أحرف " فالعرب ما كانت تطاوع ألسنتهم حرف القرآن ، ففيهم الشيخ والعجوز اللـذان جمـد لسـانهما علـى لهجتهما ، فلا يطاوعهما على النطق الصحيح بلهجة لم يعرفوها ، ولم يلوكوها من قبل فكان لابد أن تمرن

---

١) انظر : أصول الفقه أ / زكى الدين شعبان ص ٣٨ .

٢) انظر : نظرات فى القرآن للشيخ محمد الغزالى ص ٤٢ .

ألسنتهم أمداً على لغة القرآن ،حتى تلين وتألف النطق بكلماته على اللغة التي بقيت (١) .

الأحرف السبع

اختلف العلماء فى تفسير المراد من الأحرف السبعة التى أنزل بها القرآن كما فى الحديث السابق .

وأولى الآراء فى ذلك (٢) هو تفسيرها باللهجات أو لغات العرب ما بين مضرية ، وربعية ، ونزارية ، وقرشية وغيرها ، وهو التفسير الذى اختاره ابن جرير الطبرى وكثيرون من الرواة وهو الذى يتفق مع النسق التاريخي فى الجمع الذى اضطر ذا النورين عثمان بن

---

١) انظر : المعجزة الكبرى للشيخ أبى زهرة ص ٣٥ .

٢) اختلف العلماء اختلافاً كثيراً في المراد بهذه الأحرف : فقيل : إنها المعاني السبعة التى تدور عليها آيات القرآن ، وهى السبع المثاني فى رأى بعضهم : الأمر والنهى والوعد والوعيد والإباحة والإرشاد والاعتبار وقيل : هى طرق الأداء السبعة التى هى الإدغام والإظهار والتفخيم والترقيق وغيرها وقيل : غير ذلك . قال الشيخ السايس : وأمثل الأقوال أنها سبع لغات أو لهجات من لغات العرب ولهجاتهم كانت أشهر لغاتهم وأكثرها شيوعاً وأعذبها لفظاً ، وهى لغة قريش وهذيل وتميم والأزد وربيعه وهوازن وسعد بن بكر، وقد صحح هذا القول البيهقى واختاره ابن عطية . وقال به من أهل اللغة : ثعلب وأبو عبيد والأزهري وليس المراد أن كل كلمة من القرآن تقرأ بهذه اللغات جميعها ، بل معنى نزوله عليها أنه لا يخرج عنها ، فالكلمة إما أن تكون بلغة قريش وكثيراً ما تكون كذلك وإما أن تكون بلغة قبيلة أخرى ؛ لأنها أعذب وأفصح مما عند قريش أ . هـ . انظر تاريخ الفقه الإسلامى ص ٢٠ – ٢١ .

عفـــان رضى الله عنه ؛ لأن يقوم به وارتضاه الصحابة ، وهذا النسق التاريخي يوجب أن يكون حرف واحد قد بقى ، وهو لغة قريش [١] .

هل خالف عثمان المصحف المحفوظ عند حفصة ؟

بالقطـــع لا ، والـــذى كـــتب فى عصر النبى ﷺ لم يعتره تغيير، ولم يخالـــف مـــا علـــيه مصـــحف حفصة أم المؤمنين عندما قابله ، لأن الحـــروف السبعة كانت فى قراءة القرآن لا فى كتابته ، ولأن استئذان النبـــى ﷺ كـــان فى القراءة ، لا فى الكتابة ؛ حتى يسهل على أمته ، حتى تلين ألسنتهم ويستقيم على النطق باللغة التى اختارها الله تعالى لقرآنه المنزل من عنده ، وهو العليم وهى لغة قريش فى جل ما أنزل الله تعالت كلماته .

هل القراءات فى القرآن هى الأحرف السبعة ؟

تســـمع القراء يقرءون القرآن بقراءات مختلفة تختلف عن بعضها فى النطق ، إما فى المد وعدمه " كمالك يوم الدين " و " ملك يوم الدين " وإمـــا في شكل بعض الحروف نحو " فناداها مَن تحتها " و " فناداها مِن تحتها " .

و" كـــل ذلـــك كان سيئه عند ربك مكروها " و " كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهاً " .

---

١) انظر : المرجع السابق ذاته .

وإما في حركات أواخر الكلمات ، أو في بناء الكلمة ، أو في الوقوف فـــي أواخـــر الكلمات أو فى الهمزات قطعاً ووصلاً كهمزة الأرض ، فهي تقرأ موصولة ومقطوعة ، وهكذا .

والقرآن بقراءاته متلقى عن رسول الله ﷺ كما تلقاه بدوره عن جبريل الأمين عليه السلام وبلغه الرسول ﷺ إلى العرب مع اختلاف لهجاتهم وكـــان من تيسير الله عليهم أن أذن لهم بقراءته كل بما ألفه من لغته ونطقه [١] .

وعلـــى ذلـــك ! فهـــذه القراءات تنتهي فى نهايتها إلى أنها من ترتيل القرآن الذى رتله الله سبحانه وتعالى وتفضل بنسبته إلى ذاته الكريمة العلية ، فقال " ورتلناه ترتيلاً " .

فهـــى الأصـــوات التى أثرت عن النبى ﷺ في مدها وغنها وإهمازها وإهمـــال همزاتها وإمالتها وإقامتها ، أى أصوات القرآن المأثورة عن رسول الله ﷺ [٢].

والخلاصة أن قراءات القرآن المتواترة ليست هى الأحرف السبعة .

والصـــواب أن هـــذه القراءات جميعها تنتهى إلى حرف واحد ، هو الذى كتب به المصحف المحفوظ عند أم المؤمنين حفصة ، وهو الذى جمعه عثمان بن عفان رضى الله عنه [٣]

---

١) اشتهر من القراء بعد عصر الصحابة سبعة : هم : نافع بن أبى نعيم وعبد الله بن كثيـــر وأبـــو عمـــر بن العلاء المازنى وعبد الله بن عامر وأبو بكر عامر بن أبى النجود وحمزة بن حبيب وأبو الحسن على بن حمزة الكسائى انظر : المدخل للشيخ / محمد مصطفى شلبى ص ٢٣٥ .

٢) انظر : المعجزة الكبرى للشيخ أبى زهرة ص ٤٨ .

٣) انظر : المرجع السابق ذاته ص ٤٧ .

الفرق بين جمع القرآن فى عهوده الثلاثة

أعني عهد النبى ﷺ وعهد أبى بكر وعهد عثمان رضى الله عنهما :

الجمـــع فى عهد النبى ﷺ : كان عبارة عن كتابة الآيات وترتيبها ووضـــعها فـــى مكانها الخاص من سورها ، ولكن مع بعثرة الكتابة وتفريقها بين عسب ، وعظام ، وحجارة ، ورقاع ونحو ذلك ؛ حسبما تتيسر أدوات الكتابة .

وكان الغرض من هذا الجمع زيادة التوثق للقرآن ، وإن كان التعويل إبانئذ كان على الحفظ والاستظهار .

الجمع فى عهد أبى بكر : كان عبارة عن نقل القرآن وكتابته فى صـــحف مـــرتبة الآيـــات أيضاً مقتصراً فيه على ما لم تنسخ تلاوته مستوثقاً له بالتواتر والإجماع .

وكـــان الغـــرض منه تسجيل القرآن وتقييده بالكتابة مجموعاً مرتباً ؛ خشية ذهاب شئ منه بموت حملته وحفاظه .

الجمع فى عهد عثمان : كان عبارة عن نقل ما فى تلك الصحف فى مصـــحف واحـــد إمـــام واستنســـاخ مصاحف منه ترسل إلى الآفاق الإســـلامية ، ملاحظـــاً فـــيها تلك المزايا السالف ذكرها ، مع ترتيب ســـوره وآياتـــه جميعاً ، وكان الغرض منه إطفاء الفتنة التى اشتعلت

بـين المسـلمين حين اختلفوا فى قراءة القرآن وجمع شملهم وتوحيد كلمتهم والمحافظة على كتاب الله من التغيير والتبديل [١] .

نقط المصحف وشكله

كـان العـرب بسـليقتهم فى غنى عن النقط والشكل لتمييز الحروف ومعـرفة رسـمها ، ولأن اعتمادهم فى قراءة القرآن على التلقى من الحفظة ، فهم يقرءون بقراءتهم ، وحسبما تلقوا عنهم ، لكن لما دخل غيـر العـرب من الفرس والروم وغيرهم فى الإسلام ، ونشأ اللحن علـى الألسنة وتشابهت أوضاع الحروف عليهم خيف على القرآن أن يلحن فى قراءته .

فأمـر زياد بن أبيه ، وكان أمير العراق فى زمن بنى أمية أبا الأسود الدؤلـى المتوفـى ٦٩ هـ وهو من كبار التابعين المتقنين للقراءة أن يضـع للـناس علامـات تضبط قراءتهم ، فشكل أواخر الكلمات من المصـحف الشـريف ، ولكن طريقته لم تحفظ الألسنة من الخطأ كل الحفـظ ، فـدعا ذلـك إلـى نقـط الحروف وشكل أوائل الكلمات ، وأواسطها ، وأواخرها .

وقـد قـام بـنقط الحروف نصر بن عاصم الليثى من فقهاء التابعين المتوفـى سـنة ٨٩ هـ ، وقـام بشـكل أوائل الكلمات وأواسطها

---

[١]) انظـر : نظرات فى القرآن للشيخ محمد الغزالى ص ٤٣ – ٤٤ نقلاً عن الشيخ الزرقانى .

وأواخـــرها الخليل بن أحمد الفراهيدى من أئمة اللغة والأدب وأستاذ سيبويه المتوفى ١٧٠ هـ[١]

حكم كتابة القرآن مع تغيير الخط العثماني

مـــع أن قواعد الإملاء والهجاء التي روعيت في كتابة المصاحف في زمن عثمان مخالفة لما وصل إليه نظام الإملاء والخط الآن إلا أنه لا يجـــوز تغييـــره ، حتـــى لا يكون ذريعة للتحريف في القرآن ، لأن الخطوط مختلفة في رسومها وباب التغيير والتجديد فيها مفتوح ، فلو أبـــيح كـــتابة القرآن بغير الخط العثماني لاختلفت خطوط المصاحف وحينـــئذ يســـهل التحـــريف فيها ، وقد سئل الإمام مالك : هل يكتب

---

١) انظـــر : أصول الفقه للأستاذ / زكى الدين شعبان ص ٤٠ – ٤١. ويراعى أن المصحف الذى كتبه عثمان كان غير منقوط ولا مشكول ، وكان خالياً من أسماء الســـور والفواصل بين الآيات ... وكانت طريقة الكتابة أن اللفظ الذى لا تختلف فـــيه وجـــوه القراءات كانوا يكتبونه بصورة واحدة ، أما الذى تختلف فيه وجوه القـــراءات فإن كان لا يمكن كتابته بصورة واحدة تحتمل تلك الوجوه كلها فإنهم يكتـــبونه بصورة توافق بعض الوجوه فى مصحف ، ثم يكتبونه بصورة أخرى توافق بعض الوجوه الأخرى فى مصحف آخر ، وذلك بقراءة " وصَّى " بتشديد الصـــاد وقراءة " أوصى " بالهمزة ، وهما قراءتان فى قوله تعالى " ووصى بها إبـــراهيم بنـــيه ويعقوب " ومثال اللفظ الذى تختلف فيه القراءات ويمكن أن تدل الكتابة بصورة واحدة تحتمل هذا الاختلاف عند تجردها من النقط والشكل والذى كانوا يكتبونه بصورة واحدة فمثاله " تبينوا " فى قوله جل شأنه " إنْ جاءكم فاسق بنـــبأ فتبينوا " فإنها تصلح عند تجردها من النقط والشكل أن تقرأ هكذا كما تقرأ " فتثبتوا " وهما قراءتان صحيحتان سمعتا من رسول الله ﷺ أ . هـــ بتصرف من ص ٣٩ د / زكى الدين شعبان .

المصـــحف علـــى ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا . إلا على الكتبة الأولى)[١]

---

١) انظر : المرجع السابق ذاته ص ٤٠ ويجدر التنبيه هنا إلى أن بعض المشايخ قد رأى هـــذا الحكـــم بشـــأن كـــتابة المصـــحف بالكامل أو جزء منه على أنه جزء المصـــحف ، أمـــا كتابة آية أو آيات على مثل السبورة في المدارس تعليماً للطلاب فلا بأس من كتابتها لهم على وفق نظام الإملاء المعروف لنا الآن . يراجع فى هذا : فـــتاوى معاصرة للشيخ القرضاوي ج٢ص١٨ . **قلت** : إن المحافظة على الخط العثماني لها أهمية بالغة في تعميق الصلة الروحية بين القارئ فى هذا الزمان وبين القارئ الأول ﷺ لشعور القارئ أنه يقرأ القرآن بذات الشكل والهيئة التى كان يقرأ بها ﷺ فضلاً عن طريقة الأداء .

حجية القرآن

أجمعت الأمة على أن القرآن هو الحجة الأولى لأحكام الدين ، وأن العمل بما فيه واجب ، ولا يجوز أن نلجأ أول ما نلجأ إلا إليه ؛ لنلتمس منه الأحكام لما يعرض لنا من حوادث ، ولا نقصد إلى غيره إلا إذا لم نجد فيه الحكم الذي نحتاج إليه [(١)]

والبرهان على أن القرآن حجة على الناس ، وأن أحكامه قانون واجب عليهم اتباعه أنه من عند الله ، وأنه نقل إليهم عن الله بطريق قطعي لا ريب في صحته ، وأنه بُلِّغ إلينا عن طريق محمد بن عبد الله النبي الذي ثبتت نبوته ثبوتاً لا مجال للشك فيه .

وقد منَّ الله تعالى على شخصي الضعيف بكتابة بحث حول الثقة في نبوة سيد البشر محمد ﷺ .

وهذا البحث صغير الحجم ، لكنه جليل الهدف ، وأرجو أن أكون قد وفقت فيه في الانتصار لهذا الإنسان الكامل ، وإنصافه من بغي الباغين ، الذين لا يقدرون حجم المنة التي طوّق النبي محمد ﷺ بها عنق البشر أجمعين ، وقد أثبتُّ بما لا يدع مجالاً للريبة في هذا البحث أن القرآن كلام الله حقاً وصدقاً ، مما ترتب عليه الجزم بصدق نبوته ﷺ ، وها أنذا أقدم لك عزيزي القارئ هذا البحث ، سائلاً الله تعالى أن يجمعنا بسببه مع سيد الدعاة وإمام الأنبياء محمد ﷺ في الفردوس الأعلى . آمين .

---

1) انظر : أصول الفقه د / أحمد الشافعي ص ٥٥ .

الثقة برسول الله ﷺ .. كيف ولماذا ؟

الـــثقة برسول الله ﷺ تعني أن يطمئن قلب الإنسان اطمئناناً يقينياً إلى أن محمـــداً بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف المولود بمكة المكـــرمة ســـنة ٥٧١ م رسول من عند الله عز وجل ، وأنه لا ينطق عن الهوى فيما يقول أو يفعل ، وإنما هو وحي أوحاه الحق سبحانه وتعالى إليه فينتج عن هذا الاطمئنان :

* قيام الإنسان بالامتثال لكل ما أمر به بتنفيذه ، ولكل ما نهى عنه بتجنبه والابتعاد عنه ؛ على اعتبار أنه ناقل لأوامر الله تبارك وتعالى .

* تصـــديقه في كل ما أخبر عنه من الأمور الأخروية التي ستقع في اليوم الآخـــر بعد انفضاض سوق الحياة الدنيا ، والاطمئنان إلى حصول كل ما أخبر بحصوله في مستقبل الحياة البشرية ، حتى ولو كانت الظواهر المادية في العصر الذي تعيش فيه لا تشهد بإمكان هذا الحصول .

* محبته ، وتعظيمه ، وتوقيره ، ومناصرته ، والدفاع عنه ، ضد أي معتد أو قادح أو مشكك .

* إذا لـــم تســـتطع فهـــم شيء مما صح عنه فعليك أن تتهم نفسك بالعجز والقصـــور ، وأمـــا ما قاله محمد بن عبد الله أو فعله فهو الكمال البشري المعصـــوم ، إذ يســـتحيل أن يرسل الله رسولاً ، ثم يتركه يهذي بكلام لا معنى له ، أو يأذن له في فعل شيء من المنكرات أو الانحرافات .

والسؤال الآن !

هل أنت واثق من أن محمداً بن عبد الله رسول من عند الله حقاً وصدقاً ؟ أم أنـــه لا يعـــدو أن يكون رجلاً عادياً ، ليس ثمة صلة بينه وبين الوحي الإلهـــي ، لكـــنه امـــتلك قدرات إنسانية متميزة ، مكنته من السيطرة على مجمـــوعة كبيـــرة من البشر ممن عاصروه ، فاتبعوه ، ودافعوا عنه ، ثم حاكـــاهم فـــي هـــذا الصنيع أقوام كثيرون ممن جاءوا بعدهم في العصور اللاحقـــة لهم ؟ دون أن يكون لدى هؤلاء الأتباع من الأولين أو اللاحقين سند في صنيعهم هذا إلا التقليد العاري عن الحجة أو الدليل ؟

تعالوا لنتفق !

قبل أن أعرض لك ــ أخي الإنسان ــ أدلة الإثبات العقلية والشرعية على صدق محمد بن عبد الله في دعواه النبوة ، أسوق لك جملة من الأسئلة التي يعظم نفعها في هذا المقام :

السؤال الأول :

هل العلم البشري وحده يكفي لإصلاح أنفس الناس ؟ على معنى أن البشر ليسوا في حاجة إلى وحي إلهي .

والجـــواب : أن الحس والعيان قد أثبت أن العلم البشري وحده لا يصلح أنفس الناس ؛ لأنهم لا يخالفون أهواءهم وشهواتهم الشخصية والقومية إلى اتـــباع آراء أفراد منهم ، وإنما يدينون بوازع الفطرة لما هو فوق معارفهم

البشرية ، وهو ما يأتيهم من ربهم ، عن طريق الوحي لواحد من البشر ، تكون مهمته تبليغ الوحي لبقية البشر .

السؤال الثاني :

هل يمكن أن يتنزل الوحي الإلهي على واحد من البشر ؟ أم أنه لا يمكن حصول ذلك ؟

والجـواب المـتفق علـيه بين أتباع جميع الديانات أن هذا أمر ممكن ولا اسـتحالة فيه ، أما هؤلاء الذين ينكرون إمكان تنزل الوحي على واحد من البشـر فلا كلام لنا معهم ؛ لأنهم لا يشكون في نبوة محمد بن عبد الله ﷺ وحده ، وإنما هم ينكرون نبوة موسى وعيسى عليهما السلام وجميع الأنبياء والمرسلين .

نخلص من ذلك إلى أنه لا مانع من وجود بشر ينزل عليه الوحي الإلهي .

السؤال الثالث :

هـل إرادة الإله مطلقة في اختيار هذا البشر الذي تخصه بتنزيل الوحي علـيه ؟ أم أن على هذه الإرادة قيود في تحديد هذا البشر؟ كأن يكون من جنس معين ، أو من بلد معينة ، أو غير ذلك .

والجواب المتفق عليه أيضاً بين أتباع الديانات هو أن إرادة الإله مطلقة في اختيار من يشاء لهذا الشرف وتلك الكرامة ؛ لأنه لو كان هناك سلطة تستطيع إجبار الإله على اختيار إنسان معين للوحي لكانت هذه السلطة هي الإله ، ولا يُتصوَّر إله يُجْبَر على فعل شيء لا يرضاه .

السؤال الرابع :

هل هناك مانع عقلي من أن يكون هذا الشخص المختار للنبوة هو محمد بن عبد الله ؟

والجـواب أيضـاً أنه ليس ثمة مانع عقلي أو شرعي يمنع من ذلك ؛ لأن محمـداً بن عبد الله على كل حال واحد من مخلوقات الله الذين قررنا في إجابة السؤال السابق أنه لا قيد على إرادة الإله في اختيار من يشاء لتكليفه بتبليغ الرسالة للبشر .

السؤال الخامس :

هـل هـناك شك في أن هناك رجلاً اسمه محمد بن عبد الله ولد في القرن السادس الميلادي ، ثم أعلن في القرن السابع أنه نبي مرسل من الله للبشر؟

والجواب أن البشـر قاطبة ــ مسلمين وغير مسلمين ــ يجزمون بوجود هذا الرجل ، وأنه قال : إنه نبي مرسل من الله تعالى .

بيد أنهم اختلفوا بعد ذلك إلى فريقين :

الفريق الأول : آمن به وصدقه .

والفريق الثاني : أنكر ذلك وكذبه .

أخي الإنسان !

إذا أقمتُ لك الدليل الدامغ على صدق محمد بن عبد الله في دعواه النبوة ، فهل تؤمن به ؟ أرجو لك ذلك ؛ إبراء لذمتي ، ووفاء بحقّ أخوتك الإنسانية لي ، فهيا بنا ــ أخي ــ والله يرزقني وإياك الهداية والرشاد .

لا نبوة بغير دليل !

لا يقــبل العقلاء من أي إنسان أن يخرج عليهم لكي يقول لهم : أنا نبي إلا إذا طلــبوا منه دليلاً على صدقه في هذه الدعوى ، وإلا كان من حق كل إنســان أن يدعي ذلك ، وعلى البشر أن يوافقوه على هذا ، مع ما يترتب عليه من وجوب اتباعه وتعظيمه وتوقيره ومناصرته والدفاع عنه .

ولذلك فقد جرت السنة الإلهية بتأييد الأشخاص المختارين للنبوة بدليل يشهد لهــم بالصدق في دعواهم ، ويجب أن يكون هذا الدليل من القوة ، بحيث يقيم الحجة على البشر بصدق هذا المدعي للنبوة ، مما يعني أنه لا يستقيم منهم بعد ظهور هذا الدليل أن يكذبوه .

الأنبياء . . والمعجزات

المعجــزة : أمر خارق للعادة ، يظهره الله تعالى على يد مدعي النبوة تأييداً لدعواه .

ذلك أن هذا الكون يسير وفقاً لقوانين ثابتة لا تتبدل ولا تتغير منذ أن خلق وإلــى يوم القيامة ، فإذا ما ادعى إنسان النبوة ، ثم استدل على دعواه بأن ســنة من سنن الكون وقانوناً من قوانينه سيتبدل ويتغير تأييداً له ، وحدث ذلــك بالفعــل ، فلا سبيل أمام البشر المنصفين إلا التسليم له بالصدق في دعــواه ؛ لأنه يدعي أنه مرسل من الله ، والله تعالى هو المهيمن على هذا الكــون ، فلا يقدر على خرق العادات المستقرة فيه سواه ، فإذا ما بدل له قانوناً من قوانين هذا الكون ، دل هذا على أن الله تعالى يصدق هذا النبي في دعواه النبوة .

ومن هنا !

صــدَّق البشــر بنبوة إبراهيم عليه السلام ؛ لأنه لما ألقي في النار خرج منها سالما ، ولم يصب بأي أذى أو سوء ، مع أن شأن النار المعتاد أن تحــرق أي جســد يلقــى فيها ، فما دامت هذه العادة قد تغيرت تأييدا لإبراهيم دلنا هذا على صدق دعواه النبوة .

كما صدَّق البشر موسى عليه السلام في دعواه النبوة ؛ لأنه لما ألقى عصاه أمام الفرعون تحولت إلى ثعبان حقيقي ، يلتهم كل الحبال التي ألقاها سحرة الفرعون ، وشأن العصا الجامدة المعتاد ألا تنبعث فيها الحياة ، إلا إذا كان الفاعل لذلك هو خالق الحياة والأحياء .

كمــا صــدَّق البشر بنبوة عيسى عليه السلام ؛ لأن ولادته لم تأت علــى النســق المعتاد في هذه الحياة ، من التقاء رجل بامرأة على النحو المعــروف ، ولكنه لما ولد من غير أب دل هذا على أن الذي غير له هذه العــادة الكونــية هو خالق العادات سبحانه ، وكذلك فقد كان يبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله ، وينبئ قومه بما يأكلون وما يدخرون ؛ مما دل على أن الله تعالى أرسله واصطفاه .

ما دليل محمد بن عبد الله على النبوة ؟

بدايــة نقــرر أن محمــداً بن عبد الله ﷺ قال : إنه النبي الذي ختَم الله به الأنبــياء ، ورســالته هي آخر الرسالات ، ومن هنا ! لا يستقيم أن تكون معجــزته التــي يستدل بها على صدق دعواه معجزة مادية حسية ــ مثل

معجــزات الأنبــياء السابقين ــ ؛ لأن الأجيال البشرية تتعاقب على مدار الزمان ، ولذلك كان لا بد في معجزته أن تكون باقية على مدار الزمان ؛ حتى تقيم الحجة على البشر أجمعين في كل زمان ومكان .

ومــع أنــه ﷺ قــد وقعت له الكثير من المعجزات الحسية التي نقلت إلينا بأسانيد صحيحة ، كنبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الطعام بوضع يده فيه ، وحنين الجذع إليه ، وكلام الشجرة بين يديه ، ونزول المطر بدعائه ، وغيــر ذلــك كثيــر ، إلا أنه لا يمكن أن تقوم الحجة على صدقه بهذه المعجــزات المادية على غير الذين شاهدوها ؛ لأن للمعاند أن يقول : أنتم الــذين لفقّــتم هذه الأخبار ، وتواطأتم عليها ؛ حتى تلزمونا بالتصديق بما تصــدقون أنتم به وأنا لا أصدق ــ هكذا يمكن أن يقول المعاند ــ إلا بما أراه .

ولــتفادي هــذا الاعتراض كان لا بد في معجزة الرسول الخاتم أن تكون باقية شاهدة على هذا الصدق على تعاقب الأجيال والأزمان .

والسؤال : ما المعجزة الباقية بين يدي البشر، وقد استند إليها محمد بن عبد الله ﷺ في تأييد دعواه على أنــه خــاتــم الأنبيــــاء والمرسلين ؟
إن هذه المعجــزة هي القرآن الكريم ؛ ذلكم الكتاب الذي قال محمد بن عبد الله : إنه وحي من الله تعالى إليه ، وأن الله عز وجل أمره بتبليغه للناس .

أخي الإنسان !

أعلــم أنك لا تعتقد أن هذا القرآن كلام الله ، وإنما تصورك هو : أن هذا الكــتاب من تأليف محمد بن عبد الله ؛ اختلقه من عند نفسه ، أو نقله من الكتب السماوية السابقة .

فإذا أثبتُ لك أن محمداً بن عبد الله ﷺ لم يختلق هذا القرآن من عند نفسه ، ولم ينقله من الكتب السماوية السابقة ، فهل تنقذ نفسك ، وتؤمن بأن محمداً رسول الله حقاً وصدقاً ؟ أرجو ذلك .

الدليل الأول

" الإقرار سيد الأدلة "

من أين جاء محمد ﷺ بهذا الكتاب ؟ أمن عند نفسه ومن وحي ضميره ؟ أم من عند معلم ؟ ومن هو ذلك المعلم ؟
تقرأ في هذا الكتاب ذاته أنه ليس من عمل صاحبه ، وإنما هو قول رسول كــريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين : ذلكم هو جبريل علــيه السلام ، تلقاه من لدن حكيم عليم ، ثم نزله بلسان عربي مبين على قلــب محمد ﷺ ، فتلقنه محمد منه ، كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصاً من النصوص ، ولم يكن له من عمل بعد ذلك إلا الوعي والحفظ ، ثم الحكاية والتبلــيغ ، ثــم البــيان والتفسير ، ثم التطبيق والتنفيذ ، أما ابتكار معانيه وصــياغة مبانيه فما هو منها بسبيل ، وليس له من أمرهما شيء ، إن هو إلا وحــي يوحــى ، وقد صرح القرآن نفسه في أكثر من موضع بأنه لا صنعة فيه لمحمد ﷺ ، ولا لأحد من الخلق " قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي "

فهــل بعد إقرار محمد ﷺ نفسه أن هذا القرآن ليس من عنده يكون بعض الناس في حاجة إلى الاستدلال على أن القرآن ليس من عند محمد ؟

في الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضياً يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت على لسان صاحبها على نفسه ، ولم يطلب وراءها شاهداً آخر من العقل أو النقل .

وأي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة ، ويتحدى الناس بالأعاجيب لتأييد تلك الزعامة أن ينسب بضاعته لغيره ، وينسلخ منها انسلاخاً ؟

الذي نعرفه أن كثيراً من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها ، وينسبها إلى أنفسهم ، لكن أن ينسب أحد لغيره أنفس آثار عقله ، وأغلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلده الدهر بعد .

معاندة وجوابها

قد يُلبِّس الشيطان على بعض المعاندين ، ويلقي في روعهم أن نسبة القرآن إلى الوحي الإلهي يستوجب طاعة محمد ، ونفاذ أمره في الناس ؛ لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه إلى نفسه .

والجواب أن محمداً ﷺ صدر عنه كلام منسوب إلى نفسه ، وكلام منسوب إلى الله تعالى ، فلو صح هذا الوهم الذي قالوه لكان الأولى أن ينسب محمد ﷺ كل ما يصدر عنه ﷺ إلى الله تعالى ؛ وحينئذ سيكون أكثر حرمة وأعلى عظمة .

الدليل الثاني

تاريخ محمد ﷺ قبل البعثة

ألا يكفي للحكم ببراءة الإنسان من عمل من الأعمال أن يقوم من طبيعته شاهد بعجزه المادي عن إنتاج ذلك العمل ؟

ولينظر العاقل ! هل كان هذا النبي الأمي صلوات الله تعالى عليه بمقتضى وسائله العلمية لأن تجيش نفسه بتلك المعاني القرآنية ؟

رجـل أمـي لا يقرأ ولا يكتب ، بين أظهر قوم أميين ، يعلم الناس جميعا عـنه ذلـك يعيش بين ظهراني قومه أربعين سنة كاملة من عمره ، يتكلم ككلامهـم ، ويعيش معيشتهم مشغولاً برزق نفسه وزوجه وأولاده ، راعياً بالأجر ، أو تاجراً بالأجر ، لا صلة له بالعلم والعلماء ، وليس ثمة فارق بينه وبينهم ، اللهم إلا أنه لم يشاركهم في عبادة الأوثان ، وشرب الخمور ، واقتـراف الفواحش والموبقات ، لكنه لم يسبق له أن تفوَّه بكلمة من هذا القرآن ، بل ولا بحرف منه قبل البعثة ، فهل يعقل أن يتكلم هذا الأمي بكل هذا الكلام المعجز فجأة دون أي تمهيد أو تمرين ؟ .

أي مـنطق يسـوغ أن يكون هذا الطور الجديد العلميّ نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية ؟

يقول الحق سبحانه " وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون " .

ويقول " قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون "

ولا مـناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الفطري سر آخر يلتمس خارجاً عن حدود النفس، وعن دائرة المعلومات القديمة .

ولو لم يكن محمد ﷺ أمياً لقيل : إنه قرأ ودرس وتعلم ..

ثم إنه ﷺ لم يسبق له الخروج من مكة إلا مرتين اثنتين :

مرة وهو غلام صغير مع عمه أبي طالب في قصة بحيرا الراهب .

ومرة حين خرج متاجراً في مال خديجة ، وكان معه غلامها .
ولم يسبق له الجلوس إلى أحد من علماء أهل الكتاب – وهم ندرة في جزيرة العرب – ولو جلس وتعلم منهم في أي وقت قبل البعثة ، ولو في الخفاء لقالوا ذلك وأعلنوه بعدما أعلن انحرافهم ، وتحريفهم .
ويكفي الباحث المنصف أن نحيله على التاريخ ، وندعه يقلب صفحات القديم منه والحديث والإسلامي منه والعالمي ، ثم نسأله : هل قرأ فيه سطراً واحداً يقول : إن محمداً بن عبد الله لقي قبل إعلان نبوته فلاناً من العلماء فجلس إليه يستمع من حديثه عن علوم الدين ، ومن قصصه عن الأولين والآخرين ؟

معاندة وجوابها

قد يلقي الشيطان في روع الراغبين في المعاندة أن محمداً كان له من ذكائه الفطري وبصيرته النافذة ما يؤهله لإدراك الحق من الباطل من الآراء ، حتى لو أن شيئاً في السماء تناله الفراسة أو تلهمه الفطرة أو توحي به الفكرة لتناوله محمد ﷺ بفطرته السليمة ، وعقله الكامل .

والجواب أننا نؤمن بأكثر مما وصفوا من شمائله ، ولكن ذلك قد يقبل إذا كان كل ما في القرآن مما يستنبطه العقل والتفكير ومما يدركه الوجدان والشعور .
والثابت الذي لا شك فيه أن القرآن يتضمن جملة كبيرة من المعاني النقلية البحتة التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط ، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقي والتعلم .

قــل لـــي بربك ! ماذا يقولون فيما قصه القرآن علينا من أنباء ما قد سبق علـــى وجهه الصحيح كما وقع ؟ وهل التاريخ يمكن وضعه أيضاً بإعمال الفكر ودقة الفراسة ؟

الدليل الثالث

دليل التحدي

جـــاء محمد بن عبد الله ﷺ وقال لقومه : إني رسول الله إليكم ، وبرهاني علـــى ذلك : الكلام الله الذى أتلوه بينكم ، وبيَّن لهم أن هذا الكلام فوق أن يُنال بالمعارضة ؛ لخروجه عن الطاقة البشرية .

فلمـــا أنكـــروا عليه دعواه طلب منهم أن يعارضوا هذا القرآن وينازلوه ، وقال لهم : إن كنتم فى ريب من أنه من عند الله ، وتبادر إلى عقولكم أنه مـــن صنع البشر فأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو حتى بسورة ، وطلب منهم هذه المعارضة بلهجات واخزة وألفاظ قارعة وعبارات تهكمية ، تســـتفز العزيمة وتدعوا إلى المباراة ، وأقسم أنهم لا يأتون بمثله ، ولن يفعلوا ولن يستجيبوا لطلبه ، ولن يأتوا بمثله .

قال تعالى فى سورة القصص : " قل فأتوا بكتاب من عند هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم "

وفـــى سورة الطور " أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين "

وفـــى سورة الإسراء " قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً "

وفـــى ســـورة هود " أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين "

وفـــي ســـورة يونس " أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين "

وفـــى سورة البقرة قال سبحانه " وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلـــوا ولـــن تفعلـــوا فاتقـــوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين "

والمتأمل فى هذه الآيات يجد أن الله تبارك وتعالى تدرج فى ذلك التحدي فطلـــب منهم أن يأتوا بمثله ، فلما عجزوا ، خفف الطلب إلى عشر سور مثله ، ثم إلى سورة واحدة مثله ، ثم تنزل معهم في سورة البقرة من طلب المماثل إلى طلب شيء مما يماثل ، كأنه يقول : لا أكلفكم بالمماثلة العامة ، بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ومطلقها ، وبما يكون مثلاً على التقريب لا التحديد .
وهذا أقصى ما يمكن من التنزل ، ولذا كان هو آخر صيغ التحدي نزولاً ، فلـــم يجئ التحدي بلفظ " من مثله " إلا في سورة البقرة المدنية ، وسائر المراتب بلفظ " مثله " في السور التي نزلت قبل ذلك بمكة .

وفـــى كـــل مرة يقول لهم : استعينوا بمن شئتم من الإنس والجن ، وبمن استطعتم من قوى الكون الظاهرة والخفية .

وفـــي الـــنهاية ســـجل عليهم العجز التام ، وجابههم بالحقيقة الناطقة بأن القـــرآن لـــيس في متناولهم ؛ لأن القرآن كلام الله ، وكلام الله صفة من صفاته ، فهو موصوف بالكمال المطلق ، منزه عن أي صورة من صور النقص ، فأني للبشر الضعاف المهازيل أن يأتوا بمثل كلام الله تعالى ؟

وانظر إلى هذا النفي المؤكد ، بل الحكم المؤبد ! " ولن تفعلوا "

هـــل يســـتطيع عربي يدري ما يقول أن يصدر هذا الحكم ، وهو يعلم أن مجال المساجلات بين العرب مفتوح على مصراعيه ، وأن الناقد المتأخر متـــى أعمل الروية في تعقب قول القائل المتقدم لا يعييه أن يجد فيه فائتاً ليستدرك ، أو ناقصاً ليكمل ، أو كاملاً ليزداد كمالاً ؟

ألم يكن يخشى بهذا التحدي أن يثير حميتهم الأدبية فيهبوا لمنافسته ، وهم جميع حذرون ؟

ومـــاذا عساه يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صـــيغة المعارضة ، ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهذيب ، كما كانوا يصـــنعون فـــي نقد الشعر ، فيكمل ثانيهم ما نقصه أولهم ، وهكذا ، حتى يخـــرجوا كلاماً ، إن لم يتفوق على القرآن ، فلا أقل من أن يساميه ، ولو في بعض نواحيه ؟

ثـــم لـــو طـــوعت له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره ، فكيف يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة ؟ بل على الإنس والجن ؟

إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها رجل يعرف قدر نفسه إلا وهو مالئ يديه من تصاريف القضاء وخبر السماء

الدليل الرابع

التناسب بين جميع ما تضمنه القرآن

يتكون القرآن مما يزيد على ستة آلاف آية ، تناولت شتى الموضوعات ، وعالجـت الكثيـر من المسائل الاعتقادية والخلقية والتشريعية ، وقررت كثيراً من النظريات الكونية والاجتماعية والوجدانية ، وعبرت عما قصدت إلـى التعبيـر عنه بعبارات متنوعة وأساليب شتى، ومع ذلك فلا تجد فى عـباراته اخـتلافاً بين معنى وآخر ، ولا تناقضاً بين آية وأخرى ، الأمر الذى يدل على أنه تنزيل من حكيم حميد .

وصدق الله العظيم إذ يقول " أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً "

وكما لا تجد تناقضاً ولا تلمح تعارضاً لا تكاد تعثر على لفظ أبلغ من لفظ ، ولا علـى آية أفصح من آية ، ولا على سورة أرقى فى مستواها البلاغي من سورة أخرى ، فلن تجد إلا المطابقة لمقتضى الحال ، ووضع اللفظ فى الموضع الذى يجب أن يوضع فيه ، وهذا لا يكون بحال من الأحوال من صنع البشر ، فمهما وصل العقل البشرى إلى حد الكمال لا يمكنه أن يكون هذه المجموعة الكبيرة التي طال زمن تكوينها ، دون اختلاف فى المستوى البلاغي بين الآيات ، ودون تعارض بين المعاني وما تعطيه من أحكام ، فـأي إنسـان يستطيع التكلم فى ثلاث وعشرين سنة " مدة نزول القرآن " على نهج واحد ؟

أما نرى الشاعر الفحل أو الأديب الفذ ينقح القصيدة أو يهذب الخطبة ، ثم لا يلــبث حــين ينظر إليها مرة أخرى من أن يمر عليها أو على بعضها بالتغيير والتبديل ؟

معاندة وجوابها

قــد يُلقــي الشيطان في روع بعض المعاندين القول بأن ثمة تعارضاً بين بعض آيات القرآن ، ويضرب على ذلك أمثلة منها :

١- يــتعارض قوله تعالى " وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فــيها فحــق عليها القول فدمرناها تدميراً " مع قوله تعالى" إن الله لا يأمر بالفحشاء "

٢- يــتعارض قــوله تعالى " هدى للمتقين " مع قوله " شهر رمضان الذي أنــزل فــيه القــرآن هدى للناس " فقد خصص في الآية الأولى هدي هذا الكتاب بالمتقين ، ودل في الآية الثانية على أن هداه عام لجميع الناس

٣- يــبتعارض قوله تعالى في سورة الحج " وإن يوماً عند ربك كألف سنة ممــا تعدون " وفي سورة السجدة " يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعــرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون " مع قوله تعالى في ســورة المعارج " تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة " فالآيتان الأوليان يدلان على أن مقدار اليوم عند الله ألف سنة ، والآية الثالثة تدل على خلاف ذلك .

والجــواب أن ما يراه بعض الناس من تعارض ظاهري بين ما دلت علــيه بعض الآيات وما دلت عليه أخرى ، فليس تعارضاً إلا فيما يظهر لغيــر المــتأمل ، وعند التأمل يتبين أنه لا تعارض ، فمرده إلى خطأ في

تفكيــر الذين ظنوه تعارضاً واعوجاج فى أفهامهم ، فالتعارض فيما فهموه ونسبوه إلى القرآن ، لا إلى ما يقرره القرآن .

ففـــي المثال الأول الذي ذكروه لما اعتبروه تعارضاً قد اشتبه عليهم وجـــه الاتفاق بين الآيتين ، وظنوا أن الله عز وجل أمر المترفين فى الآية الأولى بالفسق تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ولذلك قالوا ما قالوه .

والجواب أن الله عز وجل أمر المترفين بأن يتقوه ويطيعوه ، ويعودوا إلى طـــريقه ، ولكنهم بارزوه بالعصيان والتفريط والفسوق ومالأهم الضعفاء على ذلك ووافقوهم عليه ، فاستحقوا التدمير والإهلاك جزاء ما فعلوه .

يؤيد ذلك : أن معنى الفسق في اللغة : مخالفة الأمر وعدم الامتثال له ، فلو كان الأمر الموجه للمترفين بالفسق ــ تعالى الله عن ذلك ــ لما قال " ففسقوا " بل لقال : فأطاعوا . لكن لما كان الأمر بالطاعة ، ولم يمتثلوا له ، فقد وصفهم بالفسق ، وعلى هذا ! فلا إشكال بين الآيتين .

وأما الجواب عن المثال الثاني الذي ذكروه للتعارض فهو :

أن الهـــدى يســـتعمل في القرآن باستعمالين : أحدهما : عام . والثاني : خاص .

أمـــا الهدى العام فمعناه إبانة طريق الحق وإيضاح المحجة سواء سلكهما المبـــين له أم لا ، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى " وأما ثمود فهديناهم " أي بيـــنا لهـــم طـــريق الحق على لسان نبينا صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والســـلام ، مع أنهم لم يسلكوها ، بدليل قوله تعالى " فاستحبوا العمى على الهدى "

وأما الهدى الخاص فهو تفضل الله تعالى بالتوفيق على العبد ، ومنه بهذا المعنى " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام "

إذا علمت ذلك فاعلم أن الهدى الخاص بالمتقين هو الهدى الخاص ، وهو التفضـــل عليهم بالتوفيق ، والهدى العام للناس هو إبانة الطريق وإيضاح المحجة .

وبهذا يرتفع الإشكال بين قوله تعالى " إنك لا تهدي من أحببت " مع قوله تعالـــى " وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم " لأن الهدى المنفي عنه ﷺ هو الهدى الخاص ؛ لأن التوفيق بيد الله تعالى وحده ، ومن يرد الله فتنته فلن تملـــك له من الله شيئاً ، والهدى المثبت له هو الهدى العام الذي هو إبانة الطـــريق ، وقـــد بينها ﷺ حتى ترك الناس على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها .

وأما الجواب عن المثال الثالث الذي ذكروه للتعارض من وجهين :

الأول : ما روي عن ابن عباس من أن يوم الألف في سورة الحج هو أحد الأيام الستة التي خلق الله تعالى فيها السماوات والأرض ، ويوم الألف في ســـورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى ، ويوم الخمسين ألفاً هو يوم القيامة .

الثانـــي : أن المـــراد بجميعها يوم القيامة ، وأن الاختلاف باعتبار حال المـــؤمن والكافـــر ، ويدل لهذا قوله تعالى " فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير "

وهكـــذا ! فكـــل ما ظاهره التعارض من آيات القرآن فهو بعد البحث متفق متســق لا اخـــتلاف فيه ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا .

الدليل الخامس

دليــــــل الثقــــــة

كل مؤلف من البشر لكتاب يفتتح كتابه ملتمساً من القارئ العذر فيما يقف عليه في هذا الكتاب من أخطاء أو هنات ، ولذلك يقول : ألتمس المعذرة ؛ فقــد كتــبت كتابي هذا على عجل ، أو أن الوقت داهمني ؛ فلم أتمكن من تحقــيق بعــض المعلومات أو الأفكار الواردة فيه ، أو أن المراجع التي توافرت لدي لم تستوعب كل جوانب الموضوع .

أما القرآن الكريم فقد افتتحه الله سبحانه وتعالى بقوله " ذلك الكتاب لا ريب فيه " .

الدليل السادس

دليل الإخبار عن الغيب

الغيب المذكور فى القرآن نوعان :

أحدهما : غيب مضى ، وهو الجزء الذى يتضمن قصص السابقين .

والثانـــي : الإخبار عن أمور تقع فى المستقبل ، وكلاهما إعجاز ، أو من دلائل الإعجاز .

ووجه الإعجاز فى الماضى وقصصه أن النبى ﷺ نشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم تكن نشأته بين أهل الكتاب ؛ حتى يعلم بالتلقين علمهم ، بل كان قومه أميين لا يسود فيهم علم من أى طريق كان إلا أن يكون علم الفطرة والبيان ، وكانوا منزوين بشركهم عن أهل الكتاب ، وكانت رحلتا الشتاء والصيف إلى الشام واليمن تجاريتين ، لا تتصلان بالعلم فى أى باب من أبوابه ، وفى هذا الوسط الأمي جاء القرآن بتفصيله الصادق المحكم عن أخبار الأنبياء السابقين وأحوال أممهم معهم ، وما حل بالذين كفروا وضلوا ، وقد وافق الصادق عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى والفحص الدقيق يثبت بطلان التحريف وصدق القرآن الكريم فيما حكاه الله عز وجل .

ولقد ذكر القرآن ذلك الوجه من الإعجاز، فقال تعالى بعد ذكر قصة مريم وكفالة نبي الله تعالى زكريا لها " ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون " وقال تعالى بعد قصة نوح عليه السلام في سورة هود " تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا "

<u>وهذان النصان</u> يشيران إلى الدلالة على أن القرآن من عند الله ، وأنه ليس حديثاً مفترى ، وليس أساطير الأولين اكتتبها ، ولا يمكن أن تملى عليه ، ولا يوجد من يمليها عليه ، لأن ذلك النوع من العلم ما كان عند العرب ، وليس لهم به دراية .

وصدق الله العظيم إذ يقول " وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون " .

والإخـــبار عن أمور وقعت فى المستقبل كما أخبر القرآن الكريم دلـــيل ظاهـــر أيضاً على أن القرآن الكريم من عند الله رب العالمين ، إذ كـــيف يعلم إنسان ما سيحدث فى غدٍ إلا إذا أطلعه على ذلك العليم الخبير، ونذكر لذلك أمثلة :

" المثال الأول "

الإخـــبار عن هزيمة الفرس بعد غلبهم ، فقد قال سبحانه وتعالى " ألم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين .."

كان المشركون يجادلون المسلمين في مكة قبل الهجرة ، يقولون لهم : إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب ، وقد غلبتهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ســـتغلبوننا بالكتاب الذي أنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم ، فنزلت الآيات .

لقد كان الإخبار بهذا النصر وأنه كائن في وقت معين إخباراً بأمرين ، كل منهما خارج عن متناول الظنون ؛ ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضـــعف حـــداً يكفي من دلائله أنها غزيت في عقر دارها ، وهزمت في بلادهـــا ، كما قال تعالى " في أدنى الأرض " فلم يكن أحد يظن أنها تقوم لها قائمة بعد ذلك ، فضلاً عن أن يحدد الوقت الذي سيكون لها فيه النصر ولذلك كذب به المشركون ، وتراهنوا على تكذيبه مع الصديق أبي بكر ، على أن القرآن لم يكتف بهذين الوعدين ، بل عززهما بثالث ، حيث يقول " ويومـــئذ يفرح المؤمنون بنصر الله " إشارة إلى أن اليوم الذي يكون فيه النصر للروم على الفرس سيقع فيه هاهنا نصر للمسلمين على المشركين .

وإذا كـــان كـــل واحـــد من النصرين في حد ذاته مستبعداً عند الناس أشد الاســـتبعاد ، فكـــيف بالظن بوقوعهما مقترنين في يوم ؟ لذلك أكده أعظم التأكيد بقوله " وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون"

ولقـــد صــــدق الله تعالـــى وعده ، فتمت للروم الغلبة على الفرس بإجماع المؤرخـــين في أقل من تسع سنين ، وكان يوم نصرها هو اليوم الذي وقع فـــيه النصــــر للمسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى ، كما رواه الترمذي عن أبي سعيد .

" تنبيـــه "

رب قائـــل يقـــول : هـــلا حدد القرآن عدد السنين بلفظ أصرح من لفظ البضــــع المتـــراوح بـــين الـــثلاث والتسع ، أليس الله بأعلم بيوم النصر وساعته ؟

نقول : بلى ، ولكن الناس في اصطلاحهم الحسابي لا يجرون على طريقة واحدة ، فمنهم من يحسب بالشمس ، ومنهم من يحسب بالقمر ، ومنهم من يكمـــل الكســـور ، ومنهم من يلغيها ، فكان مقتضى الحكمة التعبير باللفظ الصــــادق علـــى كـــل تقدير ليكون أقطع لكل شبهة ، وأبعد عن كل جدل ومكابرة . ثم إنه ربما تراخى الأمر بين بشائر النصر ووقائعه الفاصلة ، فيقع اختلاف الحاسبين في تعيين الوقت الذي يضاف إليه النصر والغلبة ، ولذا حسن التعبير بلفظ " في بضع " دون أن يقال : بعد بضع .

" المثـال الثانـي "

مُـــنع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية ، واشترطت عليهم قريش إذا جاءوهـــا في العام المقبل أن يدخلوها عزلاً من كل سلاح إلا السيوف في القُرُب .

والسؤال : من أين للصحابة أن يثقوا بوفاء المشركين بعهدهم ، وقد بلوا منهم نكث العهود وقطع الأرحام وانتهاك شعائر الله ؟ أليسوا اليوم يحبسون هديهم أن يبلغ محله ؟ وكيف يأمن المسلمون جانبهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم ؟ ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم إلى الفخ ؟

وحينـــئذ يأتـــيهم وعد الله لنبيه ﷺ في القرآن بدخولهم مكة آمنين محلقين رءوســـهم ومقصـــرين فقال " لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين ... "

وبالفعـــل دخل الرسول ﷺ وأصحابه مكة في عمرة القضاء آمنين ، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم ، وقضوا مناسكهم .

" المثال الثالث "

تلـــك الآيـــة التـــي يضمن الله تبارك وتعالى بها لنبيه ﷺ حماية شخصه والأمـــن على حياته ، حتى يبلغ رسالات ربه ، وذلك في قوله تعالى " يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس "

إن هذا والله ضمان لا يملكه بشر ، ولو كان ملكاً محجَّباً تسير الحفظة من بـــين يديـــه ومن خلفه ، وكم رأينا من الملوك والرؤساء من اختطفتهم يد الغـــيلة ، وهم في مواكبهم تحيط بهم الجنود والأعوان ، ولكن انظر مبلغ ثقة الرسول ﷺ بهذا الوعد الحق في أقواله وأفعاله .

فقـــد روى الطبرانـــي عن أبي سعيد الخدري قال : كان النبي ﷺ يُحرَس بالليل فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال : يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله " .

ثــم انظــر إلى هذا الموقف المدهش الذي وقفه النبي ﷺ في غزوة حنين منفــرداً بــين العداء بعد أن انكشف المسلمون ، وولوا مدبرين ، فإذا هو يــركض بغلته إلى جهة العدو ، فلما غشو لم يفر ، ولم ينكص ، بل نزل عــنها كأنمــا يمكنهم من نفسه ، وجعل يـ ـ : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب " كأنما يتحداهم ، ويدلهم على مكانه ، فوالله ما نالوا منه نيلاً إن الله تعالى قد وعده بالعصمة والحفظ ، فأني لأي قوة أن تمسه بعد ذلك بسوء .

وقــد روى مسلم عن جابر قال : لما كنا بذات الرقاع نزل نبي الله تحت شــجرة ، وعلــق سيفه فيها ، فجاء رجل من المشركين ، فأخذ السيف ، فاخترطه ، وقال للنبي ﷺ : أتخافني ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله يمنعني منك . ضع السيف ، فوضعه "

" المثال الرابع "

كــان أُبَيٌّ بن خلف يلقى رسول الله ﷺ بمكة فيقول : يا محمد ! إن عندي العــود ــ فرساً ــ أعلفه كل يوم أقتلك عليه ، فقال رسول الله ﷺ : بل أنا أقــتلك إن شاء الله ، فلما كان يوم أحد ، وأسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبيٌّ ، وهو يقول : أي محمد ! لا نجوتُ إن نجوتَ ، فقال القوم : يا رسول الله ! أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال رسول الله ﷺ : دعوه ، فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ، ثم استقبله فطعنه في عــنقه طعنة تدأدأ ــ أي تقلب وجعل يتدحرج ــ منها عن فرسه مراراً ، فلما رجع إلى قريش ، وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير ، فاحتقن الدم ، قــال : قتلني والله محمد ، قالوا له : ذهب والله فؤادك .. والله إن بك من بأس ، قال : إنه قد كان قال لي بمكة : أنا أقتلك ، فوالله لو بصق عليَّ لقتلني ، فمات عدو الله وهم قافلون إلى مكة .

انظر في هذا الخبر لتجد فيه تصديقاً لنبوة محمد بن عبد الله ﷺ ، فقد أخبر أبياً أنه سوف يقتله بمشيئة الله تعالى ، وتم ذلك ، وفي هذا الخبر عبرة في إيمان المشركين بصدق النبي ﷺ ، وانه إذا قال شيئاً وقع كما قال ، ولذلك كان أبيُّ علي يقين من أنه سيموت من تلك الطعنة .

كما وعد الله نبيه ﷺ أن دينه سيظهر على الأديان ، فقال " وعد الله الذين آمـنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين مـن قـبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً " .

وهكذا تجد فى القرآن أخباراً عن أمور قابلة ، وتقع كما أخبر، وصدق فى ذلـك كلـه وذلـك لا يكون إلا من عند الله ، ولا يمكن أن يكون بالتقدير الشخصـي أو الحدسي ، فإن ذلك يصدق أحياناً ، ويكذب أحياناً ، والأمر هنا كله صدق لا تخلف فيه ، فهو دليل على أنه من عند الله العليم الحكيم أودعه كتابه الكريم .

" الدليل السابع "

دليل الحقائق العلمية والأسرار الكونية

المـتفق عليه أن الرسول ﷺ كان أمياً ، ونشأ فى بلد خالية من المعاهد والجامعات ودور الثقافة التى تلقن العلوم الكونية ، فمن البعيد كل البعد أن يعـرف هـذا الكم الهائل من الحقائق العلمية والأسرار الكونية التي أشار إليها القرآن ، أو يتوصل إليها من تلقاء نفسه .

ومـــع أنـــه ليس من مقاصد القرآن الأصلية أن يقرر نظريات علمية فى خلـــق السماوات والأرض وخلق الإنسان وحركات الكواكب وغيرها من الكائـــنات ، إلا أنـــه فى مقام الاستدلال على وجود الله ووحدانيته وتذكير الناس بالله ونعمه التى لا تعد ولا تحصى جاء بآيات تفهم منها سنن كونية ونواميس طبيعية ، كشف العلم الحديث فى كل عصر براهينها ، فدل على أن الآيات التى لفتت إليها من عند الله ، لأن الناس ما كان لهم بها من علم ، ومـــا وصلوا إلى حقائقها ، وإنما كان استدلالهم بظواهرها ، فلما كشف البحث العلمي سنة كونية ، وظهر أن آية فى القرآن أشارت إلى هذه السنة قام برهان جديد على أن القرآن من عند الله .

وإلى هذه الناحية من نواحي الإعجاز أشار ربنا سبحانه وتعالى بقوله فى ســـورة فصلت " قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد " وإليك أخي الإنسان بعض الأمثلة التي تجلي حقيقة نبوة محمد بن عبد الله ﷺ .

" المثال الأول "

اقـــرأ قـــول الحـــق ســـبحانه وتعالى " أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حي أفلا يؤمنون " فإذا فسرنا كلمة " رتقاً " بأنهما كانتا شيئاً واحداً متصلاً ، ففتقهما الله تعالى ، وجعـــل لكل منهما خلقاً مستقلاً ، فهذا ينسجم مع أدق النظريات العلمية خاصـــة " السديمية " التي تقول : إن مادة الخلق " دخان " ثم تمت عملية الفـــتق أي القطع أو فك اللحام أو الفصل للكتلة الفريدة الأولى التي كانت عناصرها في البداية ملتحمة.

وإذا فسـرنا كلمـة " رتقاً " بمعنى أن الأرض كانت لا تنبت والسماء لا تمطـر ، فهـذا ينسجم مع النظريات التي تقول : إن الأرض كانت كتلة نارية كالشمس ، فلم يكن وقتذاك شيء حي أو ماء ، وكلا التفسيرين أشار إليه ابن كثير.

ولـو أنصـف العقل لعرف أن هذا القرآن كلام خالق السماوات والأرض العليم بهما " ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير "

" المثال الثاني "

يقـول الحق سبحانه وتعالى " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلـناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين "

هنا يقف الإنسان مدهوشاً أمام هذه الآيات القرآنية ، وهي تعرض لعملية تكـوين الجنين ، على نحو لم يعرفه البشر على وجه الدقة إلا مؤخراً بعد تقـدم علم الأجنة التشريحي ، وذلك أن خلايا العظام هي التي تتكون أولاً فـي الجنين ، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظـم ، وتمـام الهيكل العظمي الغضروفي للجنين ، وهي الحقيقة التي سـجلها الـنص القرآنـي " فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً " فسبحان العليم الخبير .

" المثال الثالث "

يقـول سـبحانه وتعالـى " وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين "

كان الناس فيما مضى يحملون وصف الرياح " باللواقح " على أنها لواقح للـزرع والشـجر ، وهذا لا يتفق مع النصف الثاني للآية ؛ إذ لو كان ما

ذهبوا إليه هو المراد لترتب عليه إزكاء الزرع وإخراج الثمر للناس يأكلونه ، لا إنزال الماء من السماء يشربونه ، أما وقد رتب الله سبحانه وتعالى على إرسال الرياح لواقح إنزال الماء من السماء ، يسقاه الناس فقد تحتم أن يكون " للواقح " معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع ، ويكون مع ذلك من ناحية شبيهاً بلقاح الأحياء من زروع وحيوان ، ومن ناحية أخرى يكون بينه وبين نزول الماء ما بين العلة والمعلول .

إذا علمت ذلك ! فتعال لنتأمل بعض الحقائق العلمية المتعلقة بكيفية نزول المطر ؛ حتى نرى سر الإعجاز في هذه الآية :

إن تكاثف السحب مطراً أثر عن الكهربائية ؛ إذ من السحاب ما كهربائيته سالبة، ومنه ما كهربائيته موجبة ، والرياح هي أداة اتحاد أنواع السحب حتى يتكون المطر ، وهو ما يتفق تماماً مع وصف الرياح باللواقح .

فالملاقحة هنا بين قطيرات ، أو بين سحاب وسحاب ، والشبه تام بين التلقيح الكهربائي والتلقيح النباتي ، فكما تتحد الخليتان في حالة التلقيح النباتي لتنشأ بعد ذلك خلية واحدة لها خواص غير خواص الخليتين الأصليتين ، فكذلك في حالة اتحاد سحاب وسحاب ؛ إذ ينشأ عنهما رعد وبرق ومطر ؛ إذ ينزل المطر كأثر عن التفريغ الكهربائي السحابي .

فهذه الآية مظهر من مظاهر الإعجاز المتجدد للقرآن ؛ لأن تلاقح السحاب وأثره في نزول المطر أمر كان يجهله الإنسان حتى كشف عنه العلم الحديث.

ثم اقرأ آية سورة النور في نفس القضية ؛ لتزداد يقيناً بإعجاز هذا القرآن وصدق محمد بن عبد الله ﷺ .

يقول سبحانه " ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار "

فالتأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة ، بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى يتجاذب ويتعبأ في الجو تعبئة تتفق مع ما سيخلق عنها من برق وصواعق ومن مطر أو برد .

" **المثال الرابع** "

يقــول سبحانه وتعالى " وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين "

يذكر النص القرآني هنا حقيقة علمية عن خروج اللبن من بين فرث ودم ، لــم تكن معروفة لبشر ، وما كان لبشر في ذلك العهد ليتصورها ، فضلاً عــن أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة ، وإليك ما يقوله العلم الحديث اليوم :

إن الحليب قبل أن يصبح في الثدي يمر على عمليتي تصفية :

الأولــــى : تصفيته من الفضلات ، وذلك بعد الهضم ؛ إذ تقوم الزغيبات المعوية بامتصاص المواد الغذائية طارحة إياه في الدم ، ومبقية للفضلات في الأمعاء ، حيث تطرح خارج الجسم .

الثانية : أما المواد الممتصة التي طرحت في الدم فإن قسما منها يغذي جسم الكائن الحي ، وقسماً آخر تصفيه الغدد اللبنية من الدم ، وترسله إلى الضرع حليباً خالصاً سائغاً للشاربين .

إذا ! قال العلم : هذا الحليب يصفى أولاً من الفضلات ، ثم من الدم .

وهو نفس ما قرره القرآن منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام " من بين فرث ودم لبــناً خالصــاً " فهل يمكن لإنسان يحترم عقله أن يماري في صدق القرآن بعد هذا أو يجادل ؟

ألا إن وجود حقيقة واحدة من نوع هذه الحقيقة يكفي وحده لإثبات أن هذا القرآن وحي من الله تعالى .

تنبيهـــان

التنبيـــيه الأول : إذا كـــان القـــرآن قد اشتمل فى بعض آياته على هذه الحقائق العلمية فليس معنى ذلك أنه كتاب علمي ؛ جاء ليعلم الناس الحقائق العلمـــية فـــإن القـــرآن كتاب هداية وتشريع ، يحبب الإيمان إلى الناس ، ويـــزينه في قلوبهم ، ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ويرسم لهم مناهج صلاح الحياة الدنيا وسعادة الحياة الآخرة .

وتلـــك الحقائق العلمية التى أشار إليها القرآن كانت للفت الأنظار إلى قدرة الله سبحانه وتعالى ، وسعة علمه ، وحكمته ، والدلالة على صدق رسوله ﷺ وفتح الأبواب أمام العقول لتبحث عن أسرار هذا الكون الإلهي الفسيح

التنبـــيه الثانى : بعـــض الباحثين لا يرتضون الاتجاه إلى تفسير آيات القرآن بما يقرره العلم من نظريات ونواميس .

وحجـــتهم أن آيـــات القـــرآن لها مدلولات ثابتة مستقرة لا تتبدل ، وأما النظريات العلمية فقد تتغير وتتبدل ، وقد يكشف البحث الجديد خطأ نظرية قديمة .

ولكن محققي المشايخ ذهبوا – بحق – إلى معارضة هذه الوجهة ، لأن تفسير آية قرآنية بما كشفه العلم من سنن كونية ما هو إلا فهم للآية بوجه مـــن وجوه الدلالة على ضوء العلم ، وليس معنى هذا أن الآية لا تفهم إلا بهذا الوجه من الوجوه ، فإذا ظهر خطأ النظرية ظهر خطأ فهم الآية على

ذلــك الوجه ، لا خطأ الآية نفسها ، كما يفهم حكم من آية ، ثم يتبين خطأ فهمه بظهور دليل على هذا الخطأ .

الدليل الثامن

دليل الحفظ والبقاء للنص القرآني

تولى الله تعالى حفظ القرآن الكريم بنفسه ، ووعد بذلك وعداً مؤكداً ، فقال سبحانه " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " ولم يعهد الله تعالى بحفظ القــرآن إلى أحد ، كما فعل مع الكتب المقدسة الأخرى ، التي استحفظها أهلها .

والســـبب فـــي ذلـــك ! أن كلاً من التوراة والإنجيل كتاب موقوت لرسالة موقـــوتة لقوم مخصوصين ، وهذا بخلاف رسالة الإسلام العامة والخالدة والدائمة ، مما يقتضي حفظ مصادرها من أن تمتد إليها يد التغيير.

ومعنـــى حفـــظ القـــرآن : صـــيانته من كل تحريف وتبديل يعرض للنصوص.

ومن دلائل ذلك :

* أن أكثـــر من أربعة عشر قرنا من الزمن مرت على نزول هذا القرآن ، ولـــم يزل كما أنزله الله ، وكما بلغه محمد ﷺ ، وكما تلقاه أصحابه ومن بعدهم جيلاً بعد جيل ، محفوظاً في الصدور ، متلوا بالألسنة ، مكتوباً في المصاحف

* لـــم يعرف في الدنيا كتاب ديني أو دنيوي حفظ من التحريف والتبديل ، كما حفظ هذا القرآن ، وإن أحداً لا يستطيع أن يزيد فيه حرفاً ، أو ينقص منه حرفاً ، آياته تتلى وتسمع وتحفظ وتشرح كما أنزلها الله على محمد ﷺ

بواسطة الروح الأمين ، وقد اشتمل القرآن على مائة وأربع عشرة سورة ، ابتدأت كلها بالبسملة " بسم الله الرحمن الرحيم " إلا سورة واحدة منها : هي سورة التوبة ، فجاءت خالية منها ، فلم يجترئ أحد أن يزيد هذه البسملة في مطلع السورة ، لا خطاً ولا لفظاً ؛ لأنه لا مجال للرأي في القرآن .

* بلغ من اهتمام المسلمين بالقرآن أن عدوا آياته ، بل كلماته ، بل حروفه ، فكيف يستطيع امرؤ أن يزيد أو ينقص في كتاب أحصيت كلماته وحروفه ؟

* لم تعرف الدنيا كتاباً يحفظه الألوف وعشرات الألوف عن ظهر قلب إلا القرآن الذي يسره الله تعالى للذكر والحفظ ، فلا عجب أن نجد من الرجال والنساء من جمعه في قلبه ووعاه ، كما حفظه كثير من صبيان المسلمين لا يضيعون منه حرفاً ، وكذلك كثير من الأعاجم ، لا يسقطون منه كلمة واحدة ، وأحدهم لو سألته بالعربية عن اسمه لم يجبك ! فهو يحفظ كتاب ربه تعبداً وتقرباً إليه سبحانه ، وإن لم يفهم ما يقرأ ويحفظ ؛ لأنه بغير لغته .

* لم تحفظ معاني القرآن وكلماته وألفاظه فحسب ، بل طريقة أدائه ومخارج حروفه ، وما ينبغي له من مد وغن ، وإظهار وإدغام وإخفاء وإقلاب ، وهو ما قام به علم خاص ، سمي " علم تجويد القرآن " ، فإذا قرأت أمام صبي من صبيان المسلمين الحافظين للقرآن قول الله تعالى " يهب لمن يشاء " وأظهرت النون في قولك " لمن " فإنه سينكر عليك ذلك ، ويقول : لا تقرأ هذه الكلمة هكذا ، ولا يصح إظهار هذا الحرف في القراءة في هذا الموضع ، بل يجب إدغامه في الياء ؛ حتى يصيرا حرفاً

واحـــداً مشدداً ، وتنطق هكذا " لميَّشاء " ثم عليك أن تمد حرف الألف بعد الشين بمقدارٍ معين ، وليس هذا إلا للقرآن

ولذلك !

فأنـــت تطمئن وأنت تقرأ آيات القرآن أنك تقرؤها بذات الكيفية التي كان يقرأ بها محمد بن عبد الله ﷺ .

- **حتـــى رســـم المصحف ، وطريقة كتابته ، بقي المصحف يرسم ، ويطـــبع إلـــى الـــيوم ، كما رسم في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضـــي الله تعالى عنه ، رغم تطور قواعد الرسم والإملاء ، ولم تجـــرؤ حكومة مسلمة ، ولا مجمع علمي إلى اليوم على أن يغير مـــن طـــريقة رسمه ، وأن يطبق عليه من القواعد ما يطبق على سائر ما يكتب ويطبع من كتب ورسائل وصحف وغيرها .**

أخي الإنسان !

إذا علمت ذلك عن القرآن ففكر بإنصاف فيما يلي :

الدراسات العلمية الموضوعية بيَّنت أن أصول العهد القديم " التوراة " ثلاثة : النســـخة الســـامرية ، والنسخة العبرية ، والنسخة اليونانية ، وبين هذه الأصول من الاختلاف والتناقض والتضارب ما فيها ، فضلا عما فيها من زيادة ونقصان .

ثـــم إن طـــبعات العهد القديم عديدة ، لا تكاد تتفق طبعة منها مع الطبعة الأخـــرى ، وهـــي تتغايـــر مـــن بلـــد إلى بلد ، ومن طائفة إلى طائفة ، والمشـــرفون علـــى هـــذه الطبعات يتعهدونها بالتعديل والتبديل والحذف والإضافة .

والعهــد القــديم ملــيء بالأساطير الوهمية والقصص الجنسية الداعرة ، والأخــلاق السيئة التي تنأى به عن مظاهر الطهر والتقديس ، ولذلك فقد طالــب بعــض العلماء الغربيين بوجوب إبعاد " الكتاب المقدس " ولاسيما العهــد القــديم عن مدارس الأولاد والبنات ؛ لما تضمنه من أمور تنافي الحياء والآداب العامة .

ولــيس هــذا كــلام الدارسين المسلمين عن التوراة فحسب ، بل هو كلام العلمــاء الــيهود والنصارى المنصفين ، فقد كتب " إسبينوزا " الفيلسوف الــيهودي المتحــرر في كتابه " رسالة في اللاهوت والسياسة " نقداً قوياً للعهد القديم ، أثبت فيه عدم صحة نسبته لمن نسب إليهم من الأنبياء ، وقد أثبت بالدليل القاطع أن التوراة كتبت بعد موسى بمئات السنين (١)

ثــم تأمــل في الوثيقة الخطيرة الصادرة عن المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني (١٩٦٢_ ١٩٦٥) وفي الفصل الرابع ص٥٣ تقول : بالنظر إلى الوضع الإنساني السابق على الخلاص الذي وضعه المسيح ، تسمح أسفار العهــد القــديم للكل بمعرفة من هو الله ، ومن هو الإنسان بما لا يقل عن معرفة الطريقة التي يتصرف بها الله في عدله ورحمته مع الإنسان . **غير أن هذه الكتب تحتوي على شوائب وشيء من البطلان ، مع ذلك ففيها شهادة عن تعليم إلهي** "

هــذا الــنص الخطير جزء من تصريح شامل صوّت عليه نهائياً بأغلبية ٢٣٤٤ صــوتاً ضد ٦ أصوات ، أليس ما فيه يتفق تمام الاتفاق مع اعتقاد المسلمين عن التوراة ، وهو أنها كتاب أصله سماوي ، إلا أنه قد وقع فيه تحريف وتبديل ؟

---

(1) يراجع في هذا تفصيلا : كيف نتعامل مع القرآن ؟ للدكتور يوسف القرضاوي طبعة دار الشروق.

أمـــا الأناجـــيل الأربعة المعروفة الآن ، والمنسوبة لأصحابها : متى ومرقص ولوقا ويوحنا ، فقد اختيرت من بين سبعين إنجيلا ، حكم بتحريم قـــراءتها ، بل بإتلافها ، وهذه الأناجيل لا تخرج عن كونها سيرة للمسيح مشتملة على بعض مواعظه وأقواله ، ومع ذلك فهي مختلفة متناقضة فيما بين بعضها وبعض ، بل كل إنجيل منها متناقض في نفسه .

وقد اختلف في تاريخ تأليف هذه الأناجيل ، وفي اللغة التي كتبت بها أساساً ، والتـــي ترجمت إليها ، وشكَّك الدارسون المحققون في صحة نسبتها إلى مؤلفـــيها ، وفـــي دائرة المعارف الفرنسية : أن الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى النصارى لم تظهر إلا بعد ثلاثة قرون من تاريخ المسيح .

بـــل قرر الأب عبد الواحد داود المطران المسيحي الآشوري الذي اعتنق الإســـلام في كتابه " الإنجيل والصلب " أن الأناجيل المعتبرة الآن لم تكن معترفاً بها قبل القرن الرابع الميلادي .

الدليل التاسع

طريقة تنزُّل القرآن

المـــتأمل بتجـــرد فـــي الطـــريقة التي كان ينزل بها القرآن يجزم أنه من المستحيل أن يكون هذا الكتاب من تأليف النبي محمد ﷺ ، يشهد لذلك ما يلي :

** لقد كانت تنزل بالنبي محمد ﷺ نوازل من شأنها أن تحفِّزه إلى القول ، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم ، بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالاً ومجالاً ، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام ، ولا يجد في شأنها قرآناً يقرؤه على الناس .

ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة رضي الله تعالى عنها ، وأبطـأ الوحـي ، وطال الأمر والناس يخوضون ، حتى بلغت القلوب الحناجر ، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس " إني لا أعلم عنها إلا خيراً "

فماذا كان يمنعه ـ لو أن أمر القرآن إليه ـ أن يتقوّل هذه الكلمة الحاسمة مـن قبل ؛ ليحمي بها عرضه ويذب بها عن عرينه ، وينسبها إلى الوحي السماوي لتنقطع ألسنة المتخرصين ؟

ألا إنـه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله " ولو تقول علينا بعـض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم عنه حاجزين "

وصدق الله في التعليق على حادثة الإفك حين قال " لا تحسبوه شراً لكم بل هـو خير لكم ... " فأي خير أعظم من إثبات أن محمداً بن عبد الله ﷺ نبي مرسل ، لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ؟

** في أحوال أخرى كان يجيئه القول على غير ما يحبه ويهواه ، فيخطئه فـي الرأي الذي يراه ، ويأذن له في الشيء الذي لا يميل إليه ، فإذا تلبث فيه يسيراً تلقاه القرآن بالتعنيف الشديد والعتاب القاسي والنقد المر ، حتى فـي أقـل الأشـياء خطراً ، اقرأ ، وتأمل قول الله تعالى في أول سورة التحريم " يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك "

وقوله سبحانه في سورة الأحزاب " وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه "

وقوله عز من قائل في سورة التوبة " عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين"

وفــي ســورة الأنفــال " ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تــريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم* لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم "

وفــي ســورة عــبس " عبس وتولى* أن جاءه العمى* وما يدريك لعله يزّكى* أو يذَّكر فتنفعه الذكرى* أما من استغنى* فأنت له تصدَّى * وما عليك ألا يزّكى* وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى* فأنت عنه تلهَّى "

أرأيــت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه ، معبرة عن ندمه ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه . أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع ؟

ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه واستبقاء لحرمة آرائه ؟

بلى ! إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئاً من ذلك الوجدان ، ولو كان كاتماً شيئاً لكتم أمثال هذه الآيات ، ولكنه الوحي الذي لا يستطيع كتمانه " وما هو على الغيب بضنين "

وتأمل آية الأنفال المذكورة تجد فيها ظاهرة عجيبة ، فإنها لم تنزل إلا بعد إطــلاق أســارى بدر وقبول الفداء منهم ، وقد بدئت بالتخطئة والاستنكار لهــذه الفعلــة ، ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها وتطييب النفوس بها ، بل صارت هذه السابقة التي وقع التأنيب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها .

فهــل الحال النفسية التي يصدر عنها أول هذا الكلام ـــ لو كان عن النفس مصــدره ـــ يمكن أن يصدر عنها آخره ، ولما تمض بينهما فترة تفصل بين زمجرة الغضب والندم وبين ابتسامة الرضى والاستحسان ؟

وإن هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين لكان الثاني مــنهما إضراباً عن الأول ماحياً له ، ولرجع آخر الفكر وفقاً لما جرى به العمل ، فأي داع دعا إلى تصوير ذلك الخاطر الممحو وتسجيله ، على ما

فـــيه مـــن تقريع علني بغير حق ، وتنغيص لهذه الطعمة التي يراد جعلها حلالاً طيبة ؟

إن الـــذي يفهمـــه علمـــاء الـــنفس من قراءة هذا النص أن ها هنا ألبتة شخصيتين منفصلتين ، وأن هذا صوت سيد يقول لعبده : لقد أسأت ولكني عفوت عنك وأذنت لك .

وأنـــت لو نظرت إلى هذه الذنوب التي وقع العتاب عليها لوجدتها تنحصر في شيء واحد ، وهو أنه عليه السلام كان إذا ترجح بين أمرين ، ولم يجد فـــيهما إثمـــاً اختار أقربهما إلى رحمة أهله وهداية قومه وتأليف خصمه وأبعـــدهما عن الغلظة والجفاء وعن إثارة الشبه في دين الله ، فلم يكن بين يديه نص فخالفه عامداً ، أو جاوزه خطأً ونسياناً ، بل كل ذنبه أنه مجتهد بـــذل وســـعه فـــي النظر، ورأى نفسه مخيراً فتخير ، هبه مجتهداً أخطأ باختيار خلاف الأفضل أليس معذوراً مأجوراً ؟ على أن الذي اختاره كان هو خير ما يختاره ذو حكمة بشرية ، وإنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلهية .

فـــإن قـــيل : إن عمـــر اخـــتار الـــرأي الموافـــق للوحـــي في مسألة الأسرى ؟

أجـــيب : بأن اختيار عمر في هذه المسألة كان مظهراً من مظاهر الشدة التي كانت أغلب على طبعه ، وهذه الشدة كادت أن تفتنه عن أمر الله يوم الحديبية ، وهو يتعجب من قبول النبي ﷺ للشروط المجحفة التي اشترطها المشركون ، ويقول : ألسنا على الحق ؟ أليسوا على الباطل ؟ فلماذا نعطي الدنـــية فـــي ديـــنـــا؟ فموافقة قول عمر للوحي في مسألة الأسرى وغيرها مصادفة للحكم من غير مقدماته الحقيقية التي انفرد بها علام الغيوب .

** فـــي بعض الأحيان كان يجيئه الأمر المجمل أو الأمر المشكل الذي لا يســتبين هــو ولا أصحابه تأويله ، حتى ينزل عليهم ينزل عليهم من الله تعالى بيانه فيما بعد .

قل لي بربك ! أي عاقل توحي إليه نفسه كلاماً لا يفهم هو معناه ، وتأمره أمراً لا يعقل هو حكمته ؟ أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل ، وأنه مأمور لا آمر ؟ وإليك هذا المثال :

نــزل قوله تعالى " وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمــن يشاء ويعذب من يشاء " فأزعجت الصحابة إزعاجاً شديداً ، وداخل قلــوبهم مــنها شــيء لــم يدخلها من شيء آخر ؛ لأنهم فهموا منها أنهم سيحاســبون علــى كــل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها فقالوا : يا رســول الله : أنــزلت علينا هذه الآية ، ولا نطيقها ، فقال لهم النبي ﷺ : أتــريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير " فجعلوا يتضرعون بهذه الدعــوات حتى أنزل الله تعالى بيانها بقوله " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .... إلــى آخر سورة البقرة " وهنالك علموا أنهم إنما يحاسبون على ما يطــيقون مــن شأن القلوب ، وهو ما كان من النيات المكسوبة والعزائم المستقرة ، لا من الخواطر والأماني الجارية على النفس بغير اختيار.

فلــو كان النبي ﷺ يعلم تأويلها من أول الأمر لبين لهم خطأهم ، ولأزال اشــتباههم مــن فــوره ؛ لأنه لم يكن ليكتم عنهم هذا العلم ، وهم في أشد الحاجة إليه ، ولم يكن ليتركهم في هذا الهلع الذي كاد يخلع قلوبهم ، وهو بهــم رءوف رحيم ، ولكنه كان مثلهم ينتظر تأويلها ، ولأمر ما أخر الله عنهم هذا البيان ، ولأمر ما وضع حرف التراخي في قوله تعالى " ثم إن علينا بيانه "

الدليل العاشر

أسلـــوب القـــرآن

مهمـــا بحثْتَ فى القرآن ، وأَطلْتَ النظر فيه فلن تجد لفظاً ينبو عن السمع أو يتنافر مع ما قبله أو ما بعده ، وعباراته فى مطابقتها لمقتضى الأحوال فـــى أعلى مستوى بلاغي ، ويتجلَّى هذا لمن له ذوق عربي فى تشبيهاته وأمـــثاله وحججه ومجادلاته ، وفى إثباته للعقائد الحقة وإقحامه للمبطلين ، وهكـــذا فى كل معنى عبر عنه ، وهدف رمى إليه ، وحسبنا برهاناً على هذا شهادة الخبراء من أعدائه واعتراف أهل البيان والبلاغة من خصومه

الخطوط العامة حول أسلوب القرآن

مـــن يتأمل في لغة القرآن وأسلوبه يثق ثقة مطلقة بأن هذا القرآن من عند الله تعالى ، وإليك البيان .

** المبتدئ في طريق ليس له فيه تجربة سابقة ، ولا لأحد قبله ريادة فيه يختلف وضعه عن المجرب الخبير، أو من صاحب المجربين واستفاد من خبـــرتهم ، كمـــا يقال هذا في الحل والترحال يقال مثله عن عالم الأدب ، ولهـــذا كان حسان بن ثابت في الجاهلية أقوى شاعرية منه في الإسلام ؛ لأن المعاني التي كان يتحدث عنها في الجاهلية معان مُطروقة من شعراء قبله ، قالوا فيها كثيراً ، وفتحوا فيها آفاقاً استفاد منها فقال وأجاد .

أما في الإسلام فالوضع يختلف ، فقد أتى الإسلام بمفاهيم جديدة وقيم عليا تختلف تماماً عما عليه الحال في الجاهلية ، فكان إذن وهو يتحدث عن هذا

الشـــيء الجديـــد كلـــه رائداً غير مسبوق ، فشيء عادي أن يكون شعره الإسلامي أضعف من شعره الجاهلي .

** جـــرت عـــادة الناس أن لغة الأدب غير لغة القانون ، ولغة المخاطبة غيـــر لغة الشعر ، وطريقة التعبير عن القضايا العلمية تختلف عن طريق التعبيـــر في قضايا الخيال والتصور أو العاطفة ، وفي الأدب عادة يشطح الخيال فيقرب البعيد ويبعد القريب ، فيكون كذب وشطط وإسفاف .

** الأديـــب عادة ينتزع الصورة من بيئته ، ومن محيطه الذي يشاهده أو يسمعه ، فيحلل ويركب ويغوص ويحلل ويدقق ، ولكنه لا يخرج عن بيئته ومحيطه .

** أي شاعر تكلم وأي أديب قال أو تكلم لو عرض عليه ما قال بعد مدة من قوله أو كتابته لغير وبدل أو قدم وأخر ، وأي قول قيل يمكن أن ينتقده الناقدون ، فيرون كلمة أجود من كلمة ، وحرفاً أجود من حرف ، وجرساً أجـــود مـــن جرس ، ولا تخلو قصيدة قيلت من أن توجد كلمة فيها يوجد غيرها أفصح منها أو أدق تعبيراً أو أجود معنى .

في ضوء هذه الخطوط العامة للحكم على لغة معينة تدبر بتجرد معي ما يلي :

أولاً : القرآن لا يمكن أن يكون وليد البيئة العربية ، فما فيه من صور وأمثال جل عن طوق الفكر وبعد عن قدرة البشر ، خذ هذين المثالين :

المثال الأول : يقول سبحانه وتعالى " والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه

والله سريع الحساب * أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور "

إن هذا النص وخاصة المثل الثاني لا يمكن أن يكون وليد البيئة العربية ، ولا وليد العصر الذي وجد فيه ، ولتعرف لماذا ؟

اقرأ هذا التعليق : في هذه الآية إشارة إلى الأمواج الداخلية والسطحية فأضخم أمواج المحيط وأشدها رعباً هي أمواج غير منظورة تتحرك في خطوط سيرها الغامضة بعيداً في أعماق البحار ، وقد كان من المعروف منذ سنين كثيرة أن سفن البعثات إلى القطب الشمالي كانت تشق طريقها بكل صعوبة فيما كان يسمى بالماء الميت ، والذي عرف الآن بأنه أمواج داخلية . وفي عام ١٩٠٠ لفت الأنظار كثير من مساحي البحار الاسكندنافيين إلى وجود أمواج تحت سطح الماء ، والآن بالرغم من أن الغموض لا يزال يكتنف أسباب تكوين هذه الأمواج العظيمة التي ترتفع وتهبط بعيداً أسفل السطح ، فإن حدوثها على نطاق واسع في المحيط قد أصبح أمراً معروفاً جيداً ، فهي تقذف بالغواصات في المياه العميقة ، كما تعمل السطحية منها على قذف السفن. ويظهر أن هذه الأمواج تتكسر عند التقائها بتيار الخليج ، وبتيارات أخرى قوية في بحر عميق .

فالآية القرآنية تقول " في بحر لجي " إذن الكلام عن بحر عميق " يغشاه موج من فوقه موج " إذن أمواج داخلية وأمواج سطحية " من فوقه سحاب " إذن الكلام عن مكان يكثر فيه الضباب ، والصورة إنما تنطبق على الإنسان إذا كان تحت الأعماق ، أي تحت الأمواج الداخلية . فهل يتصور مثل هذا التصوير المعجز من رجل بالجزيرة العربية قبل أربعة عشر قرناً ؟

المثال الثاني :

يقول سبحانه " ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله " ويقول عز من قائل : " قل لو كان البحر مـداداً لكلمـات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً " .

مـثل هذه الصورة مما لا يخطر على قلب بشر في التعبير عن سعة علم الله بالكلمـات التي تعبر عن هذا العلم الذي لا يتناهى بهذا التصوير البالغ الـروعة الموجـز الواضـح السهل . " أن تنقلب الأشجار كلها أقلاماً ، والبحار كلها حبراً ، وفوق البحر أبحر ، وتبدأ الأقلام بالكتابة ، وينفد ماء البحر ، وتبقى بعد ذلك الكلمات التي لا تتناهى .

إن الأمـة التي كان تصورها عن الإله أن تصنع صنم التمر ثم تعبده ، ثم تأكلـه . لـيس بالإمكـان أن يصدر عن فرد من أبنائها مثل هذا التعبير والتصوير، ولكنه كلام الله .

ثانـياً : القرآن الكريم طرق معاني ما طرقها أحد من قبل أمة العرب .

فالمفـروض لو كان الأمر بشرياً أن يرى آثار ذلك من ضعف صياغة ، وقلب كلمات ، وتلعثم وتكلف إلى غير ذلك ، إلا أن الواقع غير ذلك ، فقد تحـدث القـرآن عـن الجنة والنار والملائكة والإنسان والجن والأخلاق والسياسـة والكفـر والإيمـان ، وتحـدث عـن الذات الإلهية ، وناقش المعارضين وأفحم المجادلين ، وهو في كل ذلك في أعلى طبقات البلاغة ، وفي أعظمها .

وكـل من أتى بعد ، وتحدث عن أي معنى طرقه القرآن كان فيما قال أقل إلى درجة الثلاثين إذا قيس ما قيل إلى لغة القرآن ، لدرجة أنك لا تستطيع

أن تجـد فـي اللغـة العربية كلها كلمة تحل محل الكلمة القرآنية بجمالها وجرسـها وما تعطيه من معنى ومناسبتها لما قبلها وبعدها . هذه البلاغة العظيمة كلها لم يرافقها شطحة فكر، ولا كذبة خاطر، ولا لفتة غير واقعية ، بل الحق الذي لا يناقش فيه واحد .

ونرى ذلك بشكل مطرد من أول القرآن لآخره ، كتاب ضخم لا يتخلف فيه حـرف عما قلناه ، وزيادة على ذلك فإن الكلمة القرآنية ، والآية القرآنية تكاد تعطيك معناها ، وإن لم تعرفه ، وتكشف لك عما فيها وإن لم تفهم ، فجـرس الحرف ، ومحل الكلمة فى الآية ، ومحل الآية فى السورة ، كل ذلك عجيب .

ومظهـر عجـبه أن هذا الكتاب على كونه أعلى طبقة من طبقات البلاغة عرفه الإنسان فإنه سهل لدرجة أنه يفهمه كل إنسان ، ولكن يأخذ منه على قـدر طاقته العقلية والروحية والقلبية . وكلما ارتقي أكثر كان في القرآن أكثـر ، وكلمـا أتى جيل وجد في القرآن جديداً تفهمه الأجيال كلها ، ولا تحـيط بما فيه الأجيال كلها وصدق الله : " ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر "

يقـرؤه عالم الاقتصاد المختص ، فيستخرج منه أرقى ما تترقى به الحياة الاقتصـادية للإنسـان ، ويكـتب فى ذلك كتاباً ضخماً وفى القرآن مزيد لمستزيد .

يقـرؤه عـالم الجيولوجيا فيجد فيه أعجب ما اكتشف علم الجيولوجيا فى القرن العشرين ، فيؤلف فى ذلك كتاباً ضخماً ، وفى القرآن مزيد لمستزيد

ويقـرؤه عـالم الفلك فيجد فيه أعجب ما عرف الإنسان فى الفلك ، وفى القرآن مزيد ...

ويقــرؤه عــالم الاجتماع فيرى أن الحياة الاجتماعية إذا خرجت عن سنن القرآن كان فى ذلك دمارها .

ويقرؤه أصحاب كل تخصص ، فيرون أنهم لا يسعهم أن يكونوا إلا تلاميذ صغاراً ولا يحيطون بأسرار علماً .

ويقرؤه الرجل العادي فيفهمه ، فيتذكر، ويبكي ، ويتعظ .

إنــه كتاب كل إنسان ، وإن كان بيانه أرقى من كل بيان ، وكلمته أفصح مــن كــل كلمة ، حتى أنك لو فتشت في كل قواميس اللغة عن كلمة تحل محل الكلمة القرآنية ، فتكون أجمل منها أو أحكم أو أفصح أو حاولت أن تقــدم كلمــة مــنه عن محلها أو تحذفها أو تؤخرها بحيث يكون ما فعلت أحســن ممــا كان ، فإنك لا تستطيع مهما بذلت من جهد ، بل تنقطع أنت وشيطانك ، ويبقى القرآن هو القرآن .

أخي الإنسان !

لا اختلاف في أن كل كلام يدل على شخصية قائله ، أهو رجل أم امرأة ؟ شــاب أم شــيخ ؟ حضــري أم بــدوي ؟ سعيد أم محزون ؟ عميق أم ســطحي ؟ ومن هنا وجدنا بعض النقاد يعزون بعض القصائد إلى قائليها بالحس النقدي الأدبي ، فتكون كما حدسوا .

تفكــر في هذا ، ثم اسأل نفسك ! عن أي شخصية بشرية يمكن أن يصدر هذا القرآن ؟

إن أي قارئ للقرآن ــ له عقل وحس ــ يستيقن أنه ليس من كلام بشر ، وأنه متميز عن كلام الرسول ﷺ الذي يتمثل في الحديث النبوي ، وإن كان في ذروة البلاغة البشرية ، وإن وجود آية قرآنية ضمن حديث نبوي يجعل

لهــا نوراً خاصاً يحس به من يقرؤها أو يسمعها ، ويشعر أنها ليست من جنس ما قبلها وما بعدها .

ولقد قرأ بعض الأجانب المنصفين القرآن فقال : لو وجد هذا المصحف في فلاة لعلم قارئه أنه كلام الله .

وقالت (نبيا أبوت) أستاذة الدراسات السامية بجامعة الملكة في كاليفورنيا في كتابها عن الخط العربي : القرآن مهما كان محتواه فإنه ليس من صنع البشر ، فإذا أنكرنا كونه من الله فمعناه : أننا اعتبرنا محمداً هو الإله !!

ومن روائع ما قاله الإمام ابن القيم عن (الخطاب القرآني) قوله فى كتابه (التبيان فى أقسام القرآن) :

" تأمل خطاب القرآن تجد ملكاً له الملك كله ، وله الحمد كله ، أزمة الأمور كلهــا بــيده ، ومصدرها منه ، ومورده إليه ، مستوياً على العرش ، لا تخفــى عليه خافية من أقطار مملكته ، عالماً بما فى نفوس عبيده ، مطلعاً على أسرارهم وعلانيتهم ، منفرداً بتدبير المملكة ، يسمع ويرى ، ويعطى ويمنع ، ويثيب ويعاقب ، ويكرم ويهين ، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيى ، ويقــدر ويقضــى ، ويدبــر ، الأمور نازله من عنده ، دقيقها وجليها ، وصــاعدة إلــيه ، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه ، فــتأمل كيف تجده يثنى على نفسه ، ويمجد نفسه ، ويحمد نفسه ، وينصح عــباده ، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ، ويرغبهم فيه ، ويحذرهم ممــا فيه هلاكهم ، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته ، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائــه ، يذكــرهم بــنعمه عليهم ، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها ، ويحــذرهم من نقمه ، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه ، وما أعــد لهم من العقوبة إن عصوه ، ويخبرهم بصنعه فى أوليائه وأعدائه ، وكــيف كانــت عاقبة هؤلاء وهؤلاء ، ويثنى على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم ، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم ، ويضرب

الأمثال ، وينوع الأدلة والبراهين ، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة ، ويصدق الصادق ، ويكذب الكاذب ، ويقول الحق ويهدى السبيل ، ويدعو إلى دار السلام ، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها ، ويحذر من دار البوار ، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها ، ويذكر عباده فقرهم إليه ، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه ، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين ، ويذكرهم غناه عنهم وعن جميع الموجودات ، وأنه الغنى بنفسه عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه .... " أ . هـ

أخي !

هل الكتاب الذي يتضمن هذا الكلام وتلك المعاني يصدر عن بشر ؟ اللهم لا .

وأما قوة تأثيره فى النفوس وسلطانه على القلوب فهذا يشعر به كل منصف ذي وجدان ، وحسبنا برهاناً على هذا أنه لا يمل سماعه ، ولا تبلى جدته .

يؤيد هذا أن المشركين فى مكة مع شركهم واستكراه نفوسهم لعدم الإقرار به ينجذبون إليه ، ويريدون أن يسمعوه ؛ استطابة لما فيه من لفظ ذي نغم يجذب وعبارات مشرقة ، ونظم منفرد أجمل من سمط اللآلئ ، ولأنهم عرفوا ميلهم إلى استماعه وأثره فى نفوسهم تواصوا ألا يسمعوه ، ولكن الذين تواصوا ذلك التواصي ذهب كل واحد منهم منفرداً ، ولكن الاستخفاء استعلن عندما التقوا جميعاً ، ورأوا أنفسهم مجتمعين ، وليس كل منهم منفرداً ، وقد علموا أن التواصي على عدم الاستماع لا جدوى فيه ، فتواصوا على الجحود والإنكار ، فلم يكن تواصيهم على الحق ، ولكنه كان على الباطل .

الدليل الحادي عشر

الإعجاز التشريعي

المتأمل لما جاء في القرآن من أحكام وتشريعات يقطع بأن ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ أعلى وأكمل مما جاء به من قبله من جميع الأنبياء والحكام والحكماء ، فهو برهان عملي على أنه من عند الله تعالى ، لا من فيض استعداده الشخصي ، وحتى يتبين لنا ذلك فسنلقي الضوء هنا على بعض مقاصد القرآن ، مع الأخذ في الاعتبار أن هذه المقاصد قد أفاض في بيانها الأستاذ الشيخ رشيد رضا ـ رحمه الله ـ في كتابه " الوحي المحمدي " وهو مطبوع بمطابع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٤٢٤هـ ، كما أجمل القول فيها فضيلة الدكتور / يوسف القرضاوي في كتابه " كيف نتعامل مع القرآن العظيم " طبعة دار الشروق ٢٠٠٥ .

المقصد الأول : بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة

إن أركان الدين الثلاثة التي بعث الله عز وجل بها جميع الأنبياء والمرسلين ، وناط بها سعادة جميع البشر هي : الإيمان بالله تعالى ، وعقيدة البعث والجزاء ، والعمل الصالح ، ومن يتأمل ما جاء به القرآن سيجد أنه أتم وأكمل من المعروف في سائر الأديان ، وفيه صلاح لما أفسده الناس من دين الأنبياء ، وما ابتدعوا فيه .

الركن الأول للدين : الإيمان بالله تعالى :

وهذا هو الركن الأعظم للدين ، وقد ضلت فيه جميع الأقوام ، حتى أقربهم عهداً بهداية الرسل .

أمــا القــرآن الكريم فقد هدم معاقل الوثنية وحصونها المشيدة في القلوب والأفكــار ، ولــذلك فقــد كان أكثر المسائل تكراراً في القرآن هي مسألة توحــيد الله عز وجل في ألوهيته بعبادته وحده ، واعتقاد أن كل ما سواه من الموجودات سواء في كونهم ملكاً وعبيداً له ، لا يملكون من دونه نفعاً ولا ضــراً لأحد ، ولا لأنفسهم إلا فيما سخره من الأسباب المشتركة بين الخلق .

وأمــا تكــرار توحــيد الربوبية ، وانفراده تعالى بالخلق والتقدير والتدبير والتشــريع فلــيس لإقناع المعطلين والمشركين بربوبيته تعالى فقط ، بل أكثــره لإقامــة الحجة به على بطلان شرك العبادة بدعاء غير الله تعالى لأجل التقرب إليه بأولئك الأولياء وابتغاء شفاعتهم عنده ، فشر الشرك إنما هو توجه العبد إلى غير الله تعالى فيما يشعر بالحاجة إليه من كشف ضر وجلــب نفــع من غير طريق الأسباب ، ولذلك فقد ذكر الدعاء في القرآن أكثر من سبعين مرة ؛ لأنه روح العبادة ومخها ، بل هو العبادة التي هي دين الفطرة كله .

إن عقيدة التوحيد القرآني هي أعلى المعارف التي ترقى الإنسان إلى أعلى مــا خلــق مســتعداً له من الكمال الروحي والعقلي ، وذلك لسهولة فهمها وموافقتها للعقل والفطرة .

الركن الثاني : عقيدة البعث والجزاء :

وهــو الركن الثاني للدين ، وهو من لوازم الركن الأول ، إذ أن الله تعالى يتصف بجميع صفات الكمال ، وهو منزه عن العبث في أفعاله وأحكامه ، فكفــر الإنسان بالبعث والجزاء يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله ، وقد كان مشــركوا العــرب ينكرون البعث والجزاء ، ومع أن أهل الكتاب يؤمنون بحياة بعد الموت وجزاء ، إلا أن إيمانهم هذا قد اختلط به شيء ذهب بجل

فائدتـــه فـــي إصـــلاح الناس ، هو اعتقادهم بوجود المخلص الفادي الذي يخلـــص الناس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه ، وهو الأقنوم الثاني من الثالوث الإلهي الذي هو عين الأول والثالث ، وكل واحد منهما عين الآخر ، وقـــد سبق أن أشرنا إلى التشابه الغريب بين ما يقوله النصارى في فداء المســـيح للبشـــر وغيـــر ذلك من ولادته إلى رفعه ، وما يقوله الهنود في كرشنة وبوذا.

وأما اليهود فكل ديانتهم خاصة بشعب إسرائيل ، وزعموا أن الله تعالى قد حاباهم على سائر البشر في الدنيا والآخرة ، ويسمونه إله إسرائيل ، كأنه ربهـــم وحدهم لا رب العالمين ، فكان فساد الإيمان بهذا الركن من أركان الدين تابعاً لفساد ركن الإيمان بالله تعالى ومعرفته ومحتاجاً إلى الإصلاح مثله .

جـــاء القرآن وهذه عقائد البشر في البعث والجزاء ، فأعاد دين الأنبياء في الجـــزاء إلـــى أصله المعقول ، وهو ما كرم الله تعالى به الإنسان إذ جعل ســـعادته وشقاوته منوطين بإيمانه وعمله اللذين هما من كسبه وسعيه ، لا مـــن إيمـــان غيـــره وعمله ، وأن الجزاء على الكفر والظلم والفساد في الأرض يكـــون بعـــدل الله تعالى بين جميع خلقه بدون محاباة شعب على شـــعب والجزاء على الإيمان والأعمال الصالحة يكون بمقتضى الفضل ، فالحسنة بعشر أمثالها ، وقد يضاعفها الله تعالى أضعافاً كثيرة .

وبيَّن القرآن أن ما جاء به من الإصلاح هو ما أوحاه الله تعالى إلى إبراهيم أبـــي الأنبـــياء المعروفين الذي كان الأنبياء من بعده على شرعه ، ومنهم موســـى وعيسى عليهما السلام ، يقول سبحانه " أم لم ينبأ بما في صحف موســـى* وإبـــراهيم الذي وفى* ألا تزر وازرة وزر أخرى* وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى " أي أن أصـــل ديـــن الله لجمـــيع الأنبـــياء أنـــه لا تحمـــل نفـــس وازرة

ـــــ أي خاطئة ـ خطيئة نفس أخرى بفداء ولا غيره ، وأنه ليس للإنسان إلا سعيه وعمله فلا يجزى بعمل غيره .

الركن الثالث للدين : العمل الصالح .

والعمل الصالح من لوازم الإيمان بالله بالدرجة الأولى ؛ لأن من عرف الله تعالى عرف استحقاقه للحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم ، وكل من الإيمان والعمل يغذي الآخر ويقويه ، ويتوقف كمال كل منهما على الآخر : فمن فسد إيمانه فسد عمله ، وكان رياءً ونفاقاً وتقليداً صورياً .

كما أن العمل الصالح من لوازم الإيمان بالجزاء على الأعمال في الدرجة الثانية ؛ خوفاً من العقاب ورجاء في الثواب.

روى الإمام أحمد والطبراني في الكبير أن صعصعة بن معاوية أتى النبي ﷺ فقرأ عليه " فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره " فقال : حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها .

وروي أن بعض الأعراب سمع النبي ﷺ يقرؤها فقال : يا رسول الله : أمثقال ذرة ؟ قال : نعم ! فقال الأعرابي : واسوأتاه ! ثم قام وهو يقولها ، فقال النبي ﷺ : لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان "

ويدخل في الأعمال الصالحة العبادات المفروضة التي يتقرب بها العباد إلى الله تعالى ، كما يدخل فيها سائر أعمال البر التي ترضيه بمالها من التأثير في صلاح البشر كبر الوالدين وصلة الرحم وإكرام اليتامى والمساكين .

وإن أردت زيادة بيان فاقرأ بتجرد الوصايا الجامعة التي تضمنتها سورة الإسراء لتتبين لك العظمة والكمال في الحث على الفضائل والزجر عن الرذائل والمعاصي الضارة بالأبدان والأموال والعقول والأعراض والأديان.

المقصد الثاني

تصحيح عقيدة البشر في النبوة والرسالة

* قـــرر القـــرآن أن النبوة اصطفاء واجتباء لبعض البشر ، يختص الله تعالـــى بـــه من يشاء من عباده ، تفضلاً منه ورحمة بهم ، دون قيد على إرادته في شخص الرسول ، ولا في جنسه ، ولا في لونه " الله أعلم حيث يجعل رسالته" و" لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون " و" الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب " .

* بعث الله تعالى في كل أمة نذيراً ، مهمته تبليغ رسالة الله تعالى ، وليس بمســيطر علـــى الأقوام ، وأما التشريع فهو حق لله تعالى وحده ، وطاعة الأنبـــياء تابعة لطاعة الله ، وصرح في كثير من سور القرآن بأن الرسل بشر مثل سائر البشر ، لكنهم يوحى إليهم ، وهم ليسوا إلا مبلغين لدين الله ، " وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين " أي هم مبشرون ومنذرون بالقـــول والعمل وليسوا متصرفين في الكون بالنفع والضر بأنفسهم ، ولا بتأثيـــرهم فـــي إرادتـــه تعالـــى ، وقد بين ذلك النبي ﷺ بأقواله وأعماله وأخلاقـــه فـــي العبودية والتواضع بما لا يدع لتأويل الآيات سبيلاً ، حتى فطـــن بعض علماء الإفرنج الأحرار لذلك فقال : إن محمداً لما رأى خزي النصـــارى بتألـــيه نبيهم وعبادته لم يكتف بتلقيب نفسه برسول الله ، حتى أمرهم بأن يقولوا : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

* أنكر القرآن الشفاعة التي أثبتها أهل الكتاب لأنبيائهم وقديسيهم في الدنيا والآخـــرة ، وأبطلها ، وأثبت أن الشفاعة لله جميعاً ، وأنه لا يشفع أحد إلا بإذنه ، وقد ضل في هذه المسألة الملايين من البشر ، فأشركوا بالله ما لا يضـــرهم ولا ينفعهم ، فهل كان هذا مما استمده محمد ﷺ من علماء أهل

الكتاب ، فجادوا به عليه ، وبخلوا به على أقوامهم ؟ أم هو نابع من نفسه ، وهـو يقتضـي أن مـا ينبع منها أعلى من وحي الله لغيره على حسب دعوى أتباع هؤلاء الرسل ؟

كلا ! إنما هي من وحي الله تعالى .

* أوجـب القرآن الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين ، وحظر التفرقة بينهم فـي الإيمان ، واعتبر الإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم كالكفر بهم كلهم ؛ لأن إضـافتهم إلى الله تعالى واحدة ، ووظيفتهم في تبليغ الرسالة واحدة " آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله" وفي سورة النساء (الآيات ١٥٠-١٥٢) بين أن التفرقة بينهم في الإيمان هي الكفر كل الكفر ، وأن الإيمان بالجميع بغير تفرقة هو الإيمان حق الإيمان .

وقـد انفـرد بهـذه الحقيقة العادلة المسلمون ، دون أهل الملل الوثنية من المجـوس والهـندوس، ودون أهل الكتاب الذين لا يؤمنون إلا بأنبياء بني إسرائيل وأبيهم وجدهم .

أما المسلمون فيؤمنون بأن رب العالمين أرسل في كل الأمم رسلاً هادين مهديين ، فهم يؤمنون بهم إجمالاً ، وبما قصه القرآن عن بعضهم تفصيلاً ، وقـد كـرم الإسلام بهذا نوع الإنسان ، ومهد به السبيل للألفة والأخوة الإنسـانية العامـة ، فالمسـلم حبيب لجميع الأنبياء والمرسلين في الدنيا والآخرة ، وتجاه هذا يصح أن يقال : إن غير المسلم عدو لله ولهم كلهم ؛ لأن تكذيبه لبعضهم تكذيب لرسالتهم ولمرسلهم سبحانه .

المقصد الثالث

تقرير كرامة الإنسان وحقوقه

أولاً : أكد القرآن أن الإنسان مخلوق كريم على الله ، فقد خلق آدم بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وجعله في الأرض خليفة ، واستخلف أبناءه من بعده ، وهي منزلة تطلعت إليها أنظار الملائكة ، فلم تمنح لهم ؛ لأنهم لم يؤهلوا لهـــا ، إنمـــا أهل لها آدم وبنوه الذين سخر لهم كل ما في الكون : أرضه وسمائه .

ثانــــياً : قرر القرآن منذ أربعة عشر قرناً ما تتغنى به الإنسانية اليوم ، ويظـــنه بعـــض الجاهلين من ثمار العصر الحديث ، وهو ما يطلق عليه (حقوق الإنسان) .

* فقـــرر حـــق الإنســـان فـــي حرية النظر والتفكير" قل انظروا ماذا في السماوات والأرض " .

* وحقه في حرية الاعتقاد " لا إكراه في الدين "

*وحقـــه في حرية القول والأمر والنهي " يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر"

*وحقـــه في المساواة بغيره من الأجناس والألوان والأنساب " فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون "

* وحقه في الاستمتاع بالطيبات من الرزق وبزينة الله التي أخرج لعباده " قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده "

*وحـــق الإنسان في الزواج وتكوين الأسرة ، رجلاً كان أو امرأة " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها "

*وحـــق الإنسان ــ بعد الزواج ــ في الإنجاب والذرية " وجعل لكم كمن أزواجكم بنين وحفدة "

* وحـــق الذرية في الحياة ، بنين كانوا أو بنات ، ولهذا حمل القرآن على أهـــل الجاهلية الذين كانوا يئدون البنات ، ويقتلون الأولاد من إملاق واقع أو خشـــية إمـــلاق مـــتوقع " ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً "

* وحق كل إنسان في الحياة ما لم يرتكب جرماً موجباً إباحة دمه شرعاً " ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق "

* وحـــق كـــل إنســـان في العمل والمشي في مناكب سعياً لكسب رزقه " فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه "

* وحـــق كـــل إنســـان في أن يتمتع بثمرة ما كسب من حلال عن طريق الـــتملك رجلاً كان أو امرأة " للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن"

* وحـــق الإنســـان في احترام مسكنه الخاص وعدم دخوله إلا بإذنه " لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها "

* وحـــق الإنسان في صيانة دمه وماله ، وحماية ملكه الحلال " لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم "

* وحق الإنسان في صيانة عرضه وكرامته " لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن "

* وحـــق الإنســـان في الدفاع عن نفسه " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله "

* وحـــق الإنســـان في العدل والإنصاف ، ولو كان كافراً أو عدواً " وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل "

* وحـــق الإنســـان فـــي كفاية العيش إن كان عاجزاً أو فقيراً في أموال الـــواجدين من الأفراد " والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم " وفي أموال الدولة من الغنائم والفيء .

* وحـــق الإنســـان فـــي إنكار المنكر ورفض الفساد ومقاومة الظلم البين والكفر البواح " ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار "

ثالثاً : اعتنى القرآن عناية فائقة بحقوق الضعفاء من بني الإنسان خاصة ، خشـــية أن يجور عليهم الأقوياء ، أو يهمل أمرهم الحكام والمسئولون " فأما اليتيم فلا تقهر" ولم يكتف القرآن بإيجاب إطعام المسكين ، بل أوجب الحض على ذلك والدعوة إليه " أرأيت الذي يكذب بالدين* فذلك الذي يدع اليتيم*ولا يحض على طعام المسكين "

أخي الإنسان !

تأمـــل بتجـــرد ما حفل به القرآن من الثناء على الله جل شأنه ، والتذكير بواســـع علمه وبالغ حكمته ، والترغيب في القيام بعبوديته والوقوف على عتبته والرجاء في فضله ، والاستغراق في حبه والأنس به ، والشوق إليه ، والاطمئنان بذكره ، والاجتهاد في شكره وحسن عبادته والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والصبر على بلائه ، والرضا بقضائه.

فهـــل هناك كتاب آخر من الكتب المقدسة أو من غيرها يسبق القرآن في ذلك أو يضاهيه ، أو حتى يقاربه ؟ اللهم لا .

أخي الإنسان !

أرأيت إلى دعوة القرآن المستمرة إلى تزكية النفس البشرية وتطهيرها من قسـوة الجاهلـية وغلظـتها ، وتطهيـر الإرادات من الشهوات البهيمية والنزوات السبعية ، وتطهير السلوك من رذائل الجاهلية ، وأخلاق النفاق ؟ أرأيـت إلـى أخلاق المؤمنين التي جلاها القرآن في أوائل سورة الأنفال والمؤمـنون وأواسـط الـرعد والـذاريات وأواخـر الفرقان والحجرات وغيرها ؟

هـل يخفـى عليك أن صلاح الأمم والمجتمعات إنما هو بصلاح أفرادها وصـلاح الأفراد إنما هو بصلاح أنفسهم التي بين جنوبهم ؟ أي أن الفلاح في الأولى والآخرة يتوقف على تزكية هذه الأنفس ، حتى تنتقل من النفس الأمارة بالسوء إلى النفس اللوامة إلى النفس المطمئنة.

أخي الإنسان !

أرأيـت إلى ما جاء به القرآن في شأن إنصاف المرأة وتحريرها من ظلم الجاهلية ، ومن تحكم الرجل في مصيرها بغير حق ؟
لقـد كرم المرأة وأعطاها حقوقها بوصفها إنساناً ، وكرمها بوصفها أنثى ، وكـرمها بوصفها بنتاً ، وكرمها بوصفها زوجة ، وكرمها بوصفها أماً ، وكرمها بوصفها عضواً في المجتمع .
وقـد كانـت النساء قبل الإسلام مظلومات ممتهنات مستعبدات عند جميع الأمـم وفي جميع شرائعها وقوانينها ، حتى عند أهل الكتاب ، حتى جاء الإسلام ، فأعطى الله النساء بكتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ وبسنة هذا

الرسول ﷺ التي بينت كتاب الله تعالى بالقول والعمل جميع الحقوق التي أعطاها للرجال إلا ما يقتضيه اختلاف طبيعة المرأة ووظائفها النسوية من الأحكام ، مع مراعاة تكريمها والرحمة بها والعطف عليها ، حتى روي أن النبـــي ﷺ قال : ما اكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم " رواه ابن عساكر من حديث علي رضي الله تعالى عنه .

أيـــن هذا مما كان عليه حال كثير من البشر من الغربيين وغيرهم ، حيث كانـــوا يعـــدون المـــرأة من الحيوان الأعجم أو من الشياطين لا من نوع الإنسان ؟ وبعضهم كان يشك في ذلك ، فأتاهم محمد بن عبد الله ﷺ يتلو عليهم قول الله تعالى " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى "

وكان بعض البشر في أوربا وغيرها يرون أن المرأة لا يصح أن يكون لها ديـــن ، حتـــى كانـــوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسمياً ، فجاء الإســـلام يخاطـــب بالتكالـــيف الدينية الرجال والنساء معاً بلقب المؤمنين والمؤمـــنات والمسلمين والمسلمات ، وما قدمه الإسلام للمرأة أكثر من أن نلخصه في هذه التذكرة اليسيرة .

أخي الإنسان !

إذا عجـــز حكماء هذا العصر وعلماء الاجتماع والأخلاق والمؤرخون من أحرار الغرب وغيرهم عن إخبارنا بوجود رجل مثل محمد ﷺ فيما علم مـــن تاريخه المعروف ، جاء بمثل هذا القرآن في خصائصه ، ولا سيما التعاليم التي لخصنا بعضاً منها قبل قليل ، وقدر أن ينفذها ويربي بها أمة كالعرب ، حتى كان لها بها من الأثر الديني والمدني في العالم مثل أثرها ــ وإنهم لعاجزون عن ذلك قطعاً ــ أفلا يكون عجزهم هذا برهاناً على أن دين محمد وكتاب محمد وهدي محمد وتربية محمد للأمة العربية بما قلب

به نظم العالم الإنساني كلها ، وحولها إلى ما هو خير منها ، كل أولئك من خوارق العادات وما لا يقبل المراء الظاهر من المعجزات ؟ بلى .

الدليل الثاني عشر

الصفات الأساسية لمحمد ﷺ

المـتأمل فـي صفات النبي محمد ﷺ الأساسية يجزم أنه رسول الله حقاً وصدقاً ، وهذه الصفات كثيرة أهمها:

الصفة الأولى :

الصـدق المطلق الذي لا ينقض في كل حال ، بحيث لو امتحن كل قول له لكان مطابقاً للواقع ، إذا وعد أو عاهد أو داعب أو جد أو أخبر أو تنـبأ ، وإذا انتقضـت هـذه الصفة في أي موضع فإن هذا يعني انتقاض دعـوى الرسالة من أساسها ؛ لأن الناس لا يثقون برسول غير صادق ، والرسول الصادق لا يمكن أن تجد في أي جزء من أجزاء كلامه شيئاً من الباطل في أي حال من الأحوال ، وفي أي جانب من الجوانب .

ويـدل علـى الثقة المطلقة بصدق النبي ﷺ ظاهرة الإيمان به من قبل من حاربوه واحداً واحداً طواعية لا إكراهاً ، أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ؛ ذلك أنهم ما كانوا يشكون في صدقه ، بل إنهم فوجئوا بشيء لم يسمعوا به ولا آباؤهم فأنكروه ، فلما ذهب هول المفاجأة وحكموا عقولهم التقـى صدق الفكر بالثقة المطلقة بصدقه ﷺ فتولد عن ذلك إيمان ، ولذلك لمـا سأل هرقل أبا سفيان عن النبي محمد ﷺ : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان : لا .

فقـــال **هرقل :** عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى " الحديث عند البخاري ومسلم .

وقـــد شهد له الخصوم في زمنه بالصدق ، ثم تواترت الأخبار عن أتباعه بصـــدقه فـــي كل ما قال ، ثم انظر إلى نموذج من حديثه في شأن قضية علمية صدقتها علوم عصرنا :

يقول ﷺ في الحديث الصحيح " إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه ، ثم لينزعه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء "

إن هـــذا الحديث ذكر قضيتين كلتاهما لم يكن معروفاً في الزمن الذي قيل فـــيه هـــذا الحديث ، أولاهما : أن الذباب ناقل داء وهذا شيء أصبح الآن معـــروفاً لـــدى الجميع . والثانية : وهي التي يجهلها الكثيرون ، وهي أن الـــذباب يحمل مضادات للجراثيم من النوع الممتاز كذلك ، وقد حقق هذه القضـــية كثير من العلماء المسلمين وغير المسلمين . وخلاصة أبحاثهم ما يلي :

١- يقـــع الذباب على الفضلات والمواد القذرة والبراز وما شابهه فيحمل بأرجله أو يمج كثيراً من الجراثيم المرضية الخطيرة .

٢-يقـــع الـــذباب علـــى الأكل فيلمس بأرجله الملوثة الحاملة للمرض هذا الطعام أو هذا الشراب فيلوثه بما يجمل من سم ناقع .

٣-فإذا حملت الذبابة من الطعام وألقيت خارجـــه دون غمس بقيت هـــذه الجـــراثيم فـــي مكان سقوط الذبابة ، فإذا التهمها الآكل وهو لا يعلم طبعاً دخلـــت فـــيه الجراثيم ، فإذا وجدت أسباباً مساعـــدة تكاثرت ثم صـــالت وأحدثت لديه المرض ، فلا يشعر إلا وهو فريسة للحمى.

٤- أمـــا إذا غمســـت الذبابة كلها أو مقلت في الطعام فماذا يحدث ؟ إذا غمســـت الذبابة أحدثت هذه الحركة ضغطاً داخل الخلية الفطرية الموجودة مع جسم الذبابة ، فيزداد توتر البروز والسائل داخلها زيادة تؤدي لانفجار الخلايا ، وخروج الانزيمات الحالة لجراثيم المرض والقاتلة له ، فتقع على الجراثيم التي تنقلها الذبابة بأرجلها فتهلكها وتبيدها ، ويصبح الطعام طاهراً من الجراثيم المرضية .

٥- وهكـــذا يضع العلماء بأبحاثهم تفسيراً لهذا الحديث الذي يؤكد ضرورة غمس الذبابة كلها في السائل أو الغذاء ليخرج من بطنها الدواء الذي يكافح ما تحمله من داء ، والمعروف منذ زمن بعيد أن بعض المؤذيات يكون في ســـمها نفـــع ودواء ، فقـــد يجتمع الضدان في حيوان واحد ، فالعقرب في إبـــرتها سم ناقع ، وقد يداوى سمها بجزء منها ، والنحلة يخرج من بطنها شراب نافع ويكمن في إبرتها السم الناقع .

الصفة الثانية :

الالتزام الكامل بما يدعوا إليه نيابة عن الله ؛ إذ مهمة الرسالة تبلـــيغ الناس ما كلفهم به الله ، فإذا لم يقم الرسول نفسه بهذه التكاليف دل ذلك على عدم تفاعله مع التكليف ، وهذا دليل كذبه في دعوى الرسالة ؛ إذ الرسول الذي يتصل به الله أعرف بجلال الله ، وبالتالي لا يعصي له أمر ؛ لأن عصيان أمر الله خيانة ، وغير الأمناء ليسوا أهلا لحمل رسالة الله .
وقـــد شهدت البشرية في تاريخها الطويل انفصالاً بين المثل والواقع ، بين المقـــال والفعـــال ، بـــين الدعـــوى والحقيقة ، وكان دائماً المثال والمقال والدعوى أكبر من الواقع والفعال والحقيقة ، وهذا شيء يعرفه كل من له

أدنـــى معـــرفة بالـــتاريخ والحياة ، غير أن هذه الظاهرة فقدت تماماً في حـــياته ﷺ ، فواقعه أعظم من كل تصور نظري ، فقد مثل ما دعا الناس إلـــيه فـــي ســـلوكه العملي بشكل رائع عجيب ، ونحن في غنى هنا عن التعـــرض هنا لذكر أمثلة لتطبيقه لأوامر الله تعالى في القرآن ، ولما طلبه من الناس في سنته ﷺ ؛ لأنها أكثر من أن تحصر .

فقـــد كـــان يقوم بكل أمر بما لا يسبق إليه مع إحاطته وعدم تفريطه بأي جانـــب مـــن جـــوانب الإسلام الذي كلف به وأمر أن يدعو إليه حتى أن الـــدارس المنصـــف لحياته ﷺ في هذا الجانب لا يتمالك إلا أن يشهد أنه رسول الله حقاً.

<u>الصفة الثالثة :</u>

التبلـــيغ الكامل المستمر لمضمون الرسالة وعدم المبالاة معه بســـخط الناس أو تعذيبهم أو إيذائهم أو كيدهم أو مؤامراتهم أو إرجافهم ، والاســـتقامة علـــى أمـــر الله وعدم الانحراف عنه مهما كانت المغريات والاســـتمرار علـــى ذلـــك ؛ إذ بـــدون التبليغ لا تظهر الرسالة ، وبدون الاستمرار عليه والصبر لا تستقر ، والخضوع لضغط الناس أو لإغرائهم دلـــيل كذب دعوى البلاغ عن الله ؛ إذ لا يبلغ رسالة الله إلا من رغب بالله عن غيره وكان الله وحده هو العظيم عنده ولا يبالي بغير رضاه .

فقـــد سلك رسول الله ﷺ كل طريق سليم لتبليغ دعوة الله تعالى على الوجه الأكمل ، وسلك الناس في المقابل كل طريق يخطر بالبال ليثنوه عن القـــيام بأمر الله فلم يفعل ، فقد اتصل بالأفراد اتصالاً شخصياً ، وعرض نفســـه علـــى قبائل العرب ، ورحل من أجل تبليغ الدعوة ، وتتبع مواطن اجـــتماع الناس ليبلغهم ، وأرسل الرسل نيابة عنه لتبليغ الدعوة ، واستقدم

الوفــود ليأخذوا عنه ويرجعوا مبلغين ، وراسل الأمراء والملوك داعياً لهم إلى الله ، وكلف أصحابه أن يتعلموا ويعلموا ، وأمر جنده ألا يحاربوا قبل أن يدعوا إلى الإسلام ، ثم حمّل جميع المسلمين أمانة التبليغ ليبلغوا العالم دعوة الله ، حتى لا يبقى أحد من البشر إلا وقد بُلّغ ، وقامت عليه الحجة .

وفــي المقابل ما ترك الآخرون طريقاً إلا سلكوه لإنهاء الدعوة والداعية ، فقــد سلكوا طريق الإيذاء له ولأتباعه ليثنوه عن التبليغ فما فعل ، وسلكوا طريق الإغراء ليثنوه عن التبليغ فما فعل ، وسلكوا طريق الضغط العائلي ليثــنوه عــن التبلــيغ فمــا فعل ، وسلكوا طريق الاستهزاء والإعراض والســخرية والاتهامــات ليثنوه عن التبليغ فما فعل ، وسلكوا معه طريق المقاطعــة الشاملة له ولمن آزره ليثنوه عن التبليغ فما فعل ، وقرروا قتله وملاحقته ليثنوه عن التبليغ فما فعل ، وطال الزمن والمستجيبون قليلون ، والجمــيع يحــاول إيئاســه واســتمر ، ثــم حاربوه ليستأصلوا دعوته ، ويستأصلوه ، فصبر واستمر رغم هذا كله ، ثم انتصر وانتصر دينه ، ولا يــزال ينتصر ويتقدم رغم الأوضاع السياسية السيئة للمسلمين ، ولك ذلك ببركات الداعية المبلغ الأول ﷺ .

كيف تكون هذه الصفة دليلاً على نبوته ﷺ ؟

إن عملية تبليغ الرسالة عند الرسول ﷺ دليل دامغ على صدقه في كونه مرسلاً من عند الله تعالى ؛ لأن غير الرسل يدعون الناس إلى شيء تألفه نفوســهم وتهواه ، أي أنهم يأتون الناس من قبل ما يشتهون ، فلا يعانون شــيئاً ولا يحتاجون إلى تضحية ، وأحياناً يضحون ، ولكن ينتظرون كسباً مادياً أكثر من تضحيتهم ، وتراهم دائماً يلاحظون السلامة إلا إذا أتاهم ما لــم يكن في الحسبان ، وترى الحياة عزيزة عليهم ، وما أسهل ما ينسون دعوتهم إذا يئسوا من الكسب أو النصر ، ونحن لا نعني بالطبع هنا أتباع

الرســل ؛ إذ هــؤلاء يعملون بروح الاقتداء بالرسل ، فعندهم من حرارة إخلاص رسلهم ما يحملهم على محاكاتهم .

فحماية النفس مقدمة عند أصحاب الدعوات الباطلة على تبليغها ، أما عند الرسل فالتبليغ مقدم على كل شيء .

ولذلك دخل الرسول ﷺ في صراع مع أهواء البشر ، ولكل إنسان هوى ، فقــد دخل في صراع مع الناس جميعاً ، والصعوبة التي عاناها من أعدائه عانى قريباً منها في تربية أتباعه والارتفاع بهم ؛ إذ البشر هم البشر على كــل حال ، فتجاوز الرسول ﷺ هذه العقبات كلها ، وثبت على دعوته بلا مــداراة ولا مــواربة ، بل مطالباً النفس البشرية بواجباتها كاملة ، وصبر علــى ذلــك ، وتحمل كل شيء في هذا السبيل مرضاة لله ، فكل هذا دليل على حرارة الصدق والإخلاص للدعوة ولله الذي كلفه بها .

الصفة الرابعة :

عقله العظيم وفطانته ﷺ ؛ إذ لا يُسْلِم الناس ، ولا يتبعون إنساناً إلا إذا كــان أرجحهــم عقــلاً ليطمئنوا على أنه لا يسير بهم في الطريق الخاطــئ ، كما أنه بدون العقل العظيم لا يستطيع صاحب الرسالة أن يقنع الآخــرين بالحــق الــذي في رسالته ، خاصة أصحاب المدارك الواسعة والعقــول الكبيــرة ، ولا يســتطيع أن يرد هجمات المبطلين والمتكبرين والمنحــرفين والمنتفعــين بالانحراف ، فلا يكون رسولاً إلا إذا كان أذكى الخلق وأعقلهم وأحكمهم وأكملهم مدارك كي تقوم به الحجة .

والــناس يتفاوتون علماً ويختلفون اختصاصاً ، فمنهم رجل الدين ، ومنهم السياســي ، ومــنهم الاقتصادي ، ومنهم الطبيب ، ومنهم رجل الحكمة ، ومــنهم ومــنهم ،٠٠ وكل واحد من هؤلاء ينبغي أن تقام عليه الحجة لو

اعتـــرض من جانب اختصاصه ، فما لم يكن الرسول أعلم الخلق في كل جانب من حيث صلة هذا الجانب برسالته لا يستطيع إقامة الحجة .

كمـــا أن الناس يتفاوتون ذكاء وقوة حجة وعارضة ، والرسول مهمته أن يقـــيم الحجـــة على كل البشر ، فما لم يكن أذكى البشر فإنه لا يستطيع أن يفعل .

أخي !

تأمل هذين المثالين!

المثال الأول : هل أتاك نبأ المناقشة التي جرت بينه ﷺ وبين نصارى نجران في شأن عيسى عليه السلام ؟ اقرأها كما روتها كتب السيرة لتعرف كيف كانت فطانته وقوة عقله :

قالوا : من أبوه ؟ (أي عيسى ، يريدون أن يقيموا الحجة بهذا السؤال على أنه ابن الله . تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً)

وقـــد رد القـــرآن عليهم بقوله " إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون "

ورد عليهم رسول الله ﷺ بما يلي :

قال : ألستم تعلمون أن الله حيٌّ لا يموت ، وأن عيسى يأتي عليه الفناء ؟

قالوا : بلى .

قـــال : ألســـتم تعلمـــون أن ربـــنا قـــيم علـــى كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟

قالوا : بلى .

قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟

قالوا: لا .

قـــال : ألســـتم تعلمـــون أن الله لا يخفـــى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟

قالوا : بلى .

قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما علم ؟

قالوا : لا .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟

قالوا : بلى .

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضـــع المرأة ولدها ، ثم غذي كما يغذى الصبي ، ثم كان يأكل الطعام ، ويشرب الشراب ، ويحدث الحدث ؟

قالوا : بلى .

قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟

<u>**المـــثال الثاني :**</u> في يوم الحديبية ، وقد حميت قريش للحرب وهو لا يريدها فقال كلمة أحاطت بجوانب الموضوع الذي يجعل قريشاً لا تريد إلا ما أراد قال : يا ويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبـــين ســـائر العـــرب ؟ فـــإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرنـــي الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قـــوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به ، حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة . يعني الموت .

هـــذه نمـــاذج علـــى مناقشاته التي يقيم بها الحجة على الآخرين بالبساطة المقنعة والفصاحة الآسرة .

أخي !

إن أردت زيادة بيان فانظر في كلماته وخطبه التي نطق بها ؛ لترى فصاحته التي لا مثيل لها ، وهي السمة المرافقة التي لا بد منها في إقامة الحجة .

أحكام القرآن

علم مما تقدم أن القرآن الكريم حجة الله الواجبة الاتباع على العباد ، وأنه عمدة الأحكام ومصدر التشريع الأول ، قال سبحانه : " ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين " (١)

وقد احتوى القرآن على شرائع الإسلام وأصول دعوته لكن هذه الشرائع والأصول لا تستغرق جزءاً كبيراً منه ، فإن الإسلام دين يسير الرسالة محدود التكاليف ، وإنما كثرت السور واستبحرت الآيات ؛ لكي يمكن عرض الحقائق الدينية في أسلوب عامر بالإقناع فياض بالأدلة (٢).

وآيات الأحكام في القرآن لا تتجاوز من حيث العدد خمسمائة آية في تقدير عدد كبير من العلماء ، أما من حيث الموضوعات التي تتناولها هذه الآيات فقد تنوعت تنوعاً كبيراً (٣).

وسنبدأ ببيان أنواع الأحكام ، ثم نختم هذا المطلب ببيان الأسلوب الذى اتبعه القرآن في عرض الأحكام .

---

1) الآية " ٨٩ " من سورة النحل .

2) انظر : نظرات فى القرآن للشيخ محمد الغزالى ص ١٢٦ .

3) انظر : أصول الفقه الإسلامى د / محمد سراج ص ١٢٢ .

أولاً : أنواع الأحكام القرآنية :

المتأمل في الأحكام التي تضمنها القرآن يجدها كثيرة متنوعة ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام هي :

القسم الأول : الأحكام المتعلقة بالعقيدة كالأحكام المتعلقة بذات الله وصفاته والإيمان به وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فهذه الأحكام الاعتقادية تتعلق بما يجب على المكلف اعتقاده فى الله وملائكته ... الخ والعلم الذى يتولى دراسة هذه الأحكام هو علم التوحيد .

القسم الثانى : الأحكام المتعلقة بتهذيب النفس وإصلاحها وهى تتعلق بما يجب على المكلف أن يتزين به ويتحلى به من الفضائل كالصدق والأمانة والوفاء بالعهد وما يجب عليه أن يتخلى عنه من الرذائل كالكذب والخيانة وخلف الوعد وهذه الأحكام تسمى " الأحكام الأخلاقية " والعلم الذى يتولى دراسة هذه الأحكام هو علم السلوك أو "علم التصوف "

القسم الثالث : الأحكام العملية المتعلقة بما يصدر عن المكلف من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات ، وهذه الأحكام تسمى بالأحكام الفقهية ، والتي يقصد الوصول إليها عن طريق علم أصول الفقه [١].

---

1) انظر : علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٣٢ ، دراسات فى القرآن د / الحفناوى ص ١٢٦ .

الأحكام العملية تنتظم نوعين :

النوع الأول : أحكام العبادات التي يقصد بها تنظيم علاقة الإنسان بربه فقد أمر القرآن الكريم بالفرائض كلها ، وأمر بالصلاة ، وأمر بالزكاة ، وأمر بالحج وأمر بالصوم وأمر بالصدقات المرسلة بكافة أنواعها ، كما أمر بالكفارات ، وهي في معناها من العبادات ، لأنها تكفيرات لبعض الذنوب وهذه الكفارات هي :

كفارة الظهار، أى من يقول لامرآته : أنت على كظهر أمي ونحو ذلك .

وكفارة اليمين .

وكفارة قتل المؤمن خطأ فإنه يجب على القاتل الدية ومعها الكفارة [1]

بيان القرآن الكريم للعبادات بيان إجمالي

يلاحظ أن بيان القرآن الكريم للعبادات كان إجمالياً .

فقد أمر بالصلاة ولم يبين أوقاتها تفصيلاً ولا أركانها ، وترك بيانها للنبي ﷺ الذي بينها بياناً كاملاً بالعمل،إذ قال ﷺ "صلوا كما رأيتموني أصلى" .

وكذلك الحج ذكره القرآن مجملاً فى الجملة وبين ﷺ مناسكه بياناً كاملاً ، وقال : خذوا عنى مناسككم " .

---

1) انظر : أصول الفقه للشيخ أبى زهرة ص ٨٤ . ويراعى أن فى كفارة القتل الخطأ معنى اجتماعي وتهذيب نفسي وتعويض لأسرة المجني عليه الخاصة بالدية يعطيها إياهم وتعويض لأسرته العامة وهم جماهير المؤمنين،وذلك لأنه نقص من عددهم واحد فكان عليه أن يحيى نفساً أخرى مؤمنة ، وذلك بعتق رقبة مؤمنة ، لأن العتق إحياء لنفس إنسانية كان الرق قد بخعها إذ الرق موت فى الحياة والحرية هى الحياة . انظر ص ٨٥ للشيخ أبى زهرة .

والــزكاة أيضـــاً بيـــنها عملـــياً بجمعها وبالكتب التى أرسلها إلى عمال الصدقات وغيرها .

والسؤال :

لمـــاذا كـــان بيان القرآن فى العبادات إجمالياً ، والسنة هى التى تبين فى أكثر الأحوال بطريق العمل ؟

الجـــواب : أن العـــبادات هـــى لب هذا الدين وعموده الذي تقوم عليه أخـــلاق الآحاد وتعاون المجتمع ، ولذلك فقد تعاضدت السنة والقرآن لبـــيانها ليقل القياس والتفسير المنفرد فيها ، لذلك ثبت أصلها بالقرآن وتفصيلها بالسنة العملية المتواترة التى انعقد عليها إجماع المسلمين ، ولـــم يـــنعقد إجمـــاع علـــى غيرها ، وما روى من بعض ما يتعلق بالعـــبادات بأخبار الآحاد قليل وليس فى أركانها ، ولذلك قل اختلاف الفقهاء فى العبادات وأكثره فى مسائل بعيدة عن أصل الفرضية وعن الأركـــان بـــل فـــى بعض الأشكال وفى أفضلية بعض الأحوال على البعض الآخر [١].

الـــنوع الثانـــى : أحكام المعاملات من عقود وتصرفات وعقوبات وجـــنايات وغيرهما مما عدا العبادات ، ومما يقصد به تنظيم علاقة المكلفين بعضهم ببعض سواء أكانوا أفراد أم أمماً أم جماعات ، وهذه الأحكام تسمى فى الاصطلاح الشرعي " أحكام المعاملات " .

---

1) انظر : المرجع السابق ذاته .

وأمـــا فـــى اصــطلاح العصر الحديث فقد تنوعت أحكام المعاملات بحسب ما تتعلق به وما يقصد بها إلى الأنواع التالية (١) :

[١] **أحكام الأحوال الشخصية :** وهى التى تتعلق بالأسرة من بدء تكوينها وقـد فصـلها القـرآن بما لم يفصل به الأحكام فى أى موضوع من موضـوعات الأحكـام الشـرعية ، فقد فصل أحكام الزواج ، وبين المحـرمات وفصل أحكام الطلاق وبين أنواع العدة ومواضعها ، كما بين الفرائض والمواريث بياناً شافياً ، وبالاستقراء لآيات الأحكام فى القرآن لا نجد أحكاماً قد بينت فيه كما بينت أحكام الأسرة التى يقصد بهـا تنظيم العلاقة بين الزوجين والأقارب بعضهم من بعض وآياتها فى القرآن نحو سبعين آية (٢) .

السر فى اعتناء القرآن بتفصيل أحكام الأسرة

لعـل عـناية القرآن بالأسرة وبيان أحكامها بالتفصيل لمقام إصلاحها للمجتمع إذا صلحت ، ولكيلا ينكر أحد شرعها كما يفعل بعض الذين يحاولـون محاربـة أحكام القرآن فى الطلاق والزواج والمواريث ، وإنك لتعجب حين ترى أن القرآن الكريم كان يختم كل جزء من بيان أحكام الأسرة بمثل قوله تعالى :" وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه " (٣)

---

1) انظـر : علـم أصـول الفقه للشيخ خلاف ص ٣٢ ، دراسات فى القرآن للدكتور الحفناوى ص ١٢٧

2) انظر : المرجعين السابقين ذاتهما .

3) جزء من الآية " ١ " من سورة الطلاق .

وقــوله تعالى " تلك حدود الله فلا تعتدوها " [1] وبمثل قوله الذى ختم به بعض أحكــام المواريث " يبين الله لكــم أن تضلــوا والله بكــل شئ عليم " [2] .

وغير ذلك من النصوص التى تعد الخارج على أحكام الأسرة خارجاً عــن أحكام الله خالعاً للشريعة الإسلامية ظالماً لنفسه ضالاً عن سواء الســبيل وإن الله تعالـــى بهــذا التفصيل فى كتابه يضع لنا الحصن الحصـــين الذى نحتمي به من غارات مقلدة الغرب الذين يحاولون أن يــتحللوا من أحكام القرآن فيما يتعلق بالمواريث والزواج والطلاق ، وإنـــا نقول للذين قد ينخدعون فيهم : هذا حكم الله الذى يجمع الأسرة ويحفظهـــا من الانحلال وهذه أحكام الغرب التى تفك عراها فاختاروا ما شئتم [3] .

[٢] <u>الأحكام المدنية</u> : وهى التى تتعلق بمعاملات الأفراد ومبادلاتهم من بيع وإجارة ورهن وكفالة وشركة ومداينة ووفاء بالالتزام ، والمقصود مـــن هذه الآيات تنظيم علاقات الأفراد المالية وحفظ حق كل ذي خق وآياتها فى القرآن نحو سبعين آية [4].

وقــد بــين ســبحانه وتعالى أصول المعاملات المالية العادلة المباحة والأســـاس فى الإباحة بالنسبة للمعاملات المالية أمران حض عليهما القرآن فى آية واحدة .

<u>أولهما :</u> منع الأكل للأموال بالباطل .

---

1) جزء من الآية " ٢٢٩ " من سورة البقرة .
2) جزء من الآية الأخيرة من سورة النساء .
3) انظر : أصول الفقه لفضيلة الشيخ أبى زهرة عليه رحمة الله ص ٨٧ .
4) انظر : علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٣٣ .

والثاني : التراضي ولذا قال سبحانه وتعالى " لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم " [1]

وفى قوله تعالى " إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم " إشارة إلى أن المباح من التعامل فى البيوع هو ما يكون تجارة تتعرض للكسب والخسارة ، أما الكسب من غير أى خسارة فإنه ليس تجارة ، ولذلك لا يحل الربا ، وقد شدد القرآن فى إنذار المتعاملين به فقال " اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله " [2] .

ويلاحظ أن النصوص المنظمة للتعامل المالي فى القرآن كلية لا جزئية وعامة لا خاصة ، يعنى لا تختص بشخص دون شخص ولا بحال دون حال ولا زمان دون زمان ، وقد بينت السنة كثيراً من أحكام المعاملات المالية ، إلا أن ما بينته منها لا يعد كثيراً بالنسبة لغيره من موضوعات الأحكام فى الشريعة الإسلامية ، وما لم يرد فيه نص من الكتاب أو السنة بالأمر أو النهى فهو على أصل الحل والإباحة العامة [3] الثابتة بقوله تعالى " هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً " [4] وقوله تعالى " لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم " [5]

---

1) جزء من الآية " ٢٩ " من سورة النساء .

2) الآيتان " ٢٧٧ – ٢٧٨ " من سورة البقرة .

3) انظر : أصول الفقه للشيخ أبى زهرة ص ٨٥ – ٨٦ ، دراسات فى القرآن د / الحفناوى ص ١٢٥ .

4) جزء من الآية رقم " ٢٩ " من سورة البقرة .

5) جزء من الآية " ٨٧ " من سورة المائدة .

[٣] **الأحكـــام الجنائـــية** : وهى الأحكام التى تتعلق بما يصدر عن المكلــف من جرائم وما يستحقه عليها من عقوبة ، ويقصد بها حفظ حياة الناس وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم وتحديد علاقة المجني عليه بالجاني وبالأمة وآياتها فى القرآن نحو ثلاثين آية [١]

ويلاحــظ أن القرآن الكريم حين تعرض لبيان الأحكام الجنائية نص علـــى أصـــل عـــام للعقـــاب عن الجرائم الواقعة على الآحاد ، وهو القصـــاص الـــذى أساســـه المســـاواة بين الجريمة والعقاب ، فذكر القصـــاص فـــى القتلـــى ، والقصاص في الأطراف والقصاص فى الجروح ، وبالقياس على ذلك اعتبرت عقوبة كل اعتداء على الآحاد أساســـها المســـاواة بين الجريمة والعقوبة ، لأن ذلك غاية القصاص ومـــؤداه ، وأما الجرائم الواقعة على الجماعة أو التى يكون الاعتداء فيها على الله سبحانه وتعالى فقد نص القرآن على أقصى العقوبات فى أشد الجرائم وترك للحكام أن يقدروا الأنفع فيما دونها ، وهذا أعلى ما وصـــل إلـــيه الفكر القانوني ، إذ يضع القانون أقصى العقوبة ويترك للمطـــبق ما دونها، وتلك العقوبات التى حدها القرآن تسمى الحدود وقـــد بـــين القـــرآن حـــد الزنى وحد السرقة وحد قطع الطريق وحد القذف [٢]

---

1) انظر /علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص٣٣ .

2) انظر : أصول الفقه للشيخ أبى زهرة ص ٨٨ .

وقد لاحظ القرآن فى العقوبات التى قررها أموراً أربعة هى :

[أ] المحافظـــة علـــى النفوس والعقول والأديان والأموال والنسل ، ولذلك بين أن القصاص فيه حياة كاملة قال تعالى " ولكم في القصاص حياة " (١).

[ب] شفاء غيظ المجني عليه فإنه مكلوم – يعنى مجروح – ومن الواجب مـــداواة جروحه ، ولذلك جعل لولى المقتول الحق فى القصاص قال تعالـــى " ومـــن قـــتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل " (٢) .

وإن ذلك علاج اجتماعي سليم قد اتجه إليه الفقه الجنائي الحديث بعد أن جافـــاه أمـــداً ، وإن عـــدم الالتفات إلى غيظ المجني عليه يجعل الجرائم تتسلسل فيتجه المجني عليه إلى أن يشفى غيظ نفسه بجريمة أخرى أو يفعل ذلك أولياؤه وبذلك تترادف جرائم الأخذ بالثأر لنقص العقوبة .

[ت] تعـــويض المجني عليه وأسرته وذلك إذا تعذر القصاص الكامل لأي سبب من الأسباب .

---

1) جـــزء مـــن الآية " ١٧٩ " من سورة البقرة . ولا يكون ذلك إلا بتحقيق المحافظة على ما ذكر .

2) جزء من الآية " ٣٣ " من سورة الإسراء .

[ث] جعل العقوبة تابعة للشخص فتكبر بكبره وتصغر بصغره . لأن الجـــريمة تكبر بكبر المجرم وتصغر بصغره [١] والدليل على ذلك أن القـــرآن الكـــريم جعل عقوبة العبد على النصف من عقوبة الحر قال تعالـــى " فـــإذا أحصـــن فـــإن أتـــين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب " [٢]

[٤] **أحكام المرافعات** : وهى التى تتعلق بالقضاء والشهادة واليمين ويقصد بها تنظيم إجراءات التقاضي لتحقيق العدالة بين الناس وآياتها فى القرآن نحو ثلاث عشرة آية [٣]

[٥] **الأحكـــام الدستورية :** وهى تتعلق بنظام الحكم و علاقة الحاكم بالمحكوم وواجبات كليهما ، وآياتها نحو عشر آيات [٤] .

ولقـــد بين القرآن الكريم فى قواعده علاقة الحاكم بالمحكوم وخلاصة ما تذكره الآيات القرآنية فى هذا المقام خمسة أسس :

[أ] **العـــدل :** وقد صرحت به آيات كثيرة فى القرآن ومنها قوله تعالى : " وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " [٥] .

---

1) انظـــر : أصول الفقه للشيخ أبى زهرة ص ٨٨ ، دراسات فى القرآن د / الحفناوى ص ١٢٨

2) جزء من الآية " ٢٥ " من سورة النساء .

3) انظر : علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٣٣ ، الوجيز فى أصول الفقه د / زيدان ص ١٥٦ .

4) انظر: المرجعين السابقين ذاتهما .

5) جزء من الآية " ٥٨ " من سورة النساء .

والعــدل القرآنــي هــو عدل الحاكم مع المحكومين وعدل الرعية مع الراعــي وعدل الناس فيما بينهم ، وهو يقتضى المساواة المطلقة فى تطبيق الأحكام القرآنية ، فلا يعفى شريف من عقاب ولا يعفى الحاكم مما يطالب به المحكوم ، فالحاكم كسائر الناس فى الواجبات والحقوق ، ليس له حق فوق حقوقهم وليست ذاته مقدسة [١] .

[ب] **الأســاس الثانى** : هو **الشورى** فقد أمر بها القرآن الكريم فى قوله تعالى " وشاورهم فى الأمر " [٢] .

ويلاحــظ أن القــرآن لــم يبين وسائل الشورى ، كما لم يبين وسائل تحقيق العدالة بل ترك ذلك لتقدير الناس لينتهجوا أحسن الوسائل التى توصــلهم إلــى المطلوب على الوجه الأكمل ، ولأن وسائل الشورى تخــتلف باخــتلاف الجماعــات وباخــتلاف أحوال الناس وباختلاف العصور .

[ت] **الأساس الثالث** : أن يتجه إلى الأصلح والعمل على كل ما فيه مصلحة للمسلمين ، وقد نعى القرآن على الحاكم الفاسد صنيعه وبين

---

1) انظر : أصول الفقه للشيخ أبى زهرة ص ٨٩ وقال : العدل القرآني يقتضى العدالة الاجتماعية وهو أن يمكن كل إنسان من أسباب الحياة ولذا كان حقاً على الأقوياء أن يحمــوا الضــعفاء وكــان حقاً على الأغنياء أن يطعموا الفقراء ... والعدل القرآني يقتضى أن يمكن كل إنسان من الفرص التي يستطيع معها أن يبذل كل وجوه نشاطه التــى يقدر عليها فإن تخاذل عن العمل فعليه تبعة تقصيره فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضــة ... والعدل القرآني يقتضى المساواة المطلقة بين الجزاء والعمل ، فكل عامل ينال ثمرات عمله لا يبخس منه شيئاً قال سبحانه " فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره " الآيتان " ٧ – ٨ " من سورة الزلزلة .

2) جزء من الآية " ١٥٧ " من سورة آل عمران .

شؤم عاقبته فقال " ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله علـــى مـــا فى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد " (١).

[ث] **الأســـاس الرابع** : التعاون بين الحاكم والمحكومين ، والتعاون بين المؤمنين بعضهم مع بعض ، ولذا قال تعالى " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " (٢)

[ج] **الأساس الخامس** : حماية المجتمع من الرذائل وحماية الأموال والأنفـــس والأعراض والدين ، وذلك بإقامة الحدود والانتصاف من الظالم للمظلوم وغير ذلك مما شرعه القرآن من عقوبات (٣)

[٦] **الأحكـــام الدولـــية** : وهـــى الأحكام التى تتعلق بمعاملة الدولة الإسلامية لغيرها من الدول فى السلم والحرب وبمعاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية وآياتها نحو خمس وعشرين آية (٤).

وقد اعتبر القرآن بنى الإنسان جميعاً يستحقون الكرامة مهما اختلفت أجناسهم ولذا قال سبحانه " لقد كرمنا بنى آدم ... " (٥)

---

1) الآيات " ٢٠٤ – ٢٠٦ " من سورة البقرة .

2) جزء من الآية " ٢ " من سورة المائدة .

3) انظر : أصول الفقه للشيخ أبى زهرة ص ٨٩ – ٩٠

4) انظر : علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٣٣ .

5) جزء من الآية " ٧٠ " من سورة الإسراء .

واعتبر المساواة بين بنى آدم فى أصل الحقوق والواجبات حقاً طبيعياً مستحقاً بمقتضى الفطرة قال تعالى " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثــى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . .. " (١) .

وبهـــذه الـــروح السامية فرض القرآن من الحقوق الإنسانية للمخالف بمقــدار ما فرض للموافق أياً كان لون المخالفين وأياً كان دينهم وأياً كــان جنســـهم ولـــك أن تتأمل الأمر القرآني بالعدالة ولو كانت مع محاربين لأنه حق طبيعي يقرره القرآن للولي والعدو على السواء ، ولـــذا قال تعالى " كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى " (٢)

ثم دقق النظر فيما أعطاه القرآن للمخالفين ولو كانوا مقاتلين من إلزام المســـلمين بالمعاملـــة بالمـــثل مع ملاحظة الفضيلة ، بحيث لا يصح الاعتداء عليهم حتى فى ميدان القتال ، وقد قرر القرآن هذا المبدأ فى قـــوله تعالى " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين " (٣).

فالمسلم مقيد فى القتال بأمرين :

أحدهما : ألا يتجاوز دفع الاعتداء بمثله

والثانـــي : التقوى والفضيلة ، فلو انتهك العدو الأعراض لا يصح أن ينتهكها المسلم ؛ لأن ذلك مناف للتقوى (٤).

---

(١) جزء من الآية " ١٣ " من سورة الحجرات .

(٢) جزء من الآية " ٨ " من سورة المائدة .

(٣) جزء من الآية " ١٩٤ " من سورة البقرة .

(٤) انظر : أصول الفقه للشيخ أبى زهرة ص ٩٢ – ٩٣ .

ثم إن القرآن ألزم المسلمين بالوفاء بالعهد ما دام الخصم وفياً بعهده ، ولـــم يظهر منه ما يدل على النكث في العهد ، فإن بدت منه أمارات فعلـــية تـــدل على ذلك فلا عهد له ، وإذا لم تظهر بوادر الخيانة ولا مظانهـــا فالوفاء لازم ولا يصح النكث بحال من الأحوال قال تعالى " وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ... " (١).

[٧] **الأحكـــام الاقتصادية** : وهي التي تتعلق بموارد الدولة ومصارفها وحقوق الأفراد في أموال الأغنياء وآياتها نحو عشر آيات (٢).

طبيعة التشريعات القرآنية

تتسم التشريعات القرآنية بالخصائص التالية :

[أ] أن الأحكـــام التـــي تناولها القرآن بالعموم والشمول لكل ما يحتاجه المسلم في تنظيم حياته وفق ما يريده الشارع ، وما يحتاجه أي مجتمع ينشـــد التحضـــر والرقـــي لتنظـــيم العلاقات فيه ، وأساس النظرية الأصـــولية التي صاغها الأصوليون أن القرآن قد بين أحكام الوقائع والنوازل التي يواجهها الفرد أو المجتمع ، وذلك إما بالنص على هذه الأحكـــام بشـــكل مباشر أو بالإحالة إلى ما يبينها وهو السنة ، وإما بتحديد المبادئ العامة وطلب الاجتهاد في إطار هذه المبادئ للوصول إلى التفصيلات المطلوبة (٣)

---

1) جزء من الآية " ٩٥ " من سورة النحل .

2) انظر : علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٣٣ ، الوجيز في أصول الفقه د / زيدان ص ١٥٧ .

3) انظر : أصول الفقه د / محمد سراج ص ١٢٣ .

[ب] تتسـم الصياغة التشريعية لآيات الأحكام بالإيجاز الشديد مع توافر الدقـة والوضـوح، ولذا اجتهد الفقهاء فى استنباط حكم تشريعي من إيـثار القرآن استخدام كلمة دون غيرها أو حرف أو إسناد فعل إلى فاعـل أو غيـر ذلك مما لا يلتفت إليه كبار المتخصصين إلا بتركيز بالـغ من ذلك : أن الفقهاء استنتجوا وجوب تمليك المستحقين للزكاة أنصباءهم من قوله تعالى " إنما الصدقات للفقراء والمساكين ... " إذ تفيد اللام معنى التمليك ، ولذا فإنه لا يجوز للمزكي طبقاً لهذا الرأى إنشاء مصنع بأموال الزكاة على أن يكون ريعه لأصناف المستحقين ، إذ يشترط أن يملكوا أعيان الواجب لهم دون منفعته [١]

[ت] تتسم الصياغة التشريعية لآيات الأحكام فى القرآن بالتركيز على القـواعد الكلـية التـى تندرج تحتها التفصيلات والفروع من ذلك : التعبيـر عن مبدأ حرية التعاقد ووجوب الوفاء بالعقد بقوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود " [٢] .

والتعبيـر عـن حقـوق الملكية بقوله تعالى" و لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم.. " [٣] .

وفى الزواج تأتى هذه القاعدة " فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان " لتشـكيل أسـاس العلاقـة التى وصفها القرآن بأنها علاقة تقوم على المودة والرحمة [٤]

---

1) انظر : المرجع السابق ذاته .

2) الآية الأولى من سورة المائدة .

3) جزء من الآية " ٢٩ " من سورة النساء .

4) انظر : أصول الفقه د / محمد سراج ص ١٢٤ .

ومـــن يستقرئ آيات الأحكام فى القرآن يتبين أن أحكامه تفصيلية فى العبادات وما يلحق بها من الأحوال الشخصية والمواريث ، لأن أكثر أحكام هذا النوع تعبدي ولا مجال فيه للعقل ولا يتطور بتطور البيئات لابتنائها على أسباب لا تختلف ولا تتغير بتغير الأزمنة ، أما فيما عدا العبادات والأحوال الشخصية من الأحكام المدنية والجنائية والدستورية والدولية والاقتصادية فأحكامه فيها قواعد عامة ومبادئ أساسية ، ولم يتعــرض فـــيها لتفصـــيلات جزئية إلا فى النادر ،لأن هذه الأحكام تـــتطور بـــتطور البيئات والمصالح فاقتصر القرآن فيها على القواعد العامـــة والمبادئ الأساسية ليكون ولاة الأمر فى كل عصر فى سعة مـــن أن يفصلوا قوانينهم حسب مصالحهم فى حدود أسس القرآن من غير اصطدام بحكم جزئي فيه [١]

فائدة هذا المنهج فى صياغة الآيات القرآنية

كـــان هـــذا المنهج وهو " تفصيل ما لا يتغير وإجمال ما يتغير " من ضـــرورة خلـــود الشـــريعة ودوامها ، فليس من المعقول أن تعرض شـــريعة جـــاءت علـــى أساس الخلود والبقاء والعموم لتفصيل أحكام الجزئيات التى تقع فى حاضرها ومستقبلها ، فإنها مع كثرتها الناشئة من كثرة التعامل متجددة بتجدد الزمن وصور الحياة ، فلا مناص إذن

---

1) انظر : علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٣٣ – ٣٤ " ويراعى أن ورود الأحكام مجملة دليل على عدم إهمال الله عقول هذه الأمة المحمدية وذلك شرف أى شرف ، إذ لـــم يلقـــنا الله أحكام الجزئيات تفصيلاً كما كان الشأن فى الأمم السابقة بل أمرنا باســـتعمال العقـــول قـــال تعالى " فاعتبروا يا أولى الأبصار " انظر : أصول الفقه د / البرديسى ص ١٨٧ .

من هذا الإجمال والاكتفاء بالقواعد العامة مع الحث على الاجتهاد واستنباط الأحكام الجزئية للحوادث التى تعرض من قواعد الشريعة الكلية ومقاصدها العامة (١).

وقد مهد النبى ﷺ وأصحابه من بعده طريق الاستنباط لمن جاء بعدهم من أئمة المسلمين ، وبهذا اتضح مقدار سعة هذه الشريعة وتناولها لكل ما يجد فى الحياة ، كما أنها بحق صالحة لتنظيم جميع الشئون الاجتماعية والفردية إلى يوم القيامة (٢) .

[ث] لم يسلك القرآن الكريم فى ذكره لآيات الأحكام منهج ذكر الأحكام المتعلقة بشيء واحد فى مكان واحد ، ثم لا يعود إليه إلا بقدر ما تدعوا إليه المناسبة ، إنما كان مسلكه تفريق آيات الأحكام ، فلم يذكرها فى سورة واحدة ، فقد يورد ما يتعلق بالطلاق والرضاع وأحكامهما وما يتعلق بالمحرمات فى ثنايا ما يتعلق بالقتال وشئون اليتامى ، انظر مثلاً قوله تعالى " حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين " نجد أن هذه الآية ذكرت فى سورة البقرة بين آيات الطلاق وما يتعلق به " الآيات من رقم ٢٢٨ - ٢٤٨ " ثم انظر إلى آيات الحج فقد جاء ذكر بعضها فى سورة البقرة من الآيات " رقم ١٩٦ إلى ٢٠٢ " وجاء ذكر البعض الآخر فى سورة الحج من الآيات رقم " ٢٦ إلى ٣٧ " .

وتشير هذه الطريقة إلى معنى خاص هو أن جميع ما ورد فى القرآن وإن اختلفت أماكنه وتعددت سوره وأحكامه فهو وحدة عامة لا يصح

---

1) انظر : نظرات فى القرآن للشيخ محمد الغزالى ص ١٩١ .

2) انظر : أصول الفقه د / بدران أبو العينين ص ٧٠ .

تفــريقه فـــى العمـــل ، ولا الأخذ ببعضه دون بعض ، فهو فى هذا المســـلك كأنـــه يقول للمكلف وهو يحدثه عن شئون الأسرة وأحكامها مـــثلاً : " لا تلهك أسرتك وشئونها عن مراقبة ربك وأداء ما يجب له مـــن صلاة وعبادة ، ولا ريب أن لمثل هذا الإيحاء تأثيراً كبيراً من الناحـــية العامة وعدم الاشتغال بشأن عن شأن ، إذ بذلك يكمل للروح تهذيبها وللنفس صلاحها وللعقل إدراكه وللمجتمع صلاحه [١] .

[ج] بـــيان القرآن لتلك الأحكام لم يكن على سنن البيان المعروف فى القوانـــين الوضـــعية ، بأن يذكر الأوامر والنواهي جافة مجردة عن معاني الترغيب والترهيب ، وإنما يسوقها مكتنفة بأنواع من المعاني شـــأنها أن تخلـــق فـــى نفوس المخاطبين الهيبة والمراقبة والارتياح والشـــعور بالفائدة العاجلة والآجلة ، فيدعوهم كل هذا إلى المسارعة إلـــيها وامتثال الأمر، نظراً إلى واجب الإيمان وبداعية الخوف من عقاب الله وغضبه والطمع فى ثوابه ورضاه ، وهذا هو الوازع الديني الذى تمتاز بغرسه فى النفوس الشرائع السماوية ، وهو بلا شك أكبر عـــون للوازع الزمني فى الحصول على مهمته ، وتستطيع أن تدرك هـــذا الســـر إذا رجعت إلى آيات إبطال التبني وأحكام الظهار وإلى غيرها من آيات التشريع ، وانظر فى مثل قوله تعالى " يا أيها الذين آمـــنوا كونـــوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقـــربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً [٢]. فهذا

---

1) انظر : نظرات فى القرآن للشيخ محمد الغزالى ص ١٨٩ .

2) الآية رقم " ١٣٥ "من سورة النساء .

نداء يقوم قبل كل شئ على دعم الضمير الإنساني ووصله بالله وبذلك يرشد سلوكه (١) .

ثانياً : دلالة القرآن على الأحكام

القــرآن الكريم ثابت قطعاً لوصوله إلينا بطريق التواتر المفيد للقطع بصحة المنقول ، فنصوص القرآن كلها قطعية الثبوت لا فرق فى ذلك بين نص ونص آخر (٢) .

أمــا دلالة القرآن على الأحكام فليست قطعية كثبوته ، بل قد تكون دلالـــته علـــيها قطعية ، وقد تكون دلالتها عليها ظنية ، وذلك تبعاً للاحتمال الذى يكون فى ألفاظ القرآن وعدمه ، فإذا كان اللفظ الوارد فيه لا يحتمل إلا معنى واحداً فقط كانت دلالته على الحكم دلالة قطعية ، أي أن الـــنص القطعي الدلالة هو : ما دل على معنى متعين فهمه مـــنه ، ولا يحـــتمل تأويلاً ولا مجال لفهم معنى غيره منه ، وذلك كالألفاظ الخاصة الواردة فى آيات المواريث والحدود فى قوله تعالى " يوصـــيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق

---

1) انظر : نظرات فى القرآن للشيخ محمد الغزالى ص ١٨٨ .

2) يضاف إلى ما سبق تقريره لإثبات قطعية ثبوت القرآن الكريم : أن المسلمين تناقلوا القـــرآن كتابة من المصحف المدون تلقياً من الحفاظ أجيالاً عن أجيال فى عدة قرون وما اختلف المكتوب منه مع المحفوظ ، ولا اختلف في لفظة منه صيني مع مراكشي ولا بولونـــي ، مـــع سوداني ، وهذه ملايين المسلمين فى مختلف القارات منذ أربعة عشـــر قرناً من الزمان وثلاثة وعشرين سنة يقرءون جميعاً لا يختلف فيه فرد عن فرد ولا أمة عن أمة لا بزيادة ولا نقص ولا تغيير أو تبديل تحقيقاً لوعد الله سبحانه إذ قـــال " إنـــا نحـــن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " انظر : علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٣٥ .

اثنتـــين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ... [١]

وقـــوله تعالـــى " الـــزانية والزانـــي فاجلـــدوا كـــل واحد منهما مائة جلدة ... " [٢] فلفظ الثلثين والنصف والثلث والسدس والربع والثمن والمائـــة ونحـــوها ألفاظ خاصة تدل على معناها دلالة قطعية ، ولا يحتمل أى واحد منها إلا معنى واحداً ، هو المعنى الذي تدل عليه في الـــنص الذى وردت فيه وهكذا ! كل نص دل على فرض في الإرث مقـــدر أو حد فى العقوبة معين أو نصاب محدد ، وهذه النصوص لا تكـــون محـــلاً للاجـــتهاد ولا موضعاً لاختلاف المجتهدين فى الفهم والاســـتنباط ، لأن دلالـــتها على مراد الله تعالى واضحة ، لا تحتمل تأويلاً ، وأحكامها لا تقبل التعديل ولا التبديل ، لأن تعديلها يؤدى إلى الخـــروج علـــى النص الثابت ثبوتاً قطعياً والدال عليها قطعاً ويقيناً ، والخـــروج على النص الثابت قطعاً والدال على الحكم دلالة قطعية لا يجوز [٣] .

<u>**وأمـــا الـــنص الظني الدلالة فهو**</u> ما دل على معنى ولكن يحتمل أن يؤول ويصرف عن هذا المعنى ، ويراد منه معنى غيره ، فالنصوص تكـــون ظنية الدلالة إذا كانت محتملة لأكثر من معنى ، صالحة لأن يـــراد مـــنها أحـــد المعاني دون الآخر لأن المراد منها غير متعين ، فصـــارت بهذا قابلة الاحتمال لاختلاف الأفهام ، وكانت مجالاً للبحث والاجتهاد ، ومن أمثلة هذا قوله تعالى " والمطلقات يتربصن بأنفسهن

---

1) الآية " ١١ " من سورة النساء .

2) جزء من الآية الثانية من سورة النور .

3) انظر : علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٣٥ ، أصول الفقه د / زكى الدين شعبان ص ٤٢ – ٤٣ .

ثلاثـــة قـــروء " فلفظ القرء الوارد فى هذه الآية من الألفاظ المشتركة التـــى أطلقت على الحيض وعلى الطهر ، فيصح لهذا أن يراد بالقرء فى الآية أحد هذين المعنيين ومن هنا تكون دلالة لفظ القرء فى الآية على أحدهما بعينه دلالة ظنية [1] ولهذا اختلف المجتهدون فى أن عدة المطلقة ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار.

ومـــن أمثلة هذا : الآية التى تطلب مسح الرأس فى الوضوء دون أن تقطـــع بالقدر الواجب مسحه لتعدد المعاني التى وضعت لها الباء فى اللغـــة العـــربية ، فمنها التبعيض ومنها الملاصقة ، ولهذا فقد كانت دلالتها على هذا القدر ظنية مما أدى إلى اختلاف الفقهاء فيه .

وهكذا ! كل لفظ فى القرآن يدل على معنى ويحتمل الدلالة على غيره ، فهو قطعى الثبوت ولكنه ظنى الدلالة .

وقـــد يكـــون النص القرآني قطعى الدلالة باعتبار ظنيها باعتبار آخر فـــيكون الحكم بالاعتبار الأول قطعياً وبالاعتبار الثانى ظنياً ، ومثال ذلك : قوله تعالى " وامسحوا برءوسكم " فإنه يدل على قطعية أصل المسح للرأس فى الوضوء وظنية المقدار الواجب مسحه من الرأس ، ومـــن هـــنا نجد اتفاق الفقهاء على الحكم الأول واختلافهم فى الحكم الثانى [2]

---

1) انظر : علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٣٥ ، أصول الفقه د / بدران أبو العينين ص ٦٦ .

2) انظر : أصول الفقه د / بدران أبو العينين ص ٦٧ .

فائدة تقسيم الآيات إلى قطعية الدلالة وظنيتها

تـــرتب على تقسيم النصوص القرآنية إلى قطعية الدلالة وظنيتها أن الأولـــى لقطعيتها تكون بمنزلة العقائد ، بحيث يكون منكرها خارجاً عن الملة بخلاف ظنية الدلالة ، فمن أنكر فهماً معيناً تحتمله الآية كما تحتمل غيره لا يكون كافراً .

كما أن النصوص القطعية الدلالة يجب اتباعها على الناس كل الناس وجـــوباً عينياً بخلاف النصوص الظنية الدلالة ، فإن كل مجتهد يتبع فيها ما ترجح عنده ، كما أن المقلد يتبع فيها رأى من شاء أن يقلده .

وقـــد ترتب على النوع الثاني تعدد المذاهب الإسلامية ، فاختلفت آراء الفقهـــاء واتســـع نطـــاق ذلـــك الخـــلاف إلى درجة أن رأينا الآراء والاحتمالات العقلية كثيرة فى المسألة الواحدة .

ولا يمكـــن أن يقـــال : إن كـــل الآراء دين يجب اتباعه ، لأنها آراء تتناقض أحياناً .

ولا أن يقال : إن الدين واحد معين منها ، لأنه لا أولوية لبعضها على بعض ، ولا أن الدين واحد منها لا بعينه ، لأنه لا يعرف على التحديد ، وإنمـــا يقال فى هذا وأمثاله : إنها آراء وأفهام للحاكم أن يختار فى العمل أيها شاء تبعاً لما يراه من المصلحة .

وقـــد اســـتمد الفقـــه الإسلامى من هذه الآراء القدرة الفائقة على حل المشـــاكل الاجتماعـــية مهمـــا امـــتد الزمن وتعددت صور الحوادث وتنوعت الحضارات [١] .

---

1) انظر : نظرات فى القرآن للشيخ محمد الغزالى ص ١٨٧ – ١٨٨ .

ظاهر القرآن وباطنه

إذا سمع المرء كلاماً عربياً تبادر إلى ذهنه ما يدل عليه الكلام بحسب وضـــعه العربـــي ، فإذا تدبره فقد يفهم منه مقاصد مطوية وأغراضاً خفـــية فالمتـــبادر الأول هو ظاهر الكلام ، ويكاد يدركه كل عارف باللغة والمفهوم الثانى هو باطنه ، وهو لا يدرك إلا بشيء من التدبر ، والقـــرآن لـــه ظاهر وباطن بهذا المعنى ، وكلاهما مراد ، غير أن الثانـــى لا يعتد به إلا إذا لم يكن مناقضاً للأول ، وكان له شاهد من الاستعمالات العربية من مقاصد الدين ومراميه ، ومن ذلك :

قوله تعالى " فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون " (١) .

فالظاهر من الأنداد ما كان المشركون يعبدون من الأصنام عند التنزيل ، ولكن بعض العلماء قال : إن أكبر الأنداد النفس الأمارة بالسوء فإن من أطاعها فقد جعل لله نداً ، كما أن من أطاع الأحبار والرهبان فى التحلـــيل والتحـــريم فقد اتخذهم أرباباً من دون الله ؛ لقوله تعالى فى اليهود والنصارى حينما فعلوا ذلك " اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله " (٢)

وليس من الفقه فى الدين أن يقف المرء عند ظواهر الألفاظ وينصرف عـــن تدبـــر كـــلام الله ، فقـــد ذم الله المنافقين لوقوفهم عند الظاهر

---

1) جزء من الآية " ٢٢ " من سورة البقرة

2) جزء من الآية " ٣١ " من سورة التوبة .

وانصـــرافهم عــن التدبر بقوله سبحانه " فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً " [١].

وما ذلك إلا لأن الوقوف عند الظاهر يبعد عن المقاصد الشريفة ويبطل حكمة التشريع .

ومــن ذلك : أنه لما نزل قول الله عز وجل " من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة " [٢] .

قال اليهود الواقفون عند الظاهر " إن الله فقير ونحن أغنياء " وقال أبو الدحداح – وقد فقه المقصد – إن الله كريم استقرض منا ما أعطاه .

وكــذلك لــيس مــن الفقه في الدين القول بباطن لا يمت إلى المفهوم اللغــوي بســبب ؛ لأن الله تعالــى أنزل القرآن تبياناً لكل شئ بلسان عربــي مبين " ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون " [٣].

ولو كان له من المعاني الخفية ما لا صلة بينه وبين معانيه الظاهرة لم يكــن كمــا وصفه الله ، ومن هذا ما ذهب إليه الباطنية فى كثير من المواضع :

كتفســيرهم قوله تعالى " وورث سليمان داود " [٤] . بأن الإمام ورث علــم النبــى . وقولهم فى تفسير قوله تعالى " إن الصفا والمروة من شعائر الله " [٥] : الصفا محمد والمروة على .

---

1) جزء من الآية " ٧٨ " من سورة النساء .
2) جزء من الآية " ٢٤٥ " من سورة البقرة .
3) الآيتان " ٢٧ – ٢٨ " من سورة الزمر .
4) جزء من الآية " ١٦ " من سورة النمل .
5) جزء من الآية " ١٥٨ " من سورة البقرة .

وقــولهم فــى قــوله تعالـــى " قلـــنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم " (١) إن المراد بالنار غضب نمروذ عليه لا النار الحقيقية .

وقول عبد الله بن سبأ زعيمهم فى قوله تعالى " إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد " (٢) .إن المراد بالرد إعادة الرسول فى الدنيا إلى الحياة بعد الموت .

وقــول جابــر الجعفـــي منهم فى قوله تعالى " وإذا وقع القول عليهم أخــرجنا لهــم دابـــة من الأرض تكلمهم " (٣) . المراد بالدابة على ، والآيـــة دليل على رجعته إلى غير ذلك مما أكثر منه الباطنية ، ولا صـــلة بينه وبين ظاهر اللفظ ، بل لا يخطر ببال عارف باللغة ، ولا يقوم دليل على اعتباره ولا يؤثر شئ منه عن أحد من السلف (٤) .

المحكم والمتشابه من القرآن

وصف الله تعالى القرآن فى مواضع منه بأنه " محكم " كقوله تعالى " كتاب أحكمت آياته " (٥) . وهذا يشمل الكتاب كله .

---

1) الآية " ٦٩ " من سورة الأنبياء .

2) جزء من الآية " ٨٥ " من سورة القصص .

3) جزء من الآية " ٨٢ " من سورة النمل .

4) انظــر فـــى بـــيان هذه المسألة : أصول التشريع الإسلامى للشيخ على حسب الله ص ٣٣ – ٣٦ ومن كتب التفسير التى امتلأت بتفسير الباطنية : التفسير الذى ينسب إلى محي الدين بن عربي وفيه يقول الإمام محمد عبده : وفيه من النزعات ما يتبرأ مـــنه دين الله وكتابه العزيز انظر : أصول الفقه د / البرى ص ٣٢ وقال : إن هذا التفسير المنسوب لابن عربي هو لتلميذه القاشاني الباطني المعروف أ .هـ

5) جزء من الآية الأولى من سورة هود .

ووصــفه فــى موضع آخر بأنه " متشابه " وذلك حيث قال " الله نزل أحســن الحــديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ... " (١) وهذا الوصف يشمله كله أيضاً .

ووصفه فى موضع ثالث بأن منه محكماً ومنه متشابهاً فقال " هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأمـــا الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ... " (٢) .

كيفية التوفيق بين هذه الأوصاف الثلاثة

هــذا التعارض ظاهري فقط ، فإن القرآن كله محكم بمعنى : إحكام ألفاظــه ومعانيه وعدم وجود التناقض والاختلاف فيه ، والقرآن كله متشابه بمعنى أن آياته متشابهة فى الكمال والإعجاز والإحكام والنفع والصدق والهداية إلى الخير .

وأمـــا كون بعض آياته محكماً وبعضها متشابهاً فالمراد بالمحكم ما لا يحتمل إلا معنى واحداً ، والمتشابه ما احتمل معنيين فأكثر . يوضحه ســبب نــزول هــذه الآية : جاء وفد نصارى نجران إلى النبى ﷺ فجادلوه فى الله ، فكان من جدالهم له أن قالوا له محتجين على التثليث : إن فـــى القرآن نحو قوله تعالى " إنا نحن نزلنا الذكر " يعنون أن " نحـــن " فى اللغة للجماعة أى : فالله جماعة " تعالى الله عما يقولون "

---

1) جزء من الآية " ٢٣ " من سورة الزمر .

2) جزء من الآية رقم " ٧ " من سورة آل عمران .

فنزلت هذه الآية تبين أن سبب مصيرهم إلى هذا الاستدلال الأعوج ما في قلوبهم من الزيغ ، وبيان ذلك :

أن لفظة " نحن " فى اللغة تستعمل استعمالين :

[أ] أنها تكون للجماعة .

[ب] أنها تكون للواحد الفرد إن عبر عن نفسه معظماً لها .

فهـذه اللفظـة " **نحن** " الواردة فى هذه الآية لفظة متشابهة ،لأن لها احتمالين :

أحـدهما : حـق هـو مراد الله تعالى وهو أنها للواحد المعظم نفسه

والثاني : باطل غير مراد ، وهو أنها للجماعة ، ومن هنا : قيل لها : متشـابهة أي ؛ لأنها تشبه الحق من وجه ، وتشبه الباطل من وجه آخـر " فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه " فيحملونها على الوجه الباطل يؤيدون بها دعاواهم الباطلة وأهواءهم ، ويبتغون بها فتنة المؤمنين عن دينهم وتشكيكهم فى القرآن .

وأما تاويلها الحق فيعلمه الله والراسخون فى العلم ، فإن الراسخين فى العلـم يقولون : آمنا بكتاب الله كله لا نكفر بشيء منه وهو تعالى قد قال فى مواضع أخرى " إنما هو إله واحد وقال : لا إله إلا هو " غير محـتملة إلا لوجه واحد هو الحق ، وبعبارة القرآن هى **" محكمة "** تدل على أن الله واحد غير متعدد ، فيقول الراسخون :

لمـا كان المتشابه آتياً من الله ، والمحكم من الله كذلك ، كل من عند ربنا ، فلا يمكن أن يختلف .

فنرد المتشابه الذى يحتمل وجهين إلى المحكم الذى لا يحتمل إلا وجهاً واحـداً ، أي تفسـير المتشـابه بالمحكم ، فنرد الوجه الباطل ، وإن

احتملته اللغة ، ونثبت الوجه الآخر ، وبذلك يكون المحكم " أم الكتاب " لأن المتشابه يعود ويرجع إليه كما يرجع الطفل إلى أمه [١]

ومـــن هـــنا ! يتبين أن المتشابه يعلمه الراسخون في العلم ، ويكون الوقف على قوله تعالى " والراسخون في العلم " .
وعلـــى هذا ! لا يكون في القرآن شئ لا يمكن معرفة تفسيره ، وإن كان قد يتيسر ذلك لبعض الناس دون بعض .

قـــول آخـــر فى تفسير المتشابه : يسلم بعض العلماء أن فى القرآن متشـــابهاً لا يعلمه أحد من الناس ، بل يعلمه الله وحده فيكون المراد بالمتشـــابه علـــى هذا معرفة حقائق بعض الأمور لا تفسير ألفاظها ، فليســـت آيـــات صفات الله تعالى متشابهة من حيث فهم معانيها ، بل معانـــيها مفهومة حقاً ، ولكن تكون متشابهة من حيث حقائقها ، فإن حقائقها لا يعلمها إلا الله تعالى .

ومـــن جـــنس ذلك أيضاً حقائق ما ذكره الله مما فى الآخرة من النعيم والعـــذاب قـــال تعالـــى " فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين " يوضـــح ذلك أننا نجهل حقائق كثير من الأشياء التى نتحدث عنها فى هذه الدار ونرى ونسمع آثارها كالنوم والروح والكهرباء وغير ذلك ، لكـــن إن ذكرت هذه الألفاظ فهمنا تفسيرها ، ولا يعنى جهلنا لحقيقة الشـــيء أنـــنا نجهل تفسير اسمه فمعنى اللفظ مفهوم وحقيقة المسمى

1) انظر : الواضح د / محمد الأشقر ص ٧٨ – ٨٠ .

مــبهمة [١] . ويكــون الوقف فى الآية على هذا عند قوله " وما يعلم تأويله إلا الله " .

ثالثاً : أسلوب القرآن فى بيان الأحكام

الأحكــام الشرعية أنواع ، ولكل نوع منها اسم خاص ، اصطلح عليه الفقهــاء كالفــرض والــواجب والندب والإباحة والكراهة والتحريم والشرط والركن والسبب والمانع . وقد التزم الفقهاء فى كتبهم الفقهية أسلوباً واحداً فى بيان هذه الأحكام لا يختلف فى كتاب عنه فى كتاب آخر ، فهم يعبرون عن الفرض أو الواجب بمادة الفرض أو الوجوب فــيقولون : يفترض فعل كذا أو يجب القيام بكذا وكذا ، ويعبرون عن الــندب بنفس المادة فيقولون : يندب فعل كذا أو يقولون : هذا الشئ مندوب أو مستحب ، كما يعبرون عن الإباحة بمادة الإباحة أو التخيير ... إلى غير ذلك من العبارات التى نراها فى الكتب الفقهية المختلفة والتى تتكرر بصفة مستمرة [٢] .

---

1) انظر : المرجع السابق ذاته ص ٨١ وقد رجح فضيلة الدكتور / محمد الأشقر القول الأول حــيث قال : وهذا القول هو المعقول إذ كيف يخاطبنا الله بما لا يمكن معرفة معــناه . وهو المطابق لدلالة آيات كثيرة منها قوله تعالى " كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته " وقوله " بل هو آيات بينات " وأسماء الله تعالى وصفاته من هذا الباب يمكــن معرفة تفسيرها كما قال مالك رضى الله عنه لما سئل عن استواء الله تعالى علــى العرش : كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة " فأخبر أن الاستواء معلوم فى كلام العرب ما هو، وأما الكيفية فشئ آخر، وقد ذكــر الدكتور الأشقر قولاً ثالثاً مردوداً يقول أصحابه : إن تأويل المتشابه الذى فى القــرآن الذى لا يعلمه أحد من الناس هو تفسير الألفاظ ثم جعلوا من ذلك صفات الله عز وجل وزعموا أن هذا هو مذهب السلف أ . هــ

2) انظر : أصول الفقه د / زكى الدين شعبان ص ٤٧ .

أما القرآن الكريم فقد اقتضت بلاغته وفصاحته وكونه معجزاً وهادياً ومرشداً أن تتنوع أساليبه فى بيان الأحكام الشرعية ، وهو حينما يعرض لأحكام يعرضها عرضاً فيه تشويق لامتثال الأمر وتنفير من مخالفته ، ولذلك فلم يعبر فى كل ما كان واجباً بمادة الوجوب ، ولا فى كل ما هو محرم بمادة الحرمة [1] ولا فى كل مباح بمادة الإباحة. وسنعرض فيما يلي للصيغ القرآنية التى يستخدمها فى طلب الفعل أو الترك أو التخيير فيهما .

الصيغ القرآنية فى طلب الفعل :

[أ] قد يطلب الفعل بصيغة الأمر " افعل " كما فى قوله تعالى " وآتوا اليتامى أموالهم " [2]. وقوله تعالى " وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة " [3]

[ب] قد يبين النص أن الفعل مكتوب من الله على المخاطبين ، ويظهر ذلك جلياً فى مثل قوله تعالى " كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم " [4].

[ت] تارة يعبر النص عن طلب الفعل بما يترتب عليه فى الدنيا أو الآخرة من خير ، أما ترتب الخير على الفعل فى الدنيا فمثل

---

1) انظر : أصول الفقه للأستاذ البرديسى ص ١٨٩ ، دراسات فى القرآن د / الحفناوى ص ١٤٩ .

2) جزء من الآية " ٢ " من سورة النساء .

3) جزء من الآية " ٧٨ " من سورة الحج .

4) جزء من الآية " ١٨٣ " من سورة البقرة .

قـوله تعالـى " ومـن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب " [١]

وأما ترتب الخير على الفعل فى الآخرة فمثل قوله تعالى " ومن عمل صـالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب " [٢] .

[ث] قد يطلب الفعل بصريح لفظ الأمر كما فى قوله تعالى " إن الله يأمر بالعـدل والإحسـان وإيتاء ذي القربـى وينهـى عـن الفحشـاء والمنكر .. " [٣]

[ج] وقـد يكون الطلب عن طريق الإخبار بأن الفعل مفروض من مثل قـوله تعالـى " قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم " [٤]

[ح] وقد يكون الطلب للفعل عن طريق ذكر الفعل بلفظ " خير " مثل قوله تعالى " لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم ... " [٥] .

[خ] وقد يكون الطلب بصيغة الوصية مثل قوله تعالى " يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين " [١]

---

1) الآيتان " ٢ – ٣ " من سورة الطلاق .
2) الآية " ٤٠ " من سورة غافر .
3) جزء من الآية " ٩٠ " من سورة النحل .
4) جزء من الآية " ٥٠ " من سورة الأحزاب .
5) جزء من الآية رقم " ٢٧ " من سورة النور .

الصيغ القرآنية فى طلب الترك :

كما رأينا القرآن يعبر عن الواجب بغير مادة الوجوب نراه يعبر عن المحـــرم بغير مادة الحرام ، وتتعدد صيغه التى يطلب بها الكف عن فعل من الأفعال بعبارات بليغة شيقة باعثة على القبول والمبادرة إلى الامتثال :

[أ] تـــارة يطلـــب الكف عن شئ بصريح لفظ النهى كما فى قوله تعالى " وينهى عن الفحشاء والمنكر " (٢) .

[ب] وتـــارة يطلب الامتناع عن الفعل بصريح لفظ التحريم مثل قوله تعالى " حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم ... " (٣)

[ت] وتارة يطلب الترك بصيغة النهى كما فى قوله تعالى " ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق " (٤) .

[ث] وتـــارة يكـــون طلب الامتناع عن الفعل بنفي الحل أو البر عنه مـــثل قوله تعالى " لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ... " (٥) وقوله تعالى " وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها .. " (٦).

---

1) جزء من الآية " ١١ " من سورة النساء .
2) جزء من الآية " ٩٠ " من سورة النحل .
3) جزء من الآية " ٢٣ " من سورة النساء .
4) جزء من الآية " ٣٣ " من سورة الإسراء .
5) جزء من الآية " ١٩ " من سورة النساء .
6) جزء من الآية " ١٨٩ " من سورة البقرة .

[ج] وقـــد يعبر عن الفعل الممنوع بأنه شر كما فى قوله تعالى " ولا يحســـبن الـــذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرلهم " (١)

[ح] وقد يدل على المحرم بما يرتبه على الفعل فى الآجل أو العاجل من شر.

مـــثال الأول : قوله تعالى : " ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالـــداً فـــيها وغضـــب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً " (٢).
وقوله تعالى " والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشـــرهم بعـــذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم " (٣)

ومـــثال الثانى : أى الشر العاجل الذى ترتب على الفعل قوله تعالى " وكتبـــنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص " (٤) .

الصيغ القرآنية فى بيان التخيير بين الفعل والترك :

[أ] قـــد يعبـــر القرآن عن الفعل المباح بلفظ الحل مثل قوله تعالى " الـــيوم أحـــل لكـــم الطيـــبات وطعـــام الـــذين أوتـــوا الكـــتاب حل لكم .. " (٥) .

---

1) جزء من الآية " ١٨٠ " من سورة آل عمران .
2) الآية رقم " ٥٣ " من سورة النساء .
3) الآيتان " ٣٤ – ٣٥ " من سورة التوبة .
4) جزء من الآية " ٤٥ " من سورة المائدة .
5) جزء من الآية " ٤ " من سورة المائدة .

[ب] قد يعبر عن المباح بنفي الإثم أو الجناح أو الحرج عن الفاعل ، مثل قوله تعالى " فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه " [١] .

وقوله سبحانه "لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ... " [٢] .

وقوله سبحانه " ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج " [٣] .

[ت] قد يبين القرآن إباحة الفعل بالامتنان به من الله على العباد وتذكيرهم بمنافعه لهم كقوله تعالى " والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ... " [٤].

[ث] من الأساليب الدالة على الإباحة سكوت القرآن عن التحريم أو إنكاره على من حرم الشئ أو إخباره عن شئ بأنه خلق أو سخر لنا كقوله تعالى " قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ... " [٥]. وقوله عز من قائل " وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه " [٦]

1) جزء من الآية " ١٨٣ " من سورة البقرة .
2) جزء من الآية " ٢٣٦ " من سورة البقرة .
3) جزء من الآية " ٦١ " من سورة النور .
4) الآيتان " ٥ – ٦ " من سورة النحل .
5) جزء من الآية " ٣٢ " من سورة الأعراف .
6) جزء من الآية " ١٣ " من سورة الجاثية .

أهمية العلم بأساليب القرآن في بيان الأحكام

من البديهي أن على كل من يريد استنباط الأحكام الشرعية من القرآن الكــريم أن يعــرف هذه الأساليب القرآنية ، مستعيناً بما جرى عليه عــرف العــرف فى الاستعمال وبما تشتمل عليه من وعد أو وعيد ، فكــل فعــل مدحه الله تعالى أو مدح فاعله أو أحبه أو أحب فاعله أو أقســم بفاعلــه فهــو مشترك بين الوجوب والندب ، وكل فعل طلب الشــارع تــركه أو ذمه أو ذم فاعله أو لعنه أو سب فاعله ، أو جعله سبباً لعذاب عاجل أو آجل أو وصفه بأنه رجس أو فسق فهم مشترك بــين التحريم والكراهة ، ودلالته على التحريم أظهر من دلالته على الكراهة .

وكل ما كان بلفظ الإحلال أو نفي الإثم أو الحرج أو الجناح عن فاعله فهو مباح ([1])

---

[1]) انظر تفصيلاً في بيان أسلوب القرآن في بيان الأحكام : أصول الفقه للأستاذ / زكي الدين شعبان ص٤٧-٥٠ ، أصول الفقه للأستاذ البرديسي ١٨٩-١٩٢ ، دراسات في القرآن للدكتور/ الحفناوي ١٤٩ -١٥٢ .

شبهات المشككين حول صدقية القرآن الكريم

لمـــا رأى أعـــداء الإسلام ثبوت الإيمان بالقرآن ثبوتاً يقينياً في قلوب المسلمين ، فحسدوا المسلمين على هذه الثقة التي لا تتوافر لكتاب آخر على ظهر هذه الأرض ، سواء أكان هذا الكتاب منسوباً إلى السماء أم كان كتاباً بشرياً خالصاً .

ولـــذلك ! فقد أطلقوا سمومهم ، وجهزوا جيوشهم لزعزعة هذه الثقة ، وتشـــكيك المسلمين في مصدر كرامتهم وفخرهم ؛ وإصابتهم بخلخلة في الإيمان بصدق القرآن ، **يريدون أن يقولوا للمسلمين :**

إذا كنـــتم ــ أيها المسلمون ــ تتهمون كتبنا " التوراة والإنجيل " بأنها وإن كانت سماوية الأصل إلا أن التحريف والتبديل قد شابها ، فنحن ـــ أعنـــي أعداء الإسلام والقرآن ــ نتهم كتابكم بذلك أيضاً ، فهو ينطبق عليه ذات المآخذ التي تتوجهون بها إلى التوراة والإنجيل .

ونحن نعرض ــ بإذن الله تعالى ــ لبعض هذه الشبه ؛ فاضحين لها ، ومبينين لعوارها، سائلين الله تعالى أن يعيننا على تجلية الحق وقصم ظهر الباطل ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

الشبهة الأولى

قالوا : إن القرآن الكريم لم يجمع في مصحف واحد على النحو الذي بـــين أيديـــنا الآن فـــي حياة النبي محمد ﷺ ، وإنما جمع في عصر

الصـــحابة ، وهـــم غيـــر معصومين ؛ مما يعني أن القرآن معرَّض كالكتب السابقة للإضافة والحذف والتحريف والتبديل .

وقالــوا أيضاً : لما جمع الصحابة القرآن لم يضعوا فيه النقاط على الحـــروف ، فلـــم يوضع تحت الياء نقطتين ، ولا فوق النون نقطة ، وإنمـــا تـــم ذلك في عصر التابعين ، والمعلوم أن تغيير وضع النقاط على الحروف في كلمة من شأنه أن يغير المعنى تغييراً كاملاً.

وقالوا أيضاً : كان كتابكم غير مشكول ، بمعنى أنه لم توضع على حـــروفه علامـــات التشكيل من الفتحة والضمة والكسرة إلا في حياة التابعين أيضاً وهذا من شأنه الإخلال بقداسة كتابكم .

و قالـــوا أيضـــاً : هـــل تنكرون أيها المسلمون أن علامات الترقيم الموجودة في مصحفكم (١ ، ٢ ، ٣ ...... الخ) قد أضافها التابعون إلى هذا الكتاب ولم تكن موجودة في حياة النبي ﷺ ولا أصحابه ؛ مما يعنـــي أن كـــتابكم أيضاً قد جرى عليه التحريف والإضافة ، وليس أفضل حالاً من التوراة ولا الإنجيل .

الجواب على هذه الشبهة

لم يلتفت هؤلاء المشككون في صدق القرآن إلى بدهية من البدهيات ، وحقـــيقة تاريخـــية ثابتة ، وهي أن وسيلة المسلمون في تعلم القرآن الكريم منذ أن نزل ، وإلى يوم القيامة هي : السماع بالأذن ، والتلقي بالمشافهة ، وليست هي القراءة من كتاب .

<u>بيان ذلك :</u>

لقـــد سمع النبي ﷺ القرآن من جبريل عليه السلام ، فحفظه بناءً على هـــذا الســـبب وكان في بداية الأمر يستعجل في مجاراة أمين الوحي جبريل عليه السلام ، يردد معه أثناء القراءة ، يريد ماذا ؟

يـــريد أن يوثق الحفظ ؛ حتى لا تتوه منه الكلمات ، و الآيات فطمأنه الله تعالى ، ووعده بأنه سيقرئه القرآن الكريم ، فلا ينساه ، قال الحق سـبحانه وتعالـــى" سنقرئك فلا تنسى " ، وقال في سورة القيامة " لا تحـــرك بـــه لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه " أي أن الله تعالى وعد النبي ﷺ بأن يجمع له القرآن في قلبه ، بحيث لا يعرض له النسيان ، **<u>هذه هي المرحلة الأولى من مراحل سماع القرآن .</u>**

ثم سمعه كتاب الوحي من فم النبي ﷺ ، وكتبوه بين يديه ، وقرأوا عليه مـــا كتـــبوه ، **<u>وهـــذه هـــي المرحلة الثانية من مراحل سماع القرآن.</u>**

ثـــم سمعه عموم الصحابة من النبي ﷺ ، ومن كتاب الوحي ، **<u>وهذه هي المرحلة الثالثة من مراحل سماع القرآن .</u>**

ثـــم تلقـــاه المسلمون جيلاً بعد جيل عن طريق السماع ، **<u>وهذه هي المرحلة الرابعة من مراحل السماع للقرآن</u>** ، والمستمرة بحول الله تعالى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولذلك :

فإنـــك إذا لـــم تـــتعلم القرآن الكريم عن طريق شيخ أو قارئ سماعاً ومشافهةً فإنك وإن حصلت على أعلى الشهادات الجامعية لن تستطيع قراءته على النحو الذي يرضي الله تعالى ، أتعلم لماذا لا تستطيع ؟ لأن وسيلة تعلم القرآن وحفظ القرآن منذ أن نزل وإلى يوم القيامة هي السماع والتلقي للمشافهة .

أهم العوامل التي ساعدت المسلمين في حفظ القرآن

١- أن القرآن لم ينزل جملة واحدة ، ولو نزل كذلك لقيل : إنه يصعب حفظـــه ، وإنما نزل مفرقاً على مدار ثلاث وعشرين سنة ، وكان نزوله ـــ كما ذكرنا قبل ذلك ـــ خمس آيات ، أو عشر آيات ، أو بعض آية ، سورة ، وهذا كله ساعد على سهولة حفظه .

٢- لم يفارق القرآن الكريم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم في أي لحظـــة مـــن لحظـــات حياتهم ، ولك أن تتخيل هذا الاحتفاء غير العادي الذي كان القرآن محظياً به من هؤلاء الرجال ؛ لدرجة أن النبـــي ﷺ جعـــل تعليم جزء منه مهراً لامرأة ، وقال للرجل الذي يحفـــظ بعـــض الســـور، وليس معه مال " زوَّجتكها بما معك من القرآن " .

فالقـــرآن كـــان أهم شيء في حياة الصحابة ، ويظهر ذلك في أنهم يقـــرءون جـــزءاً مـــنه في الصلوات في كل يوم وليلة خمس مرات ، وجـــزءاً أطول في صلاة القيام في الليل ، ويقرءون منه ورداً ثابتاً في كل يوم ، وأقل قدر يقرءونه في كل يوم جزء ، والقرآن ثلاثين جزءاً كما هو معلوم ، وبعض الصحابة كان يختم القرآن في ثلاث أيام .

بـل إن أحدهم كان إذا عاد إلى زوجته في بيته فإن أول سؤال تبادره بــه المرأة : ماذا أنزل اليوم من القرآن على رسول الله ﷺ ؟ وماذا تعلمت منه ؟

٣- العرب أمة أمية ، لم ينتشر فيهم العلم بالقراءة والكتابة ، ولذلك ! فإن وسيلتهم الأصلية في حفظ ما يهمهم من أمور ومعلومات هي : تخزين ذلك في الذاكرة ، ولذلك ! فقد اشتهروا بقوة الحفظ إلى حد مبهـر، ومـن هنا ! فقد كان من اليسير عليهم أن يحفظوا القرآن خاصــة مع قوة بلاغته ، وعذوبة ألفاظه ، وجميل تراكيبه ؛ على نحو كان يأسر ألبابهم وعقولهم .

٤- كــان جبريل عليه السلام يأتي إلى النبي ﷺ في رمضان من كل عــام يدارسه القرآن ، أي يجلس معه يتدارسا الآيات التي أنزلت على النبي ﷺ في هذا العام ؛ حتى كان العام الأخير الذي توفي فيه النبي ﷺ فقد جاء جبريل عليه السلام ، ودارسه القرآن مرتين في هــذا العــام ، فيما عرف بالعرضة الأخيرة ، و قد حضر بعض الصحابة مع النبي ﷺ هذه العرضة الأخيرة .

٥- أضاف النبي ﷺ إلى السماع وسيلة أخرى للمحافظة على الوحي الإلهــي ، وذلــك أنه كان بمجرد الفراغ من الوحي ، يأمر كتاب الوحــي بكــتابة الآيــات التي تعلمها ﷺ ، وما توفي النبي ﷺ إلا والقــرآن محفــوظ فــي صدور الصحابة ، وفي وسائل الطباعة والكــتابة المتيسرة في هذا العصر، وهي الرقاع والجلود والعظام ونحوها .

إذاً : تجمَّع للقرآن في حياة النبي ﷺ وسيلتان للحفظ وهما :

الحفظ في الصدور ، والحفظ في السطور .

وعندما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان القرآن محفوظاً لدى كثرة كاثرة من أصحاب النبي ﷺ .

اعتراض وجوابه

فإن قيل : كيف يصح القول بأن كثرة من الصحابة كانت تحفظ القرآن ؟ مع أنه قد روي " أنه جمع القرآن من الصحابة أربعة " وفى رواية " خمسة " أو " ثمانية " منهم عبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت رضي الله عنهما ؟

والجواب : أنه ليس المراد بقول الراوي : جمع أي " حفظ " ؛حتى يأتي هذا الاعتراض ، بل المراد : أنهم كانوا بمثابة المراجع التي يرجع إليها ، أو أنهم كانوا أكثر الصحابة التزاماً وتطبيقاً لأحكام القرآن الكريم ، **والدليل على ذلك** :

أن غزوة بئر معونة وحدها استشهد فيها سبعون من حفاظ القرآن من الصحابة الكرام ، فكيف يقال : إن الذي كان يحفظ القرآن كله منهم أربعة أو ثمانية فقط ؟

والحق أن القرآن الكريم كله كان محفوظاً في صدور الرجال ، ومن الصحابة من كان يحفظه كله ، ومنهم من يحفظ بعضه كثلثه ، أو ربعه ، أو سورة منه .

وعندما تولى الصديق أبو بكر الخلافة ، ووقعت الردة ، وكانت موقعة اليمامة ، وتهافت الحفاظ على بذل النفس في سبيل الله ؛ كتهافت الفراش على النار .

وقـــيل : استحر القتل بالقراء في هذا اليوم ؛ لأنهم كانوا أكثر الناس تعريضـــاً لأنفســـهم للاستشهاد في سبيل الله ، فجاء الفاروق عمر بن الخطـــاب رضي الله عنه ، وقد هاله ما رآه في هذه الموقعة ، وقال للصـــديق : نريد أن نجمع القرآن الموجود في الأوراق المكتوبة في حياة النبي ﷺ في كتاب واحد ؛ لكثرة عدد القراء الذين استشهدوا في ســـبيل الله ؛ حتى يكون كالمرجع يرجع الناس إليه ، وحتى لا يضيع القرآن بموت حفاظه .

لـــم يقبل الصديق اقتراح الفاروق عمر أول الأمر ، وإنما قال : كيف أفعـــل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ، فما زال الفاروق يراجعه ؛ حتى شرح الله صدر أبي بكر ، فأرسلا إلى زيد بن ثابت ورضي الله عنه ، وكلفه الصديق أبو بكر بالقيام بهذه المهمة ، والسؤال :

لماذا زيد بن ثابت تحديداً ؟

والجـــواب : أنـــه كان أحد الصحابة الذين حفظوا القرآن كله في حياة النبـــي ﷺ ، وكـــان من كتاب الوحي الذين عهد إليهم النبي ﷺ بهذه المهمة ، ثم إنه أحد الصحابة الذين شرفوا بحضور العرضة الأخيرة للقرآن من جبريل على النبي ﷺ .

وقد بيَّن الصديق هذه المؤهلات التي أهلت زيد بن ثابت لهذه المهمة الجليلة ، فقال : إنك شاب عاقل ، لا نتهمك في دينك ، وقد حضرت العرضة الأخيرة مع النبي ﷺ ، وكنت تكتب الوحي "

ونهـــض زيـــد للقيام بهذه المهمة مستشعراً جلالها ، وقال : والله لو كلفاني نقل جبل لكان أهون عليَّ من تكليفي بجمع القرآن .

ماذا فعل الصديق رضي الله عنه ؟

الـــثابت أن الصديق لم يؤلف قرآناً من عند نفسه ، بل ولا حتى أعاد كتابة المكتوب في حياة النبي ﷺ ، وإنما كانت مهمة الجمع للقرآن في حياته لها هدف واحد ، هو جمع الأوراق والألواح المتفرقة التي كتبت بين يدي النبي ﷺ ، وربطها ببعضها في كتاب واحد مجموعة مرتبة وذلــك أن النبي ﷺ كان يأمر كتاب الوحي إذا أنزلت عليه سورة أو آيات أن يكتبوها ، ويضعوها في مكان كذا من السورة التي أنزل فيها كـــذا وكذا ، ثم يُقرأ النص المكتوب بين يديه عليه الصلاة والسلام ؛ ليســـتوثق من أنه ذات النص المنزل عليه ، والذي حفظه من جبريل عليه السلام ، ثم يوضع هذا المكتوب في بيته ﷺ .

إذاً ! اقتصـــر عمـــل زيـــد بن ثابت في حياة أبي بكر على ربط هذه الأوراق فـــي خـــيط واحـــد مـــرتبة بذات الترتيب الذي رآه زيد في العرضة الأخيرة.

أما النص المكتوب ، فلم يطرأ عليه أي تغيير ولا تبديل ، والصحابة الكرام يحفظون هذا النص ، وما كان زيد يقبل مخطوطاً إلا إذا شهد عليه شاهدان أن هذا النص المكتوب قد دُوِّن بين يدي النبيﷺ ؛ لأن من الصحابة من كان يكتب نسخة لنفسه يرجع إليها عند الحاجة .

الجمع الثاني للقرآن في عهد عثمان

لـــم يكن المسلمون في حاجة إلى الرجوع إلى الوثيقة التي جمعها زيد بن ثابـــت للقـــراءة مـــنها ؛ لأنهـــم كانوا يحفظونها تماماً ، فالحفظ والتلقين والمشافهة هي وسيلة نقل القرآن .

واســتمر الأمر على هذا النحو؛ حتى كان عهد عثمان بن عفان رضى الله تعالــى عنه ، فوقع أمر في فتح أذربيجان بين الصحابة اقتضى أن يتدخل عــثمان في شأن المصحف مرة ثانية بعد ما كان من أبي بكر رضي الله عن سائر أصحاب النبي ﷺ .

تعلمون أن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف ــ وقد فسرنا معناها قبل ذلــك ــ والصحابة كانوا يجلسون بين يدي النبي ﷺ ويسمعون منه القرآن ويقرءون أمامه ، وهناك من لم يسمع إلا قراءة واحدة .

فلمــا كانــت فــتوح أذربــيجان وقع الاختلاف بين الصحابة في القراءة وطــريقتها ، فقال بعضهم لبعض : قراءتنا صواب وقراءتكم خطأ ، فأتى حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ، وقال لخليفة المسلمين عثمان بن عفان : أدرك أمة محمدﷺ قبل أن يختلفوا في القرآن اختلاف اليهود والنصارى ، وكان هذا في سنة ٢٥ هجرية .

فأمــر عــثمان بإحضار المصحف الذي جمعه زيد بن ثابت في حياة أبي بكــر، والــذي كان محفوظاً عند الصديق ، ثم نقل إلى الفاروق عمر بعد الصديق أبي بكر ، ثم انتقل بعده إلى أم المؤمنين حفصة .

وكلَّــف ســيدنا عثمان زيد بن ثابت للمرة الثانية ، ومعه ثلاثة من خيار الصحابة ، بالقيام بعمل جليل في شأن المصحف توحيداً لكلمة المسلمين ، وحفظاً للقرآن الكريم من الضياع والتبديل والتغيير ، وهذا العمل هو :

نســخ المصــحف المكتوب بين يدي النبي ﷺ عدة نسخ ، وإرسالها إلى الأمصــار ؛ ليــتفق الكــل على القراءة الصحيحة ، التي لا يصح القراءة بدونها ، ثم أمر بإحراق ما عدا هذه النسخ من المصاحف التي كانت لدى آحاد الصحابة .

الفرق بين الجمعين

يختلف جمع القرآن في حياة أبي بكر عنه في حياة عثمان ؛ لأن الجمع الحاصل في حياة الصديق كان مجرد ربط للأوراق والألواح المكتوبة قبل ذلك في حياة النبي ﷺ برباط واحد مرتب فقط ، لكن أبا بكر رضي الله تعالى عنه لم يقم بجمع المصاحف الفردية التي كان كثير من الصحابة يكتبها لنفسه ، مع أنها قد تحتوي على آيات منسوخة ، وقد يفوت صاحبها بعض الآيات ؛ لغيابه عن المدينة ، أو لأي سبب آخر ، وقد يكتب بعض الصحابة على هامش المصحف معنى آية سمعه من النبي ﷺ أو فهمه هو ، فلو ترك عثمان هذه المصاحف في أيدي أصحابها، وأتت أجيال بعد ذلك تقاوم العهد بينهما وبين العهد الأول ، فمن يستطيع أن يجزم بعدم اختلاط النص الأصلي بسواه ؟ وفي هذا ضياع للقرآن وتكذيب لقوله تعالى " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " .

وكيف كنا سنعلم أن نصاً كـ " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة " قد نسخ إذا بقي هذا النص مدوناً في المصحف .

إذاً !! حدوث اختلاف بين الصحابة في قراءة القرآن دفع عثمان إلى إعادة نسخ النص الأصلي عدة نسخ ، وبثها في الأمصار؛ لتكون هي المرجع المعتبر الذي لا عبرة بسواه ، وقد كان هذا العمل من توفيق الله لعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه .

فعثمان لم يقم بكتابة مؤلف جديد ، بل نسخ المكتوب الأصلي تماماً ، كما نأخذ صورة ضوئية لوثيقة من الوثائق في هذا الزمان ، فهل تختلف الصورة عن الأصل ؟

لا وجه لاختلافها سيما والصحابة الحفاظ للنص الأصلي متوافرون وشاهدون وليس من شيمهم السكوت على أي خلل خاصةً إذا كان هذا الخلل في شأن أقدس وثيقة عندهم ، وهي كتابهم ، وقد كانوا يراجعون الخلفاء في أمور صغيرة الشأن ، فهل سيغضون الطرف عن تبديل في القرآن أو تعديل فيه ؟

فعثمان نسخ المصحف الأصلي وأرسل منه نسخاً للأمصار ، حتى قال بن كثير : إنه رأى المصحف المنسوخ بخط عثمان على يسار المنبر في دمشق ، أي ظلت هذه المصاحف قروناً طويلة ، بل إن البعض يقول : إن من هذه النسخ ما هو موجود الآن في إنجلترا ، كانت في مكتبة بلجراد ، ثم أخذها الروس ، ثم هي عند الإنجليز لا نستطيع استعادتها وفي الجملة ! كانت وسيلة المسلمين في الحفظ للقرآن هي السماع والتلقي ، وليس النص المكتوب .

قضية وضع النقط فوق الحروف وضبطها بالشكل

نعم ! هي أضيفت في عصر التابعين ، لكن هل هذه الإضافة غيرت من الحقيقة الثابتة ، وهي : أن السماع هو الوسيلة المعتبرة لحفظ القرآن الكريم ؟

لا ! لم تغير منها شيئاً ، وإنما وضعت هذه النقاط وعلامات التشكيل خدمة للنص الأصلي وحفاظاً عليه ؛ لأن الإسلام انتشر ، ودخل فيه أقوام كثيرون من الأعاجم ممن لا يحسنون العربية ، وكانوا يجدون مشقة في حفظ القرآن فكانت الحاجة داعية إلى تيسير أمر الحفظ عليهم عن طريق الكتابة ، مع الوسيلة الأصلية التي هي الحفظ بالنحو المأثور عن النبي ﷺ .

ولـــك أن تتخيل مثلا كلمة " جنة " كتبت خالية من النقط ، فسيحتار الأعجمـــي حديث الإسلام في كيفية قراءتها ، ولذلك وضع التابعون لهـؤلاء الـــنقاط علـــى الحروف ، وضبطوها لهم بالشكل (بالفتحة والضمة والكسرة) ، كي لا يبعدوا عن القرآن ، مع الأخذ بالاعتبار أن الوسيلة الأصلية لحفظ القرآن بقيت منذ الزمن الأول، وحتى الآن هي السماع بالأذن والتلقي بالمشافهة .

الشبهة الثانية

قالوا : تعددت المصاحف واختلفت أعداد السور التي يشتمل عليها كل مصـــحف ، فهناك مصحف عدد السور فيه (١١١) سورة ، وهناك مصـــحف آخر عدد السور فيه (١١٢) سورة ، وثالث (١١٣) ، ورابع (١١٤) سورة ، مما يدل على أن القرآن فيه زيادة ونقصان ؛ إذاً ينطبق عليه ما ينطبق على التوراة والإنجيل من شبهة التحريف .

الجواب على هذه الشبهة

قـــد يلتـــبس ما ذكره هؤلاء على من قلَّ علمه بالقرآن الكريم ؛ لأن المصاحف جميعها اتفقت في عدد الآيات والكلمات ، دون زيادة ، ولا نقصان .

وأمـــا اخـــتلاف العـــدد فراجع إلى أن بعض طوائف الشيعة ترى أن ســـورتي الأنفال والتوبة سورة واحدة ، فأصبح عدد سور القرآن عندهم (١١٣) سورة .

وعند بعض الطوائف : تعتبر سورتي الضحى والشرح سورة واحدة ؛ مما جعل عدد سور القرآن عندهم (١١٢) .

وهناك من قالوا: إن سورتي الفيل وقريش سورة واحدة ، فأصبح العدد عندهم (١١١) سورة .

إذاً ! الاختلاف في العدد ، وليس في المعدود ، وهو لا يفسد للود قضية ؛ لأن النص القرآني واحد عند الجميع .

ونضيف هنا زيادة في البيان ، ونقول : إن سورة الفاتحة سبع آيات من غير البسملة في نظر البعض ، وهي سبع آيات بالبسملة في نظر بعض آخر ، فهل اختلفت الفاتحة عند الجميع ؟

الجواب : لا ، وسر هذا الاختلاف أن الذين قالوا: إن الفاتحة سبع آيات من غير البسملة يعتبرون الوقوف على قوله تعالى " صراط الذين أنعمت عليهم " وقوفاً على رأس آية ، والآخرون يعتبرونها جزءاً من الآية الأخيرة في سورة الفاتحة .

اعتراض وجوابه

فإن قيل : إن بعض غلاة الشيعة يقولون : عندنا مصحف مختلف ، وقد ألغى عثمان بن عفان منه سورةً تتكلم عن مناقب سيدنا على بن أبي طالب .

أجيب بأن هذا كلام غريب ، وبطلانه ظاهر ؛ مما يغني عن إبطاله ؛ لأن طائفة الشيعة ما ظهرت إلا بعد استشهاد عثمان رضى الله عنه ، وبعد الخلاف بين علي ومعاوية رضى الله عنهما .

ومعنـــى هذا : أنه لم يكن هناك حاجة داعية لإلغاء سورة تتكلم عن مـــناقب علي في حياة عثمان ، ولو حدث هذا ، فلماذا سكت الصحابة الكرام ؟ ومنهم سيدنا علي رضى الله عنه ، حتى روي عنه أنه قال : اتقوا الله في عثمان ولا تقولوا : حراق المصاحف ، فإنه فعل ما فعله على ملأ منا نحن أصحاب النبي محمد ﷺ

الشبهة الثالثة

وقـــد أثارها المستشرق (1) اليهودي " جولد زيهر " حيث قال : إن الخـــط العربي لم يكن به نقط ولا تشكيل ، فحكاية القراءات هذه من وحي خيال المسلمين، فالقرآن كتاب لا يخلو من العمل البشري .

الجواب عن هذه الشبهة

بدايـــة نشير إلى أن القراءات التي تعارف عليها المسلمون لا تقع في كـــل كلمـــات القرآن على معنى أن الكلمات التي تتعدد أوجه قراءتها كلمات معدودة .

فمن الآيات ما تبلغ كلماتها عشرين كلمة ، وليس بها إلا كلمة واحدة هي التي تتعدد أوجه قراءتها ، فمثلاً :

---

1) هـــناك فـــارق بـــين المستشرقين والمبشرين ، فالمبشرون (والأفضل أن نسميهم بالمنصِّـــرين) طائفة من النصارى تعمل على فتنة المسلمين جميعاً ، وردهم عن ديـــنهم إن استطاعوا ، وهؤلاء المنصرون هم أساتذة المستشرقين الذين يوجهون كلامهـــم وتشـــكيكهم فـــي الإسلام إلى شريحة معينة من المسلمين ، وهي الطائفة المثقفة ثقافة عالية في مجتمع المسلمين .

قوله تعالى " لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم "
فهـذه الآيـة ليس بها إلا كلمة " أنفسكم " فهي تقرأ مرة بضم الفاء " أنفُسِكم " وأخرى بفتحها " أنفَسِكم " ، ثم تقرأ بقية كلمات الآية بطريقة واحدة في جميع القراءات .

أضف إلى هذا أن القراءة لا تثبت إلا إذا صح سندها ، وثبتت نسبتها إلى النبي ﷺ ، وأنه تلقاها عن أمين الوحي جبريل عليه السلام .

ولـذلك ! فنحن لم نقبل قراءة " فصيام ثلاثة أيام متتابعات " المنسوبة إلى سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه ، لماذا ؟
لأنها غير منقولة نقلاً متواتراً عن النبي ﷺ .

كمـا أنـه يشترط لقبول القراءة مع صحة السند وتواتره : أن تكون مـوافقة للرسم العثماني ، فإذا كان قوله تعالى " إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيـنوا " يمكن أن يُقرأ " فتثبتوا " ، والفرق حينئذ بين القراءتين هو في وضع النقاط فوق الحروف أو تحتها ، لكن لا يصح أن يقال : بدل " فتبيـنوا " : فـتحققوا ؛ لأنهـا لا توافق الرسم العثماني الذي نقله التابعون عن أصحاب النبي ﷺ .

ويشـترط في القراءة أيضاً : أن تكون موافقة لوجه من وجوه اللغة العربية ، وأن لا تتعارض مع مقاصد القرآن الكريم .
ولـو فهـم هـذا المستشرق هذه الشروط التي وضعها العلماء لقبول القراءة ما تفوَّه بهذا الكلام الساقط .

الشبهة الرابعة

قالــوا : تقولــون أيهــا المسلمون : إن القرآن كتاب أحكمت آياته ثم فصــلت ، وهو كتاب واضح بيِّن لا غموض فيه ، مع أن في القرآن كلاماً غامضاً غير مفهوم مثل قوله تعالى " الم ــ الر ــ المص " .

الجواب عن هذه الشبهة

ســبق أن عرضنا بين ثنايا هذا الكتاب لقضية الحروف المقطعة في أوائل السور ، ونضيف هنا :
أن عــدد آيات القرآن الكريم ٦٢٣٦ آية ، وعدد الآيات التي بها هذه الحروف المقطعة ٢٨ آية فقط ، فالنسبة بين هذه وتلك بعيدة وواسعة.

ثم ! من الذي قال : إن هذه الأحرف ليس لها معنى ؟
إن العلماء قد ذكروا في تأويلها ما يربو على عشرين قولاً ، وبالتالي ! فهناك أقوام فهموا لهذه الآيات معان ، وإن غفل أمثالكم عنها .

أضــف إلــى هــذا ! أن هذه الآيات كانت بمثابة إثبات العجز على المخاطبين ، وكأنه يقول لهم : القرآن الكريم مكون من هذه الحروف الهجائية التي تستعملونها في كلامكم وأشعاركم ، فما الذي يمنعكم عن الإتيان بمثله؟
اللهــم إلا إن كان خارجاً عن طوق البشر ، وتنزيل من خالق البشر سبحانه وتعالى .

ومـــن العلماء من قال : إن افتتاح السور بهذه الحروف المقطعة كان بمـــثابة شـــيء في البلاغة اسمه " قرع العصا " أي القيام بأمر يلفت انتـــباه الغافل أو الشارد ، فكأنه يقول لهم : أيها الغافلون ! انتبهوا ، ستتلى عليكم آيات من القرآن الكريم بعد هذا التنبيه .

وبالجملة ! فهذه الأحرف لها معان ، فهمها من فهمها ، وجهلها من جهلها ؛ لأنها لو لم يكن لها معنى لاحتج الكفار على النبي ﷺ وقالوا : إنك تأتي بكلام ليس له معنى ، فلماذا تطلب منا أن نأتيك بشيء مثل هـــذا ؟ فلما لم يحتجوا عليه بذلك ، دل على أن لهذه الحروف معنى فهموه وعلموه ، ولذلك ! لم يقع منهم هذا الاعتراض على النبي ﷺ

الشبهة الخامسة

وهذه الشبهة هي المتعلقة بقضية النسخ في القرآن الكريم والسنة النبوية الشـــريفة ، وقد حدث حولها لغط كبير في وسائل الإعلام والفضائيات التـــي أنشـــئت خصيصاً من أجل النيل من الإسلام والطعن في رسوله وكتابه ، وخالت هذه الشبهة على نفر من المسلمين ممن لا حظ لهم في العلـــوم الشـــرعية ، ولـــذلك ! فقد عزمت على الإسهاب في بيان هذه القضية ، ولعل كلماتي هذه ترد الشارد ، وتخرس المتحامل ، وتطمئن المتردد .

والله تعالـــى أســـأل أن يزيّن بهذه الكلمات صحائفي يوم القيامة ، وأن يصلح بسببها عملي وأولادي في الدنيا ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

النسخ في النصوص الشرعية

تعريف النسخ في اللغة والاصطلاح

النسخ فى اللغة :

يطلق النسخ في اللغة على : إبطال الشيء وإزالته وإعدامه ، يقال : نسخت الريح أثر القدم أى أزالته .

ويطلــق النســخ أيضاً على نقل الشيء وتحويله مع بقائه فى نفسه ، ومنه نسخ الكتاب لما فيه من مشابهة النقل ، وإليه الإشارة بقوله تعالى" إنــا كــنا نستنسخ ما كنتم تعلمون " [١] . والمراد به نقل الأعمال إلى الصحف ، ومن الصحف إلى غيرها [٢].

وأما النسخ فى الاصطلاح :

فقد عرف بتعاريف كثيرة نختار منها تعريفه بأنه :

رفــع حكــم شرعي أو لفظه بدليل شرعى في حياة الرسول ﷺ [٣]

وفيما يلي شرح هذه التعريف :

قولنا : " رفع حكم "

أي تغييــره بالكلــية ، وإزالــة الحكم الأول نهائياً ، فلا يبقى في أي صورة من الصور .

---

١) جزء من الآية " ٢٩ " من سورة الجاثية .

٢) انظر : لسان العرب لابن منظور ج٥ ص ٤٤٠٧ .

٣) انظر : الموافقات ج٣ ص ٦٤ .

ففـــي النســـخ يتغير الحكم : من الإيجاب إلى الإباحة ، أو من الإباحة إلى التحريم مثلاً :

ومما نقل من الإيجاب إلى الإباحة :

صــــوم عاشوراء ، وقيام الليل ، ومصابرة المائة من المسلمين للألف من الكفـــار في المعركة ، والعشرة للمائة ، فقد كان هذا واجباً في الأول لكن أبيح أي نسخ للإباحة .

ومما نقل من الإباحة إلى التحريم :

نكاح المتعة ، وأكل لحوم الحمر الأهلية .

وخرج من تعريف النسخ بأنه يعنى تغيير الحكم :

تخلف الحكم لفوات الشرط أو وجود مانع ، مثل :

أن يـــرتفع وجـــوب الـــزكاة لنقص النصاب ، أو وجوب الصلاة لوجود الحيض ، فلا يسمى ذلك نسخاً .

فمن ملك ألف دينار ذهبي فعليه زكاة مقدارها : خمسة وعشرون ديناراً ، لكـــن إذا تلف المال قبل الحول ارتفع عنه الوجوب ؛ لفوات الشرط ، وهو تمام الحول ، فلا زكاة عليه ، ونقول : إن هذا نسخ ؛ لأن حكم المسألة باق ، لكن ارتفع عن هذا الشخص لفوات الشرط .

ولو أن امرأة مكلفة بالغة عاقلة أصابها الحيض نقول : ليس عليها صلاة ، ولا يســـمى هـــذا نسخاً ؛ لأن الحكم باقٍ ، لكن وجد مانع ، وهو الحيض فارتفـــع عن هذه المرأة المعينة حكم الصلاة ، وصارت الصلاة حقها غير واجبة ، بل هي محرمة ، وعلى هذا فقس .

فائدة كلمة " رفع " في التعريف

لما ذكرنا هذه الكلمة في التعريف لم نكن بحاجة إلى أن نشير في التعريف إلـــى أنـــه يشـــترط في الدليل الشرعي الذي رفع الحكم الشرعي أن يأتي متأخـــراً عن هذا الحكم في زمن النزول ؛ لأن رفع الحكم الشرعي يستلزم أن يكـــون الناســـخ متأخـــراً عـــن المنسوخ ؛ إذ أن الرافع إنما يكون بعد المرفوع .

والمراد بقولنا : " أو لفظه "

لفظ الدليل الشرعي ؛ لأن النسخ إما أن يكون للحكم دون اللفظ أو بالعكس ، أو لهما جميعاً ، كما سيأتي .

<u>قولنا : " بدليل شرعي "</u>

فيه إشارة إلى أنه لا تصح دعوى النسخ بالهوى والتشهي ، وإلا لضاعت أحكام الإسلام التي لا تروق لبعض المارقين ، بزعم أنها أحكام منسوخة ، وإنما يتعين لحصول النسخ أن يظهر دليل شرعي يغير حكماً شرعياً سابقاً عليه .

<u>قولنا " في حياة الرسول ﷺ "</u>

قـــيد فـــي التعريف أريد به بيان أن الناسخ لا بد وأن يكون نصاً قرآنياً أو حديـــثاً نـــبوياً ، أي مصدراً معتبراً للأحكام الشرعية في حياة النبي ﷺ ؛ وذلـــك مقصـــور على القرآن والسنة فحسب ، يقول سبحانه وتعالى " وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى "

<u>وأما الإجماع والقياس :</u> فمع أنهما من مصادر الأحكام الشرعية المتفق علـــى حجيتها لجماهير المسلمين ، إلا أنه لا ينسخ بواحد منهما في حياته ﷺ .

فـــلا إجماع في حياة الرسول ﷺ ؛ إذ الإجماع يقتضي اتفاق المجتهدين من أمة محمد ﷺ على حكم شرعي في عصر من العصور ، بعد وفاته ﷺ .

فلو قال قائل :

أجمع الناس على أن البنوك فيها مصلحة ومفيدة اقتصادياً ومالياً ، والمفيد حلال !! ، وهذا الإجماع نسخ تحريم الربا .

فنقول له :
إذا كان إجماع العلماء وهم أهل الشرع لا يمكن أن ينسخ النص الشرعي فما دونه من باب أولى .

وكــذلك القياس : لا يمكن أن ينسخ الحكم الشرعي ؛ لأن القياس ليس مصدراً للأحكام في حياته ﷺ .
وأما بعد وفاته ! فلا يمكن أن ينسخ الحكم أيضاً ؛ لأن شرط العمل بالقياس هو : أن لا يصادم نصاً شرعياً .

شريعة الإسلام نسخت الشرائع السابقة

أجمعــت الأمـــة على أن شريعتنا ناسخة لما يخالفها من أحكام الشرائع السابقة .
فقــد نســخ الإســلام بعض الأحكام التى جاءت فى الديانات السماوية الســابقة كتحــريم بعض الأغذية الذى كان قائماً عند اليهود ، فأباحها الإسلام .
فقد حرم الله عز وجل هذه الأطعمة عليهم ، لغلظ أكبادهم ولشراهتهم ، والتحريم قد يفطم هذه النفوس عن شراهتها .

ولــذا قـــال تعالى " وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغــنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم " [1] .

---

١) جزء من الآية " ١٤٦ " من سورة الأنعام .

وقـــد وجـــدنا فى النصوص اليهودية التى بين أيدينا إباحة الزواج من النساء إلى غير عدد ، فإذا كان هذا صحيحاً فإن القرآن يكون قد نسخ الإطلاق فى العدد ، وقيده بأربع.

وبهـــذا يتبين أن القرآن قد نسخ بعض الأحكام العملية التى جاءت فى الشرائع السابقة .

ومـــا نســـخه القـــرآن إنما هو الأحكام التى تختلف باختلاف الزمان والمكان والعصر .

أمـــا ما له صفة العموم من الفضائل ، وما يشتق من الفطرة الإنسانية فإنه غير قابل للنسخ كالعقائد ، لأنه شريعة الإنسانية الأبدية (١) .

ولذا ! قال تعالى " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ... " (٢)

هل يمكن وقوع النسخ فى الشريعة الواحدة ؟

اختلف العلماء في ذلك على أقوال :

القول الأول : **وهو قول جمهور المسلمين** ، وقد ذهبوا إلى أنه يجوزحصول النسخ عقلاً ، كما أنه واقع شرعاً فى الشريعة الواحدة ، كما يجوز حصوله بين الشرائع المختلفة .

---

١) انظر : أصول الفقه للشيخ أبى زهرة ص ١٦٥ .

٢) جزء من الآية " ١٣ " من سورة الشورى .

ومعنـــى إمكانـــية حصول النسخ عقلاً : أن العقل يقضي بإمكان حصول تغيير في حكم شرعي .

والسؤال :

لمــاذا يقال : النسخ جائز عقلاً بعد أن قيل : هو واقع شرعاً ؟ على معنى : أنه إذا وقع شيء في الشرع بالفعل ، فليس هناك حاجة لإثبات أنه جائز عقلاً ؟

والجــواب : أنــنا نقول ذلك ؛ حتى إذا خاطبنا شخصاً ضعيف الدين ألزمناه الحجة بإثبات جواز النسخ عقلاً .

ولــيس كل الناس يقبلون الشرع ، أو يقتنعون به ، فلا يقبل الشرع إلا من آمن به ، كما في قوله تعالى " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة "

أما غير المؤمن فقد يكون له خيرة من أمر الله ورسوله ﷺ .

وقد شغب بعض المشككين في الإسلام في هذه الأيام كثيراً حول قضية النســخ ؛ ونحــن حينما ندلل هنا على جواز حصول النسخ عقلاً فإنما نــريد أن نجلي الحق ؛ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيَّ عن بينة .

القول الثاني : **وهو قول اليهود ووافقهم بعض الشواذ من المسلمين** : إنه لا يجوز النسخ ؛ لأنه يستلزم " البداء " أو العلم بعد الخفاء .

والـــبداء معناه : أن الله بدا له أمر جديد غيَّر به الحكم ، فكأنه أراد هذا الحكم الثاني الناسخ بدلاً من الحكم الأول ، ولذلك فقد أنكروا النسخ خوفاً من هذه العلة.

والعلـــم بعــد الخفاء : أي العلم بعد الجهل ، ففي الأول أثبت هذا الحكـــم جهـــلاً ، ثم علم أن هذا الحكم غير مناسب فغيَّره ، ولهذا فهم يقولون : النسخ غير جائز عقلاً .

" الجواب عن شبهة يهود "

إن الله تعالـــى كذَّب اليهود ، فقال " كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه "
إذاً ! كان هناك طعام حلال ، ثم تغير حكمه إلى حرام ، أليس هذا نسخاً وقع في شريعتهم ؟

وإن قيل : هو تخصيص .
قلنا : التخصيص نوع من النسخ ؛ لأن فيه تغييراً لحكم سابق .

ثم إن اليهود متفقون على أن شريعة موسى نسخت ما سبقها من شرائع ، كمـــا قيل : إن أبناء آدم الأولين كان يباح لأحدهم أن يتزوج من فتاة ولـــدتها أمه ، ثم حرم هذا في شريعة موسى عليه السلام ، أي نسخ ، فمـــا دامـــوا يقولـــون : إن شـــريعة موسى ناسخة لما قبلها ، **فكيف ينكرونه على غيرهم ، ويقرونه لأنفسهم ؟**

وأيضاً : فالنصارى يقولون : يحرم على الرجل أن يطلق زوجته ، فإن صح هذا في شريعتهم ، فإن معناه أن الشريعة النصرانية نسخت الحكم بجواز الطلاق الذي كان مقرراً في الشريعة اليهودية .

مناقشة القول بالبداء

أمـا مـا ذكروه من مسألة البداء أو العلم بعد الخفاء فإنه منقوض بأن النسـخ مبني على حكمة ، والحكم تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والأشخاص والأماكن ، ولهذا :

نوجب على الغني أن ينفق على أقاربه ، ولا نوجب على الفقير ؛ لأن الثانـي ليس أهلاً للمواساة ، وفيه إلزامه بما لا يستطيع ، والأول أهل لذلك ، فالأحكام تابعة للحكمة ، والحكمة تختلف باختلاف الناس ، فلهذا كان النسخ هو مقتضى الحكمة ، وليس مخالفاً للحكمة .

ما الدليل على أن النسخ جائز عقلاً ؟

الدلـيل علـى جواز النسخ في حكم العقل هو : أن الله بيده الأمر وله الحكم ، فيأمر بما يشاء ، ويحكم بما يشاء ؛ لأنه سبحانه وتعالى الرب المالـك ، فلـه أن يشرع لعباده ما تقتضيه حكمته ورحمته ، فهو رب ومالك له أن يشرع،ومع ذلك فنحن نؤمن بأنه لا يشرع شيئاً إلا لحكمة وهل يمنع العقل أن يأمر المالك مملوكه بما أراد ؟

الجواب : أنه لا يمنع ؛ لأنه إذا كان عندك خادم أو عبد ، وقلت له : أحضر القهوة مثلاً ، فهل من حق ضيفك أن يقول لك : ليس لك حق فيما تأمره ؟

اللهم لا ! وستقول له : يا أخي ! هذا ملكي ، وأنا أدبره وأتصرف فيه .

وملكـــية الله تعالـــى لـــنا أوثق وأقوى وأظهر من ملكية السيد لعبده ، فالأخيـــرة ملكية قاصرة ، أما ملكية الله تعالى لنا فهي ملكية مطلقة لا منازع فيها ، ولذلك ! فليس لأحد أن ينكر أن يأمر سبحانه العباد بأمر ، لـــم يأمرهم به من قبل ، أو يبيح لهم ما نهاهم عنه من قبل ؛ لأنه ربهم .

إذاً ! العقل لا يمنع النسخ .

بـــل إن العقـــل يـــوجب النسخ إذا وجد مقتضاه ؛ أي إذا كانت الحال تقتضي أن يرخص للعباد في شيء ، وقد نهوا عنه قبل ذلك ، ونحن لا نـــوجب على الله تعالى شيء ، لكن مقتضى صفاته العظيمة أن تكون الحكمـــة مرابطة لشرعه وقدره ، فصار الآن العقل لا يمنع ، بل العقل يوجب النسخ عند حصول سببه ([1]) .

فإن قال قائل : إذا كانت مصالح العباد تختلف من زمان إلى زمان آخـــر واختلفت في عشر سنوات ، أليس اختلافها في بقية الزمان من باب أولى ؟ مما يعني أن الإسلام لا يصلح لكل زمان ومكان .

وجوابه :

فـــي مدة الرسالة ، وهي ثلاث وعشرون سنة اختلفت المصالح ، لكن الله تعالى قال في آخر هذه المدة " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي "

---

[1]) يراعى أنني استفدت كثيراً في صياغة الحديث عن النسخ من فضيلة الشيخ / محمد ابن عثيمين عليه رحمة الله في كتابه : شرح الأصول من علم الأصول فليراجع.

فالــدين أكمل بقواعده وأسسه ، ولهذا ! فما من مسألة جزئية توجد إلى يوم القيامة إلا وقد وجد حلها في القرآن أو في السنة .

ولا نقــول : فــي كلام العلماء ؛ لأن العلماء ــ رحمهم الله ــ تفوتهم بعــض الأشــياء ، لكــن القرآن والسنة تضمنت نصوصهما ما يحقق مصالح الناس على اختلاف الزمان والمكان .
وأنت ترى أن النص الواحد يستفيد منه عالم عشر فوائد ، وعالم آخر يســتفيد منه مائة فائدة ، وثالث : أكثر ، وربما لم يستفد بعض الناس شــيئاً من هذا النص ذاته ، وذلك لقلة فقههم ، وضعف علمهم ، وليس لخلو النص عن الفائدة .

القول الثالث : **وإليه ذهب أبو مسلم الأصفهاني** وهو يرى أن النسخ جائز عقلاً وواقع سمعاً بين الشرائع المختلفة ، ولكنه غير واقع فى شريعة سيدنا محمد ﷺ.

أدلة الجمهور

استدل الجمهور على ما ذهبوا إليه :

أولاً : قوله تعالى " ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير " [١].

والآيــة دلــيل على جواز وقوع النسخ فى الشريعة ، لأن معناها " إن ننسخ نأت " .

فقــوله تعالــى " ما ننسخ من آية أو ننسها " جملة شرطية ، وليست جملة سلبية ، لم يقل الله عز وجل " لا ننسخ الآية " بل قال " ما ننسخ "

---

١) الآية " ١٠٦ " من سورة البقرة .

والشــرطية تقتضــي وجود الشرط والمشروط ، إلا إذا قام دليل على امتناعه ، ولا دليل هنا على هذا الامتناع .
ومــثل ذلــك إنمــا يقال فيما هو جائز عقلاً ، وليس فيما هو محال ، ومن ثم ! فالآية تدل على جواز النسخ .

فإن قيل :

قوله تعالى " نأت بخير منها " واضح في جواز النسخ ؛ لأنه يأتي بما هو خير ، " أو مثلها " كيف يكون النسخ من شيء إلى مثله ؟ وهل هذا إلا عبث ؟

أجـيب بأنـه ليس المراد بالمماثلة هنا : المماثلة من كل وجه ، بل قد يكون المماثلة في الصورة فقط ، مع اختلاف ما يترتب على كل واحد من الناسخ والمنسوخ

فمثلاً : نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، فهذا مثل ، فالمكلف لا فرق عنده بين أن يستقبل بيت المقدس أو الكعبة ، فالكل واحد ، لكن فيما يترتب على ذلك ليس مثله .
فالتوجه إلى البيت الذي هو أفضل بيت على وجه الأرض ، وهو أول بيت وضع لعبادة الله ،لا شك أنه أصلح للعباد .

ثانياً : استدل الجمهور بوقوع النسخ بالفعل :

كما في الأمثلة الآتية :

[أ] قوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ... "

وقـــد نسخ هذا الحكم بقوله تعالى " أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صـــدقات فـــإذ لـــم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله .. " (١)

وهذه الآية دليل على وقوع النسخ بالفعل فى القرآن الكريم .

[ب] الـــتوجه إلـــى بيت المقدس كان واجباً إجماعاً ، ثم نسخ بوجوب التوجه إلى الكعبة زادها الله شرفاً.

[ت] الوصـــية للوالدين والأقربين كانت واجبة فى صدر الإسلام بقوله تعالـــى " كـــتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للـــوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين " (٢) ثم نسخت بآية المواريث (٣).

دليل أبى مسلم الأصفهاني

اســـتدل أبو مسلم الأصفهاني على الجواز العقلي بما استدل به الجمهور. واستدل على أن النسخ غير واقع فى شريعتنا بقوله تعالى " لا يأتيه الباطل مـــن بـــين يديـــه ولا مـــن خلفـــه تنـــزيل مـــن حكـــيم حميد " (٤) .

---

١) الآيتان " " من سورة المجادلة .

٢) الآية رقم " ١٨٠ " من سورة البقرة .

٣) انظر : علم أصول الفقه للشيخ أبى النجا ص ١٤٤ .

٤) الآية " ٤٢ " من سورة فصلت .

وجه الدلالة

النســخ باطــل ، لأن فــيه إلغاء للحكم المنسوخ وإبطال له ، فلو وقع في القرآن لأتاه الباطل ، وفى ذلك تكذيب لخبر الله تعالى ، والكذب فى خبره تعالى محال [١] .

كما استدل أبو مسلم بأن ما اشتمل عليه القرآن شريعة أبدية باقية إلى يوم القيامة ، والمناسب لهذه الخاصية القرآنية ألا يكون فيه نسخ .

المناقشة

ناقش أبو مسلم ما استدل به الجمهور بأنه لا يقطع بوقوع النسخ فى القرآن .

فقوله تعالى " ما ننسخ من آية أو ننسها " يراد بها المعجزة ، وهو أن يأتي الله عز وجل لنبي بمعجزة لم يأت بها لآخر.

ولذا قال تعالى بعد ذلك " ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير "

وقال سبحانه " أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل "

وهذا يدل على أن الآية المعجزة ، والنسخ إنهاء أمرها وتركها .

على أن الآية لا تدل على وقوع النسخ ، بل على إمكانه ولا منازعة فيه ، أضف إلى ذلك أن الآيات التى ادُّعِى نسخها يمكن التوفيق بينها ، إما بطــريق التأويل القريب ، أو بطريق التخصيص ، وإن هذا أولى من القول بالنسخ [٢].

---

١) انظر : دراسات فى القرآن د / الحفناوى ص ٣٥٢ .

٢) انظر : أصول الفقه للشيخ أبى زهرة ص ١٧٢ – ١٧٣ .

<u>وناقش الجمهور استدلال أبى مسلم</u> بأن النسخ باطل ، والقرآن منزه عنه :
بأنـــا لا نسلم بأن النسخ باطل ، بل هو إبطال ، لأن الباطل ضد الحق والنسخ حق وصدق ، وإن كان المنسوخ غير معمول به ، فلا دلالة فى آية " لا يأتيه الباطل " على المطلوب .

ومعنـــى الآيـــة كما ذكر العلماء أن ألفاظ القرآن محفوظة من التغيير والتبديل ، ولا يمكن أن يتطرق إلى ساحته الخطأ .

ولو سلمنا أن النسخ باطل لكنا نقول : إن الضمير فى قوله تعالى " لا يأتيه " راجع إلى كل القرآن ، وعليه :
فيكون المعنى : إن كل القرآن لا يأتيه الباطل أى النسخ ، ونحن جميعاً مـــتفقون على أن القرآن جميعه لا ينسخ ، لأنه معجزة نبينا محمد ﷺ المستمرة على التأبيد ، وعليه فمحل النزاع لا دلالة فى الآية عليه [١]

<u>الرأي المختار</u>

بعـــد هـــذه المناقشـــة أرى أن الخـــلاف بين أبى مسلم الأصفهاني والجمهور خلاف لفظي فقط ؛ لأنه يرى ما يراه الجمهور من أن النسخ جائـــز عقلاً وأن شريعة سيدنا محمد ﷺ ناسخة لجميع الشرائع ، ولكن ما يسميه العلماء نسخاً فى الشريعة الواحدة يسميه هو تخصيصاً [٢] .

---

١) انظر : دراسات فى القرآن د / الحفناوى ص ٣٥٣ .

[illegible] ٣٥٩، أصول الفقه د / مدكور ص ١٠٧ – ١٠٨ .

ومع إجلالنا لمقصد الإمام أبى مسلم الأصفهاني فى إنكار وقوع النسخ فى الشريعة الإسلامية ، وهو التخوف من تشكيك المشككين فى أحكام الشريعة ، إلا أنه لا سبيل لإنكار أن النبى ﷺ نهى فى أول الإسلام عن زيارة القبور، ثم رخص في زيارتها، فنسخ حكم النهى الأول .

ولا سبيل لإنكار أن النبى ﷺ نهى عن ادخار لحوم الأضاحي ، ثم رخص فى ذلك ، فنسخ الحكم الأول .

ولا سبيل لإنكار أن المسلمين أمروا بالتوجه إلى بيت المقدس ، ثم نسخ هذا الحكم وأمروا بالتوجه إلى البيت الحرام بمكة .

وأما التخوُّف من أن يأخذ أعداء الإسلام من النسخ مطعناً فى الشريعة فالجواب عنه ما قاله الله عز وجل فى قرآنه " وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون " [1] فهم لا يفهمون الحكمة من النسخ ، ولذلك قالوا ما قالوه .

لماذا كان النسخ فى الشريعة الربانية ؟

قد يقول قائل :

إذا جاز النسخ فى القوانين الوضعية التى يضعها البشر ، وذلك بإلغاء قانون وإحلال قانون محله ، فإنه لا يسوغ فى الشريعة التى ينزلها علام الغيوب ، وذلك لأن قوانين البشر تجارب إنسانية ، والإنسان يخطئ ويصيب .

---

١) الآية " ١٠١ " من سورة النحل .

أمـــا شرائع السماء فإنها قانون الله الذى لا يجرى الخطأ فى فعله ولا قـــوله تعالـــى الله عن ذلك علواً كبيراً ، أليس الله تعالى يعلم أن الحكم سيستقر على ما يقتضيه الناسخ ؟

بلى ، ولا شك ! لكن الله عز وجل لرحمته وحكمته يجعل الأحكام تابعة للمصالح ، والمصالح تختلف من حال إلى حال ، فلهذا ثبت النسخ بين الشـــرائع السماوية المختلفة ، وفي الشريعة الواحدة أيضاً (١) ، وإليك فيما يلي زيادة بيان لهذه الحكمة . .

حكمة النسخ بين الشرائع السماوية

المعلــوم أن شـــرائع السماء إصلاح الله تعالى للبشر، وهى واحدة فى أصـــلها لا تـــتعدد ، ولكنه سبحانه وتعالى لم يخلق الناس على شاكلة واحدة ، فكان لابد أن تختلف بعض الأحكام التفصيلية فى طائفة ، ولا تصـــلح فـــى الأخـــرى ، فكان لذلك التناسخ فى الشرائع السماوية فى الأمـــور التى تختلف فيها الأجيال الإنسانية ، ولا تناسخ فيما هو أصل الفضائل ، وما به قوام الأمم وما يتعلق بالتوحيد (٢) .

---

1) هذا المنهج الرباني يدلنا على مسألة عملية منهجية نستفيد منها ، وهي أن الإنسان إذا عمـــل عملاً ورأى أن انتفاعه به قليل فلينتقل إلى غيره ، وإذا رأى المصلحة وبـــورك له فيه فالأولى له أن يستمر ، ولهذا روي عن الفاروق عمر رضي الله عـــنه قال " من بورك له في شيء فليلزمه " وهذا يشمل كل أعمالك الحياتية ، فلا تنـــتقل من عمل صالح ؛ لأن التنقلات مضيعة للوقت ، وهدم لما مضى . يراجع الشيخ ابن عثيمين ص٣٤٣ .

٢) انظر : أصول الفقه للشيخ أبى زهرة ص ١٦٧ .

فالإسلام نسخ الشرائع السابقة ، لأنه جاء بعد أن بلغت الإنسانية شأواً بعيداً في حياتها ، وتمرست بما سبق من أديان أنزلها الله مناسبة للأحوال التي مرت بها الإنسانية .

وذلك لأن النوع الإنساني قد تقلب كما يتقلب الطفل في أدوار مختلفة ، ولكل دور من هذه الأدوار ما يناسبه من معارف وتشريعات [1] .

حكمة النسخ في الشريعة الإسلامية

بداية نشير إلى أن جميع الشرع مبني على الحكم ، لكن من الحكم ما يعلم ، ومن الحكم ما لا يعلم ، فالحكمة المعلومة واضحة ، وغير المعلومة يسميها العلماء " تعبدية " ، يعني أن الحكمة منها أن الله تعبدنا بها ، ولكننا لا ندري ما هو السبب ؟

وهذه الأمور التعبدية كوجوب تقبيل الحجر الأسود في الحج ، وتحديد أعداد الركعات في الصلوات ، فهذه وأشباهها حاول بعض العلماء أن يجد لها حكمة ، ولكن نحن لا يهمنا ، نحن نعلم أن الله تعالى حكيم ، فكل شيء يشرعه فهو مبني على الحكمة ، لكن عقولنا القاصرة لا تدرك بعض الحكم ، فتفوتها .

فالمهم أننا يجب أن نؤمن بأنه ما من شيء يشرعه الله عز وجل إلا وهو مبني على الحكمة ، ومن ذلك : النسخ ، ومع ذلك فكون الحكم ينتقل من شيء لآخر تبدو له حكم كثيرة ، نذكر منها هذه الأمور الآتية :

---

١) انظر : من أحكام القرآن وعلومه لفضيلة الشيخ / جاد الحق على جاد الحق ص ٥٧ .

[أ] التطور في التشريع حتى يظهر الكمال فيه .

وذلك لأن النبى ﷺ بعثه الله تعالي فى قوم لم يكونوا ذوى دين ، ولم يتقيدوا من قبله بقانون ، ولا نظام ، فلو خوطبوا بالأحكام الشرعية دفعة واحدة ما أطاقوها .

فعدالة التشريع تقتضي التدرج ، وعدم مفاجأة من يشرع لهم بما يشق عليهم فعله أو ما يشق عليهم تركه .

وهذا التدرج يقتضي التعديل والتبديل ، ولذلك أخذهم الله سبحانه وتعالى بالتدرج ، فنزل على الرسول ﷺ من الأحكام ما يطيقون ، حتى إذا ذاقوا بشاشة الإيمان ، وراضوا أنفسهم على شكائم خلقية فاضلة خوطبوا بأحكام الشريعة الخالدة التى لا تبديل فيها ولا تغيير [(١)] .

<u>وعلى هذا !</u>

فنسخ بعض أحكام الإسلام روعي فيه نشأة الأمة الإسلامية وانتقالها من حال البداوة إلى التنظيم والتهذيب ، لأن الطفرة من نوع المستحيل الذى يرغب عنه الإنسان ، ولا يطيقه .

كتدرج القرآن فى تحريم الخمر باعتبارها سلوكاً وعادة غالبة مستحكمة فى نفوس العرب وأهوائهم يستدلون بها على القوة والفتوة والشهامة والكرم ، فكان لابد لاقتلاعها من نفوسهم من التدرج فى التحريم ، حتى يقلعوا عنها بعد أن يقتنعوا بآثامها ومضارها [(٢)] .

---

١) علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٢٢٢ ، أصول الفقه للشيخ أبى زهرة ص ١٦٧

٢) انظر : من أحكام القرآن وعلومه لفضيلة الشيخ جاد الحق ص ٥٧ .

[ب] أن المقصــود من التشريع تحقيق مصالح الناس ، وهذه المصالح قــد تتغيــر بتغير أحوالهم ، والحكم قد يشرع لتحقيق مصالح اقتضتها أسباب ، فإذا زالت هذه الأسباب فلا مصلحة في بقاء الحكم [١].

[ت] اختــبار المكلفــين باســتعدادهم لقبول التحول من حكم إلى حكم، ورضـــاهم بذلك، وذلك من أشد ما يكون ، فبعض الناس لا يرضى أن تــتحول الأحكام أحياناً كذا ، وأحياناً كذا ، ولهذا لما حولت القبلة ارتد بعــض الــناس ، كما قال تعالى " وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله "

المهم أن في النسخ اختبار للمكلفين : هل يرضون بالأحكام ويتقبلون ؟ وإذا قيل لهم : هذا حلال فعلوه ، وهذا حرام فأمسكوا عنه ، وهذا واجب التزموا به ، وهذا لا شك من أكبر الحكم .

[ث] اختــبار المكلفين بقيامهم بوظيفة الشكر إذا كان النسخ إلى أخف ، ووظيفة الصبر إذا كان النسخ إلى أثقل .

<u>مــثال النسخ إلى ما هو أخف :</u> الأمر بالمصابرة في القتال ، حيث كــان المســلم مكلفاً بالثبات في الحرب أمام عشرة ، ثم وقع التخفيف ، فألزم بالثبات أمام اثنين فقط .

---

١) انظر : علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٢٢٢ .

مـــثال النسخ إلى ما هو أثقل : التحريم الأبدي للخمر، بعد الإشارة إلى أن في الخمر إثماً كبيراً ومنافع للناس ، ثم نسخ هذا الحكم إلى ما هو أشد منه ، وذلك بتحريمها في وقت الصلاة ، ثم التحريم الأبدي .

وقد يكون النسخ إلى ما هو مساوي : كالأمر بالتحول في الصلاة مـــن بـــيت المقـــدس إلى بيت الله الحرام ؛ لأن الإنسان من حيث العمل والتكليف لا يفرق بين أن يستقبل الكعبة أو يستقبل بيت المقدس ، وقد قلنا : إن المكلـــف في النسخ إلى ما هو مساوي يختبر امتثاله لأمر الله تعالى وطاعته .

شروط النسخ

نظراً لخطورة القول بنسخ آية من الآيات فقد وضع الجمهور القائلون بجواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعاً شروطاً لابد منها لقبول القول بنسخ الحكم الوارد فى آية من آيات القرآن ؛ حتى لا يستبيح أحد لنفسه القول بالنســـخ لمجـــرد رفـــع شبهة تعارض دليلين ، وحتى يغلق الباب أمام أصـــحاب الهوى الطامعين فى إبطال العمل بأحكام الشريعة ، أو حتى ببعضها بدعوى النسخ [1] ، **وهذه الشروط هى :**

---

١) طالـــب بعض المحدثين المسلمين بترك بعض الأحكام الواردة فى كتابهم بحجة أن الـــزمان تغير وأحوال الناس طرأ عليها ما لم يكن فى القرون الأولى ، وإذا كانت أحكـــام تبدلت فى أقل من ربع قرن – هكذا زعموا – فإن حكمة التبديل أظهر بعد مـــرور أربعة عشر قرناً ، وهذا كلام متهافت سقيم يغلب على الظن أنه كتب فى ساعة غيبوبة ، وإلا فما هى الأحكام التى تبدلت فى القرآن ؟ أقرب ما يتردد على الشـــفاه هـــو مـــا ورد فى تحريم الخمر ، وهذا التحريم ثابت فى نصوص الكتاب

<u>الشرط الأول :</u>

أن يكون الحكم المنسوخ مما يقبل النسخ :

لأنـــه لـــيس كل نص ورد فى القرآن والسنة يقبل أن ينسخه نص لاحق فى حياة الرسول ﷺ ، بل إن من النصوص نصوصاً محكمات لا تقبل النسخ أصلاً ، وإليك بيان هذه النصوص :

[١] **النصـــوص التى تضمنت أحكاماً أساسية** لا تختلف باختلاف أحوال الناس ، ولا تختلف حسناً وقبحاً باختلاف التقدير ، وهي :

- النصوص التى تضمنت إيجاب الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وسائر أصول العقائد والعبادات .
- النصوص التى قررت أمهات الفضائل من بر الوالدين والصدق والعـــدل وأداء الأمانات إلى أهلها وغير ذلك ، مما لا يتصور أن يكون قبيحاً فى أية حال ، وعلى أية تقدير .
- النصـــوص التـــى دلت على أسس الرذائل من الشرك بالله وقتل النفس بغير حق وعقوق الوالدين والكذب والظلم وغير ذلك مما لا يتصور أن يكون حسناً فى أى حال (١)

الكريم ، ولم تنزل فى القرآن آية بإباحة شربها ، ثم جاء بعد ذلك الحكم بنسخ هذه الإباحـــة ، وغاية ما هنالك أن حمل الناس على هذا التحريم اتخذ سنة التدرج فى التشـــريع ، فـــالله عز وجل أحكم من أن يفطم عباده عن هذه الآفة بكلمة واحدة ، ولـــذلك فقـــد شرع لهم ما يبعدهم عن هذا الشراب المحرم رويداً رويداً ، حتى إذا تمهـــد الجـــو للصراحة الكاملة والعقاب الشديد أعلن الحكم الذى سبق الإيماء إليه فاعتبـــرت الخمر رجساً واعتبر شاربوها مجرمين ويضربون بالعصي والنعال . انظر : نظرات فى القرآن للشيخ محمد الغزالى ص ٢٣٨ .

١) انظر : أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٢٢٦ .

[٢] **النصـــوص التى تضمنت أحكاماً مقترنة بعبارة تفيد** أنها أحكام أبدية خالدة ، فإن مثل هذه الأحكام لا تنسخ ، لأن تأبيدها يقتضي عدم نســخها ، وإلا يكــن فــى هذا مناقضة لأصل النص ، ومنزل الناسخ والمنســوخ واحد ولذا قال الفقهاء : إن الجهاد لا ينسخ ، فقد قال ﷺ " الجهاد ماض إلى يوم القيامة " .

ومــن أمثلة الأحكام القرآنية المقترنة بصيغة التأبيد قوله تعالى فى بيان حد قاذف المحصنات " ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً " .
فلفظ " أبداً " يدل على أن هذا حكم دائم لا يزول [١].

[٣] **النصـــوص التى دلت على وقائع وقعت** ، وأخبرت عن حادثات كانــت ، كقوله تعالى " فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية " [٢].

فالنسخ يمتنع للأخبار الواردة في القرآن والسنة ، بمعنى أن الله تعالى إذا أخبر بشيء فلا يمكن أن يأتي بما يناقضه ؛ لأن هذا مستحيل .

فــإذا قلت لك : " قدم زيد البلد " فهذا خبر ، فلو قلت لك بعد ساعة أو ســاعتين " لم يقدم زيد البلد " فهذا يحتمل أمرين : إما أني كاذب ، أو متوهم ، وخبر الله تعالى يستحيل فيه الكذب والوهم ، ولهذا لا يمكن أن يوجد في أخبار الله تعالى نسخ .

---

١) انظــر : المــرجع السابق ذاته ، وأيضاً : أصول الفقه للشيخ أبى زهرة ص ١٦٩ .

٢) الآيتان " ٥ – ٦ " من سورة الحاقة .

فــلا يتصــور بعــد أن قص الله تعالى علينا أنه أرسل نوحاً وإبراهيم وغيــرهما مــن الأنبــياء أن تأتي نصوص تقول : ما أُرسِل نوح ولا إبراهيم ، فهذا مستحيل ؛ لأن النسخ محله الحكم . فالأخبار ليست محلاً للنسخ .

الشرط الثاني :

أن يكــون النسخ بدليل شرعى فى قوة الدليل المنسوخ أو أقوى منه : ولذلك !

فإن القائلين بالنسخ أجازوا **نسخ بعض القرآن ببعض القرآن** ، كنسخ وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الصحابي للنبي ﷺ ، فقد نسخ بالآية القرآنية التالية للآية التى تضمنت هذا الحكم .

كمــا اتفقــوا على أن **السنة المتواترة تنسخ بالقرآن** ، كنسخ التوجه لبيت المقدس بالأمر بالتوجه للكعبة المشرفة .

وأمــا نســخ القــرآن بالسنة ، فإن كانت خبر آحاد فلا تنسخ الآيات القــرآنية بــه ، لأن النسخ أساسه التعارض ، ولا يكون التعارض إلا بين نصــين فــى مرتبة واحدة من حيث السند ، ولأن القرآن قطعى ، وخبر الآحاد ظني ، والقطعي لا ينقض بالظني [1].

---

١) انظــر : أصــول الفقه للشيخ أبى زهرة ص ١٧٤ وقد ذكر فضيلته أن الإمام ابن حــزم الأندلســي يرى جواز نسخ القرآن بخبر الآحاد ؛ لأنه يرى أن كل السنة قطعى ، وبذلك يكون خبر الآحاد قطعياً أ . هـــ .

وأمـــا نسخ القرآن بالسنة المتواترة فمنعه قوم مستدلين بظاهر قوله تعالى " ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها " فالآية بظاهرها تثبت أن النسخ للقرآن الكريم لا يكون إلا بقرآن مثله .

وأجـــاز جمهـــور الفقهـــاء نسخ القرآن بالسنة المتواترة محتجين على الجـــواز بـــأن المتواتـــر من السنة كالقرآن فى قطعية الثبوت ووحدة المصدر وهو الوحي [١] .

هل يصلح الإجماع ناسخاً للنص الشرعي ؟

اتفـــق الأصوليون علـــى أن النص قرآناً أو سنة لا ينسخه إجماع أبداً بأي صورة من الصور ، وقد عللوا هذا بما يلي :

أن النص إن كان قطعي الدلالة امتنع انعقاد الإجماع على خلافه.

وإن كان ظني الدلالة وانعقد الإجماع على خلافه كان معنى هذا وجود دليل آخر ترجح فى نظر الفقهاء المجمعين على النص الظني الدلالة ، فـــيكون بذلك الدليل الذى ابتنى عليه الإجماع هو الناسخ ، لا الإجماع ذاته [٢] .

---

١) انظر : المرجع السابق ذاته وأيضاً : علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٢٢٧ ، علم أصول الفقه للشيخ أبى النجا ص ١٤٨ .

٢) انظـــر : أصـــول الفقـــه د / ســـلام مدكور ص ١٠٩ ، الوجيز فى أصول الفقه د / زيدان ص ٣٩١ .

هل يصلح القياس ناسخاً للنص الشرعي ؟

اتفـق العلمـاء أيضاً على أن القياس لا يصلح ناسخاً لنص من الكتاب والسنة ولا منسوخاً بهما .

وقد قلنا : إن القياس لا يصلح ناسخاً للنص ؛ لأنه لا يصار إليه إلا عند عدم وجود الحكم في الكتاب ، أو السنة ، أو الإجماع .

كمـا أن من شروط القياس أن لا يخالف الثابت فى واحد منهما ، وإلا لم يصح اعتباره [١] .

كمـا أن القياس لا يصلح منسوخاً بنص قرآني أو نبوي ؛ لأنه لم يكن مصـدراً للتشريع في زمان نزول النص أصلاً ، وإنما المصدر حينئذ هو الوحي بشقيه : المتلو (القرآن) وغير المتلو (السنة النبوية) .

الشرط الثالث :

أن يكون الناسخ منفصلاً عن المنسوخ متأخراً عنه :

أمـا إذا كان النص المتضمن لحكم مغاير للحكم المنصوص عليه أولاً مقترناً به ، كالشرط ، أو الصفة ، أو الاستثناء ، فإنه لا يسمى نسخاً ، بل تخصيصاً ، **ويُعْرَف الناسخ من المنسوخ بأمور :**

---

١) انظر : الوجيز فى أصول الفقه د / زيدان ص ٣٩٢ .

[أ] أن يكـــون فـــى أحد النصين ما يدل على تعيين المتأخر منهما :

نحـــو قوله تعالى " يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الـــذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون* الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضـــــعفاً فـــــإن يكـــــن مـــــنكم مائـــــة صـــــابرة يغلـــــبوا مائتين ... " [(١)] .

فالآية الأخيرة جاءت بالتخفيف مما حوته الآية السابقة عليها وصريحة فى نسخ حكمها [(٢)]

[ب] أن يـــنعقد إجماع الصحابة على أن أحد الحكمين ناسخ للآخر :

كإجمـــاعهم علـــى أن وجـــوب صـــوم رمضـــان نسخ وجوب صوم عاشوراء [(٣)]

[ت] أن يثبت من طريق صحيح عن أحد أصحاب رسول الله ﷺ مـــا يفـــيد تعيـــين أحد النصين المتعارضين للسبق على الآخر أو التأخير عنه فى النزول :

---

١) الآيتان " ٦٥ – ٦٦ " من سورة الأنفال .

٢) انظر : من أحكام القرآن لفضيلة الشيخ جاد الحق ص ٥٨ ، ومن هذا الطريق في تعيـــين الناســـخ مـــن المنســـوخ قـــوله ﷺ " كـــنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها ... "

٣) انظر : علم أصول الفقه للشيخ أبى النجا ص ١٤٩ .

كقول الصحابي : نزلت هذه الآية بعد تلك الآية كقول ابن مسعود : من شـــاء باهلـــته أن سورة النساء الصغرى – يعنى الطلاق – نزلت بعد النساء الكبرى يعنى البقرة – فى معرض تأييده لفتواه للمعتدة عن وفاة ، وهى حامل بأن عدتها بوضع الحمل [١] .

<u>الشرط الرابع :</u>

تعـــذُّر الجمـــع بين الدليلين ، فإن أمكن الجمع فلا نسخ ؛ لإمكان العمل بكل منهما :

وهذا الشرط إنما يطلب في شأن النسخ الضمني :

وهـــو الـــذى لم ينص الشارع فى تشريعه اللاحق على إبطال تشريعه السابق ، ولكن يشرع حكماً معارضاً حكمه السابق .

وقد توارد الحكمان على موضوع واحد بالسلب أو الإيجاب .

ولا يمكـــن التوفـــيق بين الحكمين إلا بإلغاء أحدهما ، فيعتبر اللاحق ناســـخاً للسابق ضمناً يشترط فيه – أى فى النسخ الضمني – بالإضافة لما سبق من الشروط :

أن يكون التوفيق بين النصين غير ممكن ، فإن كان التوفيق ممكناً بأي وجه من وجوه التوفيق ، ولو بضرب من التأويل الذى يطيقه اللفظ فإنه لا يصار إلى النسخ ، لأن النسخ إنهاء للحكم وعدم إعمال للنص .

ولا يصار إلى ذلك إلا عند تعذر التوفيق ، ويقول الفقهاء :

---

١) انظـــر : المرجع السابق ذاته وأيضاً : من أحكام القرآن لفضيلة الشيخ جاد الحق ص ٥٩ .

إن مــن هــذا النسخ الضمني نسخ آية المواريث للوصية للوارث التى اشتملت عليها آية الوصية [١].

أقسام النسخ الواقع فى القرآن

ينقسم النسخ باعتبار النص المنسوخ إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول :

نسخ التلاوة والحكم معاً : مثل ما روته عائشة رضى الله عنها قالت : " كــان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرمن ، ثم نسخن بخمس معلــومات " أى ثم نسخت الخمس أيضاً تلاوة وحكماً عند الإمام مالك وتلاوة فقط عند الإمام الشافعي .

القسم الثاني :

نسخ التلاوة فقط مع بقاء الحكم :

من ذلك : ما روى أنه مما نزل " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله " فنُسِخ اللفظ ، وبقى حكمه معمولاً به ، وإن خصص بالإحصان .

الحكمة من نسخ اللفظ وبقاء الحكم هي :

أن يعمــل الناس به ، وإن كانوا لا يجدون لفظه ، ففي هذا اختبار أيضــاً ؛ لتحقيق الإيمان بالله عز وجل ، فإن الإنسان كلما تحقق إيمانه ازداد امتثالاً لأمر ربه عز وجل ، بخلاف اليهود :

---

١) انظر فى هذا : علم أصول الفقه للشيخ خلاف ص ٢٢٣ ، أصول الفقه للشيخ أبى زهرة ص ١٧٠ – ١٧١ .

فقـــد حاولـــوا كتم النص في التوراة ، مع بقاء حكمه ولفظه . وهؤلاء حاولوا كتمه لما كثر الزنا في أشراف بني إسرائيل قالوا : كيف نرجم الأشـــراف ؟ فأحدثوا لهم عقوبة هي : أن يسود وجه الزاني والزانية ، وأن يركبا على حمار أحدهما وجهه إلى وجه الحمار والثاني وجهه إلى دبـــر الحمـــار ، ويطاف بهما في السوق ، ويقال : هذان زانيان ، فإذا عادوا إلى بيوتهما يغتسل الزاني والزانية بصابون ومزيل للسواد ، ثم يعاودان إلى حالهما وينتهي الأمر .

فلمـــا هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، ووقع الزنا بين رجل وامرأة منهما قالوا: اذهبوا إلى هذا الرجل لعلكم تجدون في شرعه حداً دون الرجم، فجاءوا إلى النبي ﷺ ، وحكم عليهما بما في التوراة ، فجاءوا بالتوراة يتلونها ، فوضع الرجل يده على آية الرجم ، ولكن عبد الله بن سلام ، وقد كان حبراً من أحبار يهود قال له : ارفع يدك ، فلما رفع يده ، فإذا بآية الرجم تلوح بينة ، فأمر النبي ﷺ برجمهما ، فرجما .

المهـــم أن اليهود حاولوا كتم نص موجود في التوراة ، وهذه الأمة ــ أعني أمة الإسلام ــ ولله الحمد عملت لنص مفقود لفظه ثابت حكمه ، وبهذا تبين فضل الأمة الإسلامية والحمد لله .

القسم الثالث :

نسخ الحكم فقط دون التلاوة :

وهذا هو الكثير في القرآن ؛ لأنه ليس في القرآن ما نسخ لفظه ، وبقي حكمه إلا آية الرجم ، وكذلك آيات الرضعات التي ذكرناها قبل قليل ، وأمثلة ما نسخ حكمه وبقي لفظه كثيرة ، منها :

مـــا قالوه بالنسبة لحكم الوصية في قوله تعالى " كتب عليكم إذا حضر أحـــــدكم المـــــوت إن تــــرك خيــــراً الوصــــــية للــــــوالدين والأقربين... " فقد نسخ الحكم بآيات المواريث ، وبقيت الآية تتلى إلى يوم القيامة [١]

حكمة نسخ الحكم دون اللفظ

إن حكمـــة نســخ الحكم دون اللفظ حكمة عظيمة ، وهي بقاء ثواب الــتلاوة ، يعني أن الله تعالى أبقى اللفظ من أجل أن نزداد به ثواباً في القــراءة ؛ لأنـــه لـــو نسخ لفظ ما جاز لنا أن نتعبد بتلاوته ، فإذا بقى انتفعنا ، وازددنا ثواباً.

وهناك حكمة أخرى من نسخ الحكم دون التلاوة ، وهى :

تذكيــر الأمة بحكمة النسخ ؛ لأنه لو رفع اللفظ ما ذكرت الأمة ذلك ، بل لكانت الأمة تقول : ما هذا الذى نسخ ؟! بل ربما لا تعلم بالناسخ ، لولا الدليل المثبت للنسخ ، ككلمة " الآن " في قوله تعالى " الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً " .

فصار في بقاء التلاوة مع نسخ الحكم **فائدتان** :

الفائدة الأولى : بقاء ثواب التلاوة .

الفائدة الثانية : تذكير الأمة بحكمة النسخ ، وهو التخفيف ؛ لأنهم إذا كانـــوا يقرأون المنسوخ ، ويعرفون أنه نسخ تذكروا الحكمة ، لكن لو رفع لفظه ما تذكروا هذا .

---

١) انظر : علم أصول الفقه للشيخ أبى النجا ص ١٤٧ ، أصول الفقه د / سلام مدكور ص ١٠٨

خاتمة في فضل تلاوة القرآن

إن **القــرآن الكــريم** هو كلام الله تعالى الذي أوحاه إلى نبيه محمد ﷺ ، فكــان معجــزة خالدة في صدق الدعوة وقوة الإقناع ، وكان ولا يزال دســتوراً خالــداً على مر الأيام .. صالحاً لتنظيم شئون الحياة في كل زمان وكل مكان لا تنقضي عجائبه ، ولا يمله الإنسان مع كثرة الترداد. وقــد رغّبنا الله عز وجل في تلاوة القرآن وتدبر معانيه في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، ومن هذه الآيات :

يقول تعالى " الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون "

" الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير"

" وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد "

" ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم "

" إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم "

" إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور "

وتــتعدد الأحاديــث الــواردة عن الرسول ﷺ ، والتي يظهر فيها بيــان فضــائــل تلاوة القرآن ، بالإضافة لما ذكرناه من آيات ، وسنقتصر هــنا على ذكر بعض الأحاديث التي أخرجها البخاري رضي الله عنه فــي كــتاب فضائل القرآن ، وبعض الفوائد التي عرضها الإمام ابن حجر في فتح الباري في شرحه لهذه الأحاديث :

الحديث الأول

قوله ﷺ " مثل الذي يقرأ القرآن كالأترُجَّة ، طعمها طيب ، وريحها طـيب ، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب ، ولا ريح فيها ، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مـر ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ، طعمها مر، ولا ريح لها " ([1])

السر في تشبيه صفة الإيمان بالطعم وصفة التلاوة بالريح

قـال ابـن حجر : قيل : خص صفة الإيمان بالطعم ، وصفة التلاوة بالـريح ؛ لأن الإيمـان ألـزم للمؤمن من القرآن ؛ إذ يمكن حصول الإيمـان بـدون القراءة ، وكذلك الطعم ألزم للجوهر من الريح ؛ فقد يذهب ريح الجوهر ويبقى طعمه .

الحكمة في تخصيص الأترُجَّة بالتمثيل

والحكمـة فـي تخصيص الأترُجَّة بالتمثيل ، دون غيرها من الفاكهة التي تجمع طيب الطعم والريح كالتفاحة :
أنه يتداوى بقشرها ، وهو مفرح بالخاصية ، ويستخرج من حبها دهن له منافع .

---

[1]) الحديث أخرجه البخاري عن أبي موسى الأشعري .

إن الجــن لا تقــرب البــيت الذي فيه الأترجة ، فناسب أن يمثل به القرآن الذي لا تقربه الشياطين .

وغلاف حبه أبيض فيناسب قلب المؤمن .

وفــيها أيضــاً من المزايا : كبر جرمها ، وحسن منظرها ، وتفريح لونها ، ولين ملمسها ، وفي أكْلها مع الالتذاذ طيب نكهة ، ودباغ معدة وجودة هضم[1]

وفي الحديث فوائد منها :

بيان فضيلة حاملي القرآن .

وضرب المثل للتقريب للفهم .

وأن المقصود من تلاوة القرآن هو العمل بما دل عليه .

الحديث الثاني

عــن أسيد بن حضير قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة ، وفرسه مربوط عنده ، إذ جالت الفرس ، فسكت ، فسكنت ، فقرأ ، فجالت الفرس ، فسكت ، وسكت الفرس ، ثم قرأ ، فجالت الفرس ، فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريباً منها ، فأشفق أن تصيبه ، فلما اجترّه ، رفع رأسه إلى السماء ، حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال له : اقرأ يا ابن حضير ، اقرأ يا ابن حضير ، قال : فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى ، وكان منها قــريباً فــرفعت رأسي ، فانصرفت إليه ، فرفعت رأسي إلى السماء ، فإذا مــثل الظلــة فيها أمثال المصابيح ، فخرجت ، حتى لا أراها ، قال : تلك

---

1) انظر : فتح الباري لابن حجر ج٨ ص ٦٨٤ .

الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر إليها الناس ، لا تتوارى منهم " (١)

ما يرشد إليه هذا الحديث

في هذا الحديث دلالة على أمور كثيرة منها ما يلي :

[١] جواز رؤية آحاد الأمة للملائكة .

[٢] وفيه فضيلة القراءة وأنها سبب لنزول الرحمة وحضور الملائكة (٢)

[٣] أن أسيداً رضي الله عنه قد حافظ على خشوعه في الصلاة ؛ لأنه كان يمكنه أول ما جالت الفرس أن يرفع رأسه ، وكأنه كان قد بلغه حديث النهي عن رفع البصر إلى السماء ، فلم يرفعه ؛ حتى اشتد به الخطب، بل ويحتمل أنه لم يرفعه إلا بعد انقضاء صلاته ، فلهذا تمادى به الحال ثلاث مرات ، كما وقع في بعض الروايات .

[٤] أن الملائكة لاستغراقهم في الاستماع كانوا يستمرون على عدم الاختفاء الذي هو من شأنهم ، وإليه أشار المصطفى ﷺ في آخر

---

1) الحديث أخرجه البخاري عن أسيد بن حضير .

2) انظر : فتح الباري لابن حجر ج٨ ص٦٨٢ قال ابن حجر . الحكم المذكور — يعني قول النووي بحضور الملائكة عند القراءة — أعم من الدليل ، فالذي في الرواية إنما نشأ عن قراءة خاصة من سورة خاصة بصفة خاصة ، ويحتمل من الخصرصية ما لم يذكر، وإلا لو كان على الإطلاق لحصل ذلك لكل قارئ .

١) انظر : المرجع السابق ذاته .

الحـــديث بقـــوله "ولـــو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم " .

[٥] وفي الحديث أيضاً منقبة لأسيد بن حضير .

[٦] فضل قراءة سورة البقرة في صلاة الليل .

[٧] وفضل الخشوع في الصلاة ، وأن التشاغل بشيء من أمور الدنيا ، ولو كان من المباح قد يفوت الخير الكثير، فكيف لو كان بغير الأمر المباح ؟ (١)

معنى قوله " فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها "

أن أسيداً نقل ولده من المكان الذي هو فيه ؛ حتى لا تطأه الفرس ، ثم رفع رأســـه إلـــى الســـماء ، فإذا هو بمثل الظلة ، يعني السحابة ، فيها أمثال المصابيح،أي الملائكة ، فعرجت إلى السماء ، حتى ما يراها .

معنى قوله ﷺ " اقرأ يا ابن حضير "

أي كان ينبغي عليك أن تستمر في القراءة ؛ لتستمر لك البركة بنزول الملائكـــة ، واستماعها لقراءتك ، وفهم أسيد ذلك ، فأجاب بعذره في قطـــع القـــراءة ، وهـــو قوله " خفت أن تطأ يحيى " أي خشيت إن استمريت في القراءة أن تطأ الفرس ولدي .

الحديث الثالث

عــن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون في شهر رمضان؛ لأن جبريل كان يلقاه في كــل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ ، يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن ، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة " (1)

معنى قوله " أجود الناس "

أي أكثر الناس جوداً ، والجود : الكرم ، وهو من الصفات المحمودة . وفــيه احتــراس بليغ ؛ لئلا يتخيل من قوله " وأجود ما يكون في رمضان " أن الأجودية خاصة منه برمضان فيه ، فأثبت له الأجودية مطلقاً أولا ، ثم عطف عليها زيادة ذلك في رمضان .

قوله " في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ "

أي ينقضــي رمضان ، وهذا ظاهر في أنه كان يلقاه في كل رمضان مــنذ أنزل عليه القرآن ، ولا يختص ذلك برمضانات الهجرة ، وإن كــان صــيام شهر رمضان إنما فرض بعد الهجرة ؛ لأنه كان يسمى رمضان قبل أن يفرض صيامه .

---

(1) الحديث أخرجه البخاري عنه ج٨ ص ٦٦٠ .

قوله " يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن "

فـــيه إشارة إلى جواز إطلاق القرآن على بعضه ، وعلى معظمه ؛ لأن أول رمضـــان من بعد البعثة لم يكن نزل من القرآن إلا بعضه ، ثـــم كذلك كل رمضان بعده إلى رمضان الأخير، فكان قد نزل كله ، إلا ما تأخر نزوله بعد رمضان المذكور، فيستفاد من ذلك :
أن القـــرآن يطلـــق على البعض مجازاً ، ومن ثم لا يحنث من حلف ليقرأن القرآن ، فقرأ بعضه ، إلا إن قصد الجميع .

وجه الارتباط بين
مدارسة القرآن في شهر رمضان وزيادة الجود فيه

أن مدارســـة القـــرآن تجدد له العهد بمزيد غنى النفس، والغنى سبب الجود والجود في الشرع : إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي ، وهو أعم من الصدقة.

وأيضاً : فرمضان موسم الخيرات ؛ لأن نعم الله على عباده فيه زائدة علـــى غيره ، فكان النبي ﷺ يؤثر متابعة سنة الله تعالىٰ في عباده ، فـــبمجموع مـــا ذكر من الوقت ، والمنزول به ، والنازل ، والمذاكرة حصل المزيد في الجود والله أعلم .

قوله " كان أجود بالخير من الريح المرسلة "

المرسلة : أي المطلقة ، يعني أنه في الإسراع بالجود أسرع من الريح ، وعبر بالمرسلة إشارة إلى دوام هبوبها بالرحمة ، وإلى عموم النفع بجوده، كما تعم الريح المرسلة جميع ما تهب عليه .

ما يستفاد من هذا الحديث

في الحديث فوائد أهمها :

١- الحث على الجود في كل وقت .

٢- الزيادة في الطاعات في رمضان ، وعند الاجتماع بأهل الصلاح .

٣- زيـارة الصـلحاء وأهـل الخير، وتكرار ذلك إذا كان المزور لا يكرهه.

٤- اسـتحباب الإكـثار من القراءة في رمضان ، وكونها أفضل من سائر الأذكار؛ إذ لو كان الذكر أفضل أو مساويا له لفعلاه .

فإن قيل : المقصود تجويد الحفظ .

أجيب : بأن الحفظ كان حاصلاً ، والزيادة فيه تحصل ببعض المجالس.

٥- جـواز المبالغة في التشبيه ، وجواز تشبيه المعنوي بالمحسوس ؛ ليقرب الفهم لسامعه .

وذلك أنه أثبت له أولاً وصف الأجودية ، ثم أراد أن يصفه بأزيد من ذلك ، فشبه جوده بالريح المرسلة ، بل جعله أبلغ في ذلك منها ؛ لأن الريح قد تسكن .

٦- فـيه تعلـيم المتكلم الاحتراس ؛ لأن الريح منها العقيم الضارة ، ومـنها المبشرة بالخير؛ فوصفها بالمرسلة ؛ ليعين الثانية ، وأشار إلـى قـوله تعالى " وهو الذي يرسل الرياح بشراً " ونحو ذلك ، فالـريح المرسـلة تستمر مدة إرسالها ، وكذا كان عمله ﷺ في رمضان ديمة لا ينقطع.

٧- فـيه استعمال أفعل التفضيل في الإسناد الحقيقي والمجازي ؛ لأن الجـود مـن النبي ﷺ حقيقة ، ومن الريح مجاز، فكأنه استعار للريح جوداً ؛ باعتبار مجيئها بالخير، فأنزلها منزلة من جاد.

٨- فـي تقديم معمول أجود على المفضل عليه نكتة لطيفة ، وهي أنه لو أخره لظن تعلقه بالمرسلة ، وهذا وإن كان لا يتغير به المعنى المـراد بالوصف من الأجودية ، إلا أنه تفوت فيه المبالغة ؛ لأن المراد وصفه بزيادة الأجودية على الريح المرسلة مطلقاً .

٩- تعظـيم شـهر رمضان لاختصاصه بابتداء نزول القرآن فيه ، ثم معارضته ما نزل منه فيه ، ويلزم من ذلك كثرة نزول جبريل فيه ، وفي كثرة نزوله من توارد الخيرات والبركات ما لا يحصى ، ويستفاد منه أن فضل الزمان إنما يحصل بزيادة العبادة .

١٠- فيه أن مداومة التلاوة توجب زيادة الخير .

١١- استحباب تكثير العبادة في آخر العمر ، ومذاكرة الفاضل بالخير والعلم ، وإن كان هو لا يخفى عليه ذلك لزيادة التذكرة والاتعاظ .

١٢-فيه أن ليل رمضان أفضل من نهاره ، وأن المقصـــود من التلاوة الحضور والفهم ؛ لأن الليل مظنـــة ذلك؛ لمــا في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية ، ويحتمل أنه ﷺ كان يقسم ما نزل من القرآن في كل سنة على ليالي رمضان أجزاء ، فيقرأ كل ليلة جزءاً في جزء من الليلة . والسبب في ذلك : ما كان يشتغل به في كل ليلة من سوى ذلك من تهجد بالصلاة ، ومن راحة بدن ، ومن تعاهد أهل ، ولعله كان يعيد ذلك الجزء مراراً بحسب تعدد الحروف المأذون في قراءتها ، ولتستوعب بركة القرآن جميع الشهر .

وبعد ! أما بعد :

فهذا ما يسَّر الله عز وجل بتدوينه حول القرآن الكريم ، وإثبات نبوة خير المرسلين محمـد ﷺ خاطبت فيه المسلمين ، عموم المسلمين علَّهم يثوبون إلى الله بعد طول إبـاق ، وفـي بعض موضوعاته خاطبت البشرية ، علَّها تتوب من جريمة نكران الجميل التي يقابل بها بعض البشر رسالة سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ، فيعرضون عـنه ، ويصـدون الـناس عـن سبيله ، مع أن المنة التي يطوق بها أعناقهم في تحريرهم من العبودية للبشر إلى العبودية لخالق البشر سبحانه وتعالى أظهر من أن تحـتاج إلـى مؤلَّـف كهذا المؤلف ، وإنما هي تذكرة للغافل ، وإقامة للحجة على المكابر والمعاند .

والله يعلم أنني بذلت وسعي وطاقتي في الانتصار للقرآن والسنة ، ولعل هذه النية تكون سبباً في التجاوز عما فيه من هنات وأخطاء ، وما أريد إلا الإصلاح بحسب الوسع والطاقة ، راجياً التوفيق ممن بيده الخلق والأمر، وهو حسبي ونعم الوكيل .

كتبه المعترف بالخطأ والتقصير العاجز الفقير إلى عفو اللطيف الخبير

إبراهيم علوان

دمياط ــ في ليلة مباركة هي ــ ليلة النصف من شعبان ــ ١٤٢٦هـ

اللهم انفحنا وأولادنا ببركاتها، وبلِّغنا يا رحمن برحمتك شهر رمضان ، واكتبنا فيه مـن عـتقائك من النار ومن المقبولين ، فإنه لا حول لنا ولا قوة إلا بك . آمين . آمين

فهرس الموضوعات

تم

بحمد الله

رقم الإيداع
١٧٩٠٢ / ٢٠٠٥